نماذج من:



المحاضرات المسجدية

التي ألقاها الأستاذ: عبد القادر مهاوات
بمساجد ولاية الوادي بالجنوب الشرقي الجزائري



منشورات مكتبة اقرأ - قسنطينة

دار بهاء الدين للنشر والتوزيع - قسنطينة

نمـاذج من:

الْمُحَاضَـرَاتِ الْمَسْجِدِيَّـةِ

التي ألقاها الأستاذ: **عبد القادر مهاوات** بمساجد ولاية الوادي بالجنوب الشرقي الجزائري

الطبعة الأولى

رجب1430هـ/جويلية2009م

منشورات مكتبة اقرأ- قسنطينة

دار بهاء الدين للنشر والتوزيع- قسنطينة

المؤلف: عبد القادر مهاوات

العنوان: نمـــاذج من الْمُحَاضَــرَاتِ الْمَسْجِدِيَّـةِ

القياس: 14.5×21سم

عدد الصفحات: 200صفحة.

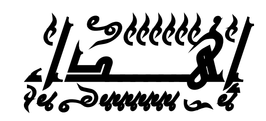
عدد النسخ: 100نسخة.

التنفيذ الطباعي: مكتبة اقرأ.

النشر والتوزيع: دار بهاء الدين.

رقم الإيداع القانوني: 2009-5753

ردمك: 978-9947-0-2819-3



أُهْـدِي هـذا العمـلَ المتواضـعَ إلى:

- والديَّ الكريميْنِ؛ بِرًّا وإحساناً.
- جدّتي العزيزةِ أطالَ اللهُ عمرَهَا؛ حبًّا وإجلالاً.
- أستاذي الشيخِ الجليلِ "الأمين منّاني" الذي تفضَّلَ عليَّ بقراءتِهِ، وإبداءِ رأيِهِ فيه؛ شكرًا وعرفاناً.
- زوجتي الفاضلةِ التي لها إسهامٌ في كتابتِهِ وإخراجِهِ في هذه الْحُلَّةِ؛ إخلاصاً ووفاءً.
- قُرَّةِ عيني ابني "أحمد ياسين"؛ عطفًا وحنانًا.
- أشقائي وشقيقاتي وأقاربي وأصهاري وأصدقائي؛ صلةً وتكريماً.
- معلميَّ وأساتذتي وشيوخي الذين درَّسوني في جميعِ أطوارِ حياتي العلميةِ من الكُتَّابِ إلى الجامعةِ؛ احترامًا وتقديرًا.
- إخواني الأئمةِ والدعاةِ والمحاضِرِينَ بالمساجدِ؛ زادًا لهم وتعاونًا معهم على البرِّ والتقوى.
- روادِ بيوتِ اللهِ تعالى وعُمَّارِهَا؛ تثبيتًا لهم على الحقِّ وإفادةً.

عبد القادر.

تقريظ

مفتشِ اللغةِ العربيةِ وآدابِهَا -سابقًا- الإمامِ الخطيبِ المحاضِرِ شَيْخِي وشيخِ الكثيرين مِنْ مُثَقَّفِي "وادي سوف" العالِمِ الفاضِلِ: "الأمين منّاني" -حفظَهُ اللهُ تعالى، وأَبْقَاهُ مَرْجِعًا لنا-

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

حين أَطْلَعَنِي الابنُ البارُّ، والأخُ الفاضلُ، والزميلُ المحترَمُ "عبدُ القادرِ مَهَاوَاتْ" على إصدارِهِ الموسومِ: "نماذجُ من المحاضراتِ المسجديةِ" لأَقُولَ فيه كلمةً، ظَنَنْتُ لأولِ وَهْلَةٍ وبِلَفْتَةٍ سريعةٍ عابرةٍ أَنَّهُ إصدارُهُ الأولُ الْمُعَنْوَنُ: "نماذجُ من الخطبِ المنبريَّةِ"؛ وذلك لأكثرِ من سببٍ:

- التشابُهُ الكبيرُ في العنوانَيْنِ.
- التشابُهُ بين المواضيعِ؛ فالإصدارَانِ يَصُبَّانِ في مَصَبٍّ واحدٍ هو العملُ الإسلاميُّ الدعويُّ التَّوْعَوِيُّ.
- التقاربُ بين فترتَيِ الإصدارِ؛ بحيث لا يَفْصِلُ بينهما إلا أشهرٌ معدوداتٌ.

والحقيقةُ أنَّ الأخوةَ والزمالةَ والصداقةَ لا تُعْطِي الإنسانَ ما ليس له، ولا تَمْنَحُهُ محاسنَ غيرِهِ، ولكنَّهَا من بابِ أَوْلَى وأَحْرَى لا تَسْلُبُهُ محاسِنَهُ، ولا تَحْرِمُهُ حَقَّهُ. أقولُ هذا الكلامَ؛ لِأُؤَكِّدَ أنَّ كلمتي في هذا الإنتاجِ لِأَخِي "عبدِ القادرِ" ستكونُ كلمةً صادقةً تَتَّسِمُ بالموضوعيَّةِ

والْحِيَادِ، وتبعدُ -ما أمكنَ- عن الذاتيَّةِ ومجرَّدِ الإعجابِ، ولا يصحُّ بحالٍ أن أَجْحَدَ ما في هذا العملِ من جديَّةٍ وإيجابيةٍ، لا لشيءٍ إلا لأنَّ صاحبَهُ صديقٌ وزميلٌ، وإلا كنتُ قريبًا ظالمًا؛ وظلمُ ذوي القربَى أشدُّ مَضَاضَةً.

ستتناولُ كلمتي -إنْ شاءَ اللهُ- ثلاثةَ جوانبَ من هذا العملِ وهي: المحتوى أو المضمونُ، والشكلُ أو القالبُ، والمنهجيةُ أو الطريقةُ التي أُنْجِزَ بها.

فأمَّا من حيث المحتوى، فقد وُفِّقَ الأخُ "عبدُ القادرِ" إلى اختيارِ مواضيعَ في الصميمِ، ما أحوجَ الكثيرين من أئمتِنَا بل ودُعَاتِنَا إلى التركيزِ عليها، وتناولِهَا، وإفادةِ جماهيرِ المصلين في مختلفِ مساجدِنَا بها، ولا غرابةَ؛ فإنَّ هذا العملَ نتاجُ تراكماتٍ من سنين عدةٍ من الخطابةِ والإمامةِ والتدريسِ، خَبَرَ المؤلِّفُ أثناءَهَا الواقعَ، وتَبَيَّنَ النقائصَ، ووضعَ يَدَهُ على الْأَدْوَاءِ، فاهتدَى إلى اختيارِ الدواءِ. والمتأمِّلُ في عناوينِ المحاضراتِ يجدُهَا مزيجًا متناسقًا متجانسًا من المواضيعِ التي تُنَظِّمُ علاقةَ المسلمِ بربِّهِ، بنفسِهِ، بأسرتِهِ، بِحَيِّهِ أو قريتِهِ، بمجتمعِهِ، بأمتِهِ، بتاريخِهِ. وهي كُلُّهَا علاقاتٌ يجبُ على المسلمِ أن يتمثَّلَهَا ويعيشَهَا ويَتَبَيَّنَهَا بوضوحٍ؛ حتى يكونَ عنصرًا فعَّالاً على كلِّ المستوياتِ، وداخلَ كلِّ المجموعاتِ.

وأمَّا من حيث الشكلُ، فإنَّ هذه المحاضراتِ تصلحُ أن تكونَ محاضراتٍ تُلْقَى، كما هو أصلُهَا والغرضُ الأساسيُّ منها، كما تصلحُ أن تكونَ مقالاتٍ تُقْرَأُ، أو خطبًا على المنبرِ تُقَدَّمُ، أو دروسًا واعظةً

مرشِدَةً، على أن يتولَّى المستفيدُ منها التصرفَ فيها بالنقصِ والزيادةِ، بالإيجازِ أو التطويلِ، بالتكثيفِ أو التقسيمِ، وِفْقَ ما تُمْلِيهِ عليه ظروفُ مسجدِهِ وجمهورِ مستمعِيهِ.

ومِمَّا تجدُرُ الإشارةُ إليه بهذا الخصوصِ أنَّ المؤلِّفَ قد حَرِصَ في الاستشهادِ بالحديثِ على الصحيحِ والحسنِ منه، وابتعدَ عن الضعيفِ والموضوعِ، وفي الْأَوَّلَيْنِ غُنْوَةٌ عن الْأَخِيرَيْنِ، كما حَرِصَ عند الاستشهادِ ببعضِ الأمثلةِ والقصصِ أن يتجنَّبَ القصصَ الْمُوغِلَةَ في الغرابةِ، والتي مِنْ شأنِهَا أن تصرفَ المستمعَ عن الاقتداءِ بها.

وأمَّا من حيث المنهجيَّةُ، فإنَّ المتأمِّلَ في هذا العملِ يَلْحَظُ بأنَّهُ صُبَّ في قالبٍ أكاديميّ منهجيّ؛ ولا غرابةَ، فالمؤلِّفُ وثيقُ صلةٍ بالجامعةِ ومناهجِهَا، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ كلَّ محاضرةٍ تأتي مُمَنْهَجَةً مُبَوَّبَةً مُقَسَّمَةً إلى فقراتٍ مرقمةٍ، تُفْضِي السابقةُ إلى اللاحقةِ، وتَنْتُجُ اللاحقةُ عن السابقةِ، مع مجموعةٍ من الهوامشِ والإحالاتِ التي تزيدُهَا وضوحًا، وترفَعُ عنها كلَّ لُبْسٍ أو غموضٍ، وتُكْسِبُ المتعامِلَ معها ثقافةً زائدةً، ومعلوماتٍ إضافيةً يستفيدُ منها عند الحاجةِ.

وقد نهجَ المؤلِّفُ منهجًا مثاليًّا في نصائحِهِ التي قَدَّمَهَا للمستمعِينَ، ولا سِيَّمَا حين يقترِحُ عليهم إحضارَ دفترٍ وقلمٍ؛ لِتَقْيِيدِ بعضِ الملاحظاتِ والمعلوماتِ المستفادةِ من المحاضرةِ، وكذا اقتراحُهُ المتعلِّقُ باستعمالِ الوسائلِ الحديثةِ في المحاضرةِ، وهي أمورٌ تتطلَّبُ -في نظرِي- أن يكونَ بالمسجدِ قاعةٌ خاصَّةٌ بالمحاضراتِ مستعدَّةٌ

دَوْمًا لاستقبالِ هذا النوعِ من النشاطِ. وعلى أَيَّةِ حالٍ، فإنَّهُ ما لا يُدْرَكُ كُلُّهُ، لا يُتْرَكُ جُلُّهُ ولا بعضُهُ ولا أقلُّهُ.

وخلاصةُ القولِ: إنَّ هذا العملَ يُمْكِنُ اعتبارُهُ تأصيلاً وتنظيرًا للمحاضرةِ المسجديَّةِ، لا سِيَّمَا في مقدمتِهِ وخاتمتِهِ، وتطبيقًا لِمَا جاء فيهما -المقدمة والخاتمة- من خلالِ المحاضراتِ العشرين المقدمَةِ في هذا الإنجازِ.

وأخيرًا أسألُ اللهَ جَلَّ في عُلاَهُ أن يجعلَ هذا العملَ لَبِنَةً إيجابيةً في الساحةِ الإسلاميةِ الدعويةِ، وأن ينفعَ به، وأن يجعلَهُ في ميزانِ حسناتِ صاحبِهِ يومَ القيامةِ؛ إنَّهُ وَلِيُّ ذلك والقادرُ عليه. وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على محمدٍ عبدِهِ ورسولِهِ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

الوادي في: 16 رجب 1430هـ

الموافق: 08 جويلية 2009م

الأمين منّاني.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيدِ المرسَلين، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[طه:25-28].

﴿اللهمَّ لا سَهْلَ إلاَّ ما جَعَلْتَهُ سَهْلاً، وأنتَ تجعلُ الْحَزْنَ إذا شئتَ سهلاً﴾[رواه ابن حبان في صحيحه].

أما بعد: فهذه نماذجُ من المحاضراتِ المسجديةِ[1] التي ألقيتُها بمساجدَ متعددةٍ ببلديات ولاية الوادي بالجنوب الشرقي الجزائري، وكان الإلقاءُ في الفترةِ الممتدةِ من سنة: 1423هـ/2003م، إلى سنة: 1430هـ/2009م، حيث كان بعضٌ من الإخوةِ الأئمةِ، أو رؤساءِ الجمعياتِ الدينيةِ للمساجدِ يدعُونني من حينٍ إلى آخَرَ لأجلِ زيارتِهم في مساجدهم، وإفادتِهم في مواضيعَ معينةٍ يَرَوْنَ أنهم في حاجةٍ إليها.

---

[1]- جميعُ هذه المحاضراتِ -تقريبًا- ألقيتُها مختصرةً في شكلِ خطبِ جمعةٍ في مسجد "عمر بن الخطاب"، ثم ألقيتُها في المسجد نفسِهِ، أو في مساجدَ أخرى موسعةً. أقولُ هذا؛ حتى يَعْلَمَ الإخوةُ الأئمةُ الخطباءُ أنه بإمكانِهم أن يُكَيِّفُوا هذه المحاضراتِ أو بعضِها؛ لِتُلْقَى خطبًا.

وغَرَضِي الأساسُ من عرضِ هذه النماذجِ من المحاضراتِ للنشرِ هو تحقيقُ الأهدافِ الآتيةِ:

1- مساعدةُ إخواني من الأئمةِ والأساتذةِ المحاضرين المبتدئين؛ حيث إن وجودَ هذه النماذجِ بين أيديهم يُعينهم على نسْج المحاضراتِ والدروسِ على مِنوالها، ومعالجةِ القضايا المختلفةِ على نَسَقِهَا.

2- الاستجابةُ لدعوةِ عددٍ من إخواني الأئمةِ والأساتذةِ المحاضرين الموظَّفين والمتطوِّعين الذين هم في الميدانِ الدعويِّ عندما أحسنوا بي الظنَّ بإعطائهم ما طلبُوه منِّي وهو: طريقتي الخاصةُ في معالجةِ مجموعةٍ من المسائلِ الأخلاقيةِ والاجتماعيةِ والفكريةِ والفقهيةِ والمتعلقةِ بالرقائقِ والتزكيةِ، التي كنتُ قد تعرضتُ لها في محاضراتِي بمساجدِ الولايةِ، حتى إنَّ بعضَهم أَلَحَّ عليَّ في ذلك إلحاحًا شديدًا، خاصةً بعد صدورِ كتابي "نماذج من الخطب المنبرية"، وتثمينِ ما جاء فيه.

3- إثراءُ المكتبةِ الجزائريةِ خاصةً، والعربيةِ والإسلاميةِ عامةً، بكتاب يَحْوِي مجموعةً من المحاضراتِ المسجديةِ على النمطِ الجزائريِّ، وبقلمٍ جزائريٍّ؛ وذلك حتى أساهمَ في حَلِّ عقدةِ أنَّ علمَ وثقافةَ المغاربةِ في غالِبِهما شفاهيَّانِ، حيث يَقِلُّ عندهم توثيقُهما عن طريقِ الكتابةِ.

4- المساهمةُ نسبيًا في حلّ مشكلةِ رُوتِينِيَّةِ التطرُّق للمواضيع الْمَوْسِمِيَّة التي تُوَاكِبُ المناسباتِ الدينيةَ والوطنيةَ والعالميةَ، وكذا التي تعالج قضايا اجتماعيةً وأخلاقيةً لا بُدَّ من التذكير بها من حينٍ إلى آخَرَ؛ وذلك بِمَدِّ الإخوةِ الأئمةِ والمدرسين والمحاضِرِين بالمساجدِ بالزَّاوية التي عَالَجَ من خلالِها المؤلِّفُ تلك المواضيعَ، لإحداثِ نوعٍ من التجديدِ لديْهم عند التكلُّمِ عنها بيْن يديْ مُسْتَمِعِيهِمْ، الذين ربما سَمِعُوا منهم مِرَارًا المواضيعَ السابقةَ مطروقةً من زاويتِهِمْ هُمْ فقط؛ وهذا من شأنِهِ أن يحقِّقَ الْحُسْنيَيْنِ معًا: مواكبةُ تلك المناسباتِ بالكلامِ عنها وتفعيلِ ذِكْرَاها، وإفادةُ المستمِع بوِجهةِ نَظَرٍ أخرى للمواضيع السابقةِ نفسِهَا؛ مِمَّا يرفعُ عنه السآمةَ والمللَ.

5- تعميمُ الفائدةِ الواردةِ في تلك المحاضراتِ عندما تصلُ مكتوبةً إلى سائرِ القراءِ، سواء الإخوة والأخوات الذين سمعوها وشهِدوها معي مباشرةً، فتكون لهم بمثابةِ التذكرةِ وترسيخِ ما سمعوه في الأذهانِ، أو الذين لم يسمعوها ولم يشهَدوها، فتكون بمثابةِ الأمرِ الجديدِ بالنسبةِ إليهم.

ويحسُن بي في هذه المقدمةِ أن أشيرَ إلى الأمور الآتيةِ؛ حتى تتضحَ صورةُ هذا العملِ المبارَكِ -بإذن اللهِ جلَّ وعلاَ- عند القارئِ الكريمِ:

1- اخترتُ في هذا الكتابِ عشرينَ محاضرةً من المحاضراتِ الكثيرةِ التي ألقيتُها خاصةً بالمساجدِ الآتيةِ[1]:

- "النخلة" الواقع بحي "أولاد أحمد" ببلدية الوادي.
- "عمر بن الخطاب"، وهو واقع بالحيِّ والبلديةِ السابقيْن نفسيْهما.
- "الحسن والحسيْن" الواقع بحي "سيدي مستور" ببلدية الوادي.
- "الهدى" الواقع بحي "المصاعبة الغربية" ببلدية الوادي.

علمًا أن هذه المساجدَ المذكورةَ كان لي في كلِّ واحدٍ منها خلالَ الفترةِ المذكورةِ آنفًا موعدٌ أسبوعيٌّ فيما بين المغربِ والعشاءِ من أيامِ: الجمعة والثلاثاء -ثم حُوِّلَ إلى السبت- والإربعاء والخميس على التوالي.

وكان أساسُ اختيارِ هذه النماذجَ أنها عَالَجَتْ مواضيعَ يُمْكِنُ أن يثيرَها المحاضِرُ، أو أن يُفِيدَ منها القارئُ في كلِّ زمانٍ وفي كل مكانٍ، وأعرضتُ عن إيرادِ المحاضراتِ التي عالجتْ مواضيعَ ذاتَ طابعٍ

---

[1]- أعتذرُ إلى سائرِ الإخوةِ مِمَّنْ شرَّفوني بدعوتِهم لي للمحاضرةِ في مساجدِهم مِمَّنْ لم أَذْكُرْ مساجدَهم في هذا المقامِ؛ لأنَّ المحاضراتِ في مساجدِهم كانت محدودةً، فلَرُبَّمَا زرتُهم مرةً أو مرتيْنِ، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ ثانيةٍ: كثرةُ المساجدِ التي حاضَرْتُ فيها عَبْرَ ولايتِنا الفسيحةِ، خاصة مساجد البلدياتِ الآتيةِ: الوادي، البياضة، الرباح، حساني عبد الكريم، الدبيلة -وقرية الجديْدة فيها على وجهٍ أخصّ-، حاسي خليفة، الطريفاوي، المقرن، كوِينِين.

ظَرْفِيٍّ آنِيٍّ؛ إذ قد لا يستفيد منها بشكلٍ كبيرٍ إلا مَنْ يسمعُها أو يقرأُها عند معايشةِ ظرفِهَا وآنِهَا[1].

2- إنَّ ما أوردتُهُ في سائرِ هذه المحاضراتِ مكتوباً إنما هو أهمُّ ما وَرَدَ فيها، وإلا فإنَّ هناك إضافاتٍ وتوضيحاتٍ خفيفةً، وقصصًا قصيرةً، وأمثلةً واقعيةً، زِدتُها أثناء الإلقاءِ، خاصة وأنني كنتُ أُلقيها - في أغلبِ الأحيانِ- مرتجَلَةً لا مقروءةً من المكتوبِ، اللهمَّ ما تعلَّقَ بعناصرِ الموضوعِ الأساسيةِ، فإنها تكونُ معي من خلالِ قصاصةٍ أو مذكرةٍ[2].

3- تتميَّز هذه المحاضراتُ في ثوبِها الذي هو بين يَدَيِ القارئِ الكريمِ بضبطِ الآياتِ والأحاديثِ بالشكلِ، وكذا ضبطِ الكلماتِ التي يعتقدُ

---

[1]- سيجدُ القارئُ الكريمُ استثناءً متعلقًا بموضوعِ: "ما الذي ينبغي أن نفعلَهُ اتجاهَ ما يَحْدُثُ لإخوانِنَا الْمُعْتَدَى عليهم في غزةَ". فهذا الموضوعُ أُثِيرَ في الأصلِ أثناءَ العدوانِ اليهوديِّ على إخوانِنَا في غزةَ، والذي امتدَّ من أواخرِ شهرِ ديسمبر 2008م، إلى بدايةِ الثلثِ الأخيرِ من شهرِ جانفي 2009م، ومِنَ المفترَضِ أن يكونَ هذا الموضوعُ موضوعًا ظرفيًّا آنيًّا، لكن الذي أَدِينُ اللهَ به أنَّ كلَّ ما يتعلقُ بقضيةِ فلسطين ينبغي أن يُثَارَ دائمًا وأبدًا ما دَامَتْ بقاعُهَا المقدسةُ محتلةً، إضافةً إلى أنَّ معاناةَ أهلِ غزةَ لا تزالُ متواصلةً مع تواصلِ الحصارِ عليهم إلى غايةِ كتابةِ هذه الأسطرِ، نَاهِيكَ على أنَّ عمليةَ التضامنِ معهم يجبُ أن تستمرَّ بعد العدوانِ عليهم؛ حتى تُمْسَحَ آثارُهُ التي تَرَتَّبَتْ عنه.

[2]- جديرٌ بالذكرِ أنْ أُنَبِّهَ إلى أنَّ أغلبَ هذه المحاضراتِ مسجلةٌ صوتيًّا أثناءَ إلقائِها، ولعلَّ اللهَ ﷻ يُيَسِّرُ نشرَهَا مستقبلاً في أقراصٍ مضغوطةٍ.

الكاتبُ أنه يُمْكِنُ أن يُخْطَأَ في قراءتِها بحكمِ قلَّةِ استعمالِهَا عند الناسِ، أو بحكمِ بناءِ الفعلِ فيها للمجهولِ، ونحوِ ذلك من الاعتباراتِ التي تدعُو إلى ضبطِ الكلمةِ أو بعضِ حروفِهَا على الأقلِّ بالشكلِ؛ لنضمنَ سلامةَ القراءةِ، ومن ثَمَّةَ سلامةَ الفهمِ.

4- اعتمدتُ في صياغةِ هذه المحاضراتِ على قناعاتي الخاصةِ، وبَنَاتِ أفكاري التي تولَّدَتْ من طول تَلْمَذَةٍ على أيادي علماءَ ومشايخَ ودعاةٍ، مَحَلِّيِّينَ وعَالَمِيِّينَ، قدامى ومُحْدَثِينَ ومعاصِرين، من ذَوِي الاتجاهاتِ الفكريةِ السُّنِّيَّةِ المختلفةِ، إنْ في شكلِ سماعٍ مباشرٍ منهم، أو قراءةٍ في كتبِهم ومنشوراتِهم، وكذا تولَّدَتْ من خلالِ طولِ النظرِ والتفكيرِ في القضايا الاجتماعيةِ المختلفةِ؛ بهدف إيجادِ الرُّؤى والحلولِ الشرعيةِ المناسبةِ لها.

5- لم أُثْبِتْ لجميعِ المحاضراتِ الدِّيبَاجَةَ المشتمِلَةَ على حَمْدِ اللهِ تعالى والثناءِ عليه، والصلاةِ والسلامِ على النبيِّ ﷺ، كما هو مَسْنُونٌ في الدروسِ والمحاضراتِ ذاتِ الطابعِ الدينيِّ، وكذا شكرَ الإخوةِ المستضيفِين والحاضرِين على استضافتِهم وحضورِهم[1]؛ وذلك حتى

[1]- هذا الشكرُ ليس من بابِ المجاملةِ فقط -واللهُ يعلمُ ذلك-، ولكنْ هو من بابِ أنَّ مَنْ لم يشكرِ الناسَ لم يشكرِ اللهَ -كما جاء عن النبيِّ ﷺ-؛ إذ إنَّ قناعتي التي كنتُ أَبُوحُ بها لإخواني في بعضِ الأحيانِ وهم يدعُونني وينقلُونني على متن سياراتِهم ثم يُكَرِّمُونَنِي بما أنعمَ اللهُ تعالى عليهم بسائرِ المطعوماتِ والمشروباتِ والهدايا، حيث كنتُ أقولُ لهم: ما أنا إلا حلقةٌ من حلقاتِ هذا=

لا أُثقلَ على القارئ بتكرارها في كلِّ محاضرةٍ، لا سِيَّمَا وأنني أَثْبَتُّهَا في مقدمة الكتابِ.

6- قَسَّمْتُ مضمونَ كلِّ محاضرةٍ إلى عناصرَ أساسيةٍ، إذ أعطيتُ لكلِّ عنصرٍ عنوانًا مناسبًا؛ وهذا تأثرًا بالمنهجِ الأكاديميّ في معالجةِ المواضيعِ، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ هذه الطريقةَ كانت تساعدني على التحكُّمِ في الموضوعِ الْمُثَارِ تحضيرًا وإلقاءً، إضافةً إلى أنني أعتقدُ أنَّها تجعلُ مِنَ المستمِعِ مستوعِبًا للموضوعِ بشكلٍ أحسنَ، بحيث لو طُلِبَ منه بعد خروجِهِ من المحاضرةِ أن يَذْكُرَ ما استفادَهُ منها لَكَفَاهُ أن يُورِدَ عناصرَهَا الأساسيةَ التي رَسَّخَهَا في ذهنِهِ، وربَّمَا استعانَ على ذلك بتدوينِهَا.

7- جعلتُ هوامشَ عديدةً، استطردتُّ من خلالِهَا في بعضِ النقاطِ التي رأيتُ أنها تحتاجُ إلى زيادةِ بسطٍ وتوضيحٍ، كما عَرَّفْتُ فيها ببعضِ الشخصياتِ الواردةِ في المتنِ مِمَّنْ أظنُّ أنها غيرُ معروفةٍ، وشرحتُ فيها الكلماتِ أو الجملَ التي أعتقدُ أنها غريبةٌ عند عددٍ مُعْتَبَرٍ من القراءِ.

=المشروعِ المبارَكِ، فلولا جهودُكم ما تَمَّ اللقاءُ، ولَمَا حصلتِ الاستفادةُ. كما أَنَّنِي أعتقدُ أنَّ الذي يحضرُ محاضرَتِي من إخواني في الله تعالى هو المتفضِّلُ عليَّ بتخصيصِ جزءٍ من وقتِهِ للحضورِ والسماعِ، فلولا ذلك ما حَضَّرْتُ موضوعي، ولا جئتُ، ولا حاضَرْتُ، ومِنْ ثَمَّةَ لم أَظْفَرْ بشرفِ وأجرِ الدعوةِ إلى الله تعالى.

8- ذكرتُ في خاتمةِ الكتابِ مجموعةً من النصائحِ والتوصياتِ التي تُعَدُّ زبدةَ تجربتي في إطارِ إلقاءِ المحاضراتِ المسجديةِ. وقد آثَرْتُ إيرادَهَا؛ لتكونَ نبراسًا للإخوةِ المحاضِرين المبتدئين، خاصةً وأنَّ بعضَهم كان يَتَّصِلُ بي شخصيًّا في بيتي، أو عن طريقِ الهاتفِ، أو أنه يستغلُّ فُرَصَ اللقاءِ في المناسباتِ المختلفةِ لِيَسْأَلَنِي عن عواملِ النجاحِ في هذا المجالِ. كما أنني أقصدُ من خلالِ عرضِ تلك النصائحِ والتوصياتِ الإجابةَ على إشكالٍ يُثِيرُهُ بعضٌ من المحاضِرين والمدرّسين في المساجدِ؛ إذ إنهم يَشْتَكُونَ من قِلَّةِ حضورِ الناسِ إلى محاضراتِهم ودروسِهم، وعدمِ مبالاتِهم بما يقدِّمونه، مع أنَّ الإشكالَ قد يكونُ في المحاضِرِ والمدرِّسِ نفسيْهما؛ على أساسِ أنهما لم يَأْخُذَا بأسبابِ التوفيقِ في المحاضرَةِ والدرسِ المسجديَّيْنِ.

9- ذَيَّلْتُ الخاتمةَ بعَدَدٍ من التنبيهاتِ الموجَّهَةِ إلى إخواني وأخواتي من روادِ المساجدِ، ومِمَّنْ أُرِيدُ لهم أن يَحْظَوْا بشرفِ وخيرِ شهودِ المحاضراتِ المسجديةِ. وهذه التنبيهاتُ شَعَرْتُ بأهميَّتِهَا من خلالِ حضورِي كمستمِعٍ لمحاضراتِ غيرِي من المشايخِ الكرامِ التي تُلْقَى في المساجدِ، وكذا مُلاَحَظَاتِي الخاصةِ للمستمِعِينَ لمحاضرَاتِي وأنا أُلْقِيهَا، إضافةً إلى ردودِ الأفعالِ التي تَصِلُنِي عن تلك المحاضراتِ جميعِهَا.

وفي ختام هذه المقدمةِ: أَمَلِي أن يحقِّقَ هذا المؤلَّفُ الأهدافَ التي كُتِبَ من أجلها، وأن يكون إضافةً طيِّبةً في حقل الدعوةِ والثقافةِ،

وإنني أهيبُ بسادتي العلماءِ والمشايخِ وإخواني من الأئمةِ والأساتذةِ والقرَّاءِ أن يفيدوني بكل ما يلاحظونه عليه؛ حتى أُفِيدَ من ملاحظاتهم شخصيًّا في حياتي العلميةِ والدعويةِ، وأن تُؤْخَذَ تلك الملاحظاتُ بعين الاعتبارِ في طبعاتٍ قادمةٍ -إن شاء اللهُ تعالى-، واللهُ الموفِّقُ والهادي إلى سواءِ السبيلِ، وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

المؤلِّف: عبد القادر بن خليفة مهاوات

الوادي في يوم الخميس:25جمادى الآخرة1430هـ/19جوان2009م

المحاضرة الأولى

مِنَ العواملِ التي تُعِينُ المسلمَ على ترشيدِ إنفاقِهِ واستهلاكِهِ[1]

إنَّ كثيرًا من المسلمين يستقبلُون شهرَ رمضانَ الكريمَ بظاهرةٍ سَلْبِيَّةٍ تُشْغِلُهُمْ عن المعاني الساميةِ والمقاصدِ النبيلةِ التي لأجلها شُرِعَ الصيامُ في هذا الشهرِ الفضيلِ. هذه الظاهرةُ هي استقبالُهُ بالتخطيطِ والتحضيرِ للأطعمةِ والأشربةِ. وإنما وَصَفْتُهَا بالسَّلْبِيَّةِ؛ لأنَّ الأصلَ في رمضانَ أن يكونَ شهرًا للتقليلِ من الأكلِ والشربِ، لا للتُّخْمَةِ والاِرْتِوَاءِ، وهو شهرٌ للاقتصادِ والتقليلِ من المصاريفِ، لا للتبذيرِ والإسرافِ.

ولذا أردتُ أن أَضَعَ بين يَدَيْ إخواني وأخواتي في الله تعالى مجموعةً من العواملِ دَلَّتْ عليها النصوصُ الشرعيةُ، إذا ما رُوعِيَتْ، فإنها بإذنِ اللهِ تعالى تساعدُهم على ترشيدِ إنفاقِهم واستهلاكِهم في رمضانَ وفي غيرِهِ من أيامِ السنةِ والعمرِ.

1- أن يَعْلَمَ المسلمُ بأنَّ الاعتدالَ في الاستهلاكِ عبادةٌ يُتَقَرَّبُ بها إلى اللهِ ﷻ: ذلك أن العبادةَ عندنا نحن المسلمين ليستْ قاصرةً على الشعائرِ المعروفةِ من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحجٍّ وعمرةٍ وتلاوةٍ للقرآنِ

[1]- مِنَ الأفضلِ أن يُثَارَ هذا الموضوعُ قُبَيْلَ حلولِ شهرِ رمضانَ الفضيلِ؛ لأنَّهُ مظنَّةُ إسرافِ الناسِ وتبذيرِهم.

الكريمِ وذكرٍ ودعاءٍ ونحوِ ذلك من صُنُوفِ العباداتِ الشعائريَّةِ، وإنما مفهومُها أوسعُ من هذا بكثيرٍ، فهي اسمٌ جامعٌ لكل ما يُحِبُّهُ اللهُ تعالى ويرضاه من الأقوالِ والأفعالِ الباطنةِ والظاهرةِ[1]. ولا شَكَّ أنَّ الاعتدالَ في الإنفاقِ والاستهلاكِ من الأفعالِ الظاهرةِ التي تُرْضِي اللهَ ﷻ؛ بدليل أنَّهُ أَمَرَ به في كتابِهِ العزيزِ عندما قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[2] وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً[3]﴾[الفرقان:67]. وهذه الآيةُ الكريمةُ جاءت في سياقِ تعدادِ صفاتِ عبادِ الرحمنِ الذين أَعَدَّ اللهُ تعالى لهم في الآخرةِ المنازلَ الرفيعةَ في الجنةِ يستقرُّون فيها ويُقِيمُونَ، ولذا قال جلَّ وعلاَ عَقِبَ الانتهاءِ من تعدادِهَا: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾[الفرقان:75-76].

[1]- مثالُ الأقوالِ التي تُعَدُّ عبادةً: الذكرُ والدعاءُ والتلاوةُ وإسداءُ النصيحةِ وتعليمُ الناسِ الخيرَ. ومثالُ الأفعالِ الباطنةِ التي تُعَدُّ عبادةً أيضًا: الإيمانُ بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخِرِ والقدرِ خيرِه وشرِّه، والحبُّ في الله تعالى، والبغضُ فيه. ومثالُ الأفعالِ الظاهرةِ التي تُعَدُّ عبادةً كذلك: الصلاةُ والحجُّ والعمرةُ وإعانةُ الناسِ على الخير والزواجُ وترشيدُ الاستهلاكِ الذي نحن بصَدَدِ الكلامِ عنه.

[2]- يَقْتُرُوا: يَبْخَلُوا ويَشِحُّوا ويُضَيِّقُوا على أنفسِهم وأهليهم في النفقةِ.

[3]- قَوَامًا: وسطًا بين الإسرافِ والتقتيرِ.

وعلى هذا فإنَّ المسلمَ إذا عَلِمَ بأنه عندما يعتدلُ في استهلاكِهِ يكون بذلك قد تَعَبَّدَ إلى اللهِ تعالى، فإنه سيُلْزِمُ نفسَهُ بالاعتدالِ؛ طمعًا في الظَّفَرِ بالثوابِ الجزيلِ منه ﷻ. والعكسُ صحيحٌ؛ فإنَّ المسلمَ إذا غَابَتْ عنه هذه الحقيقةُ الشرعيةُ، قد يَقَعُ إمَّا في الإفراطِ وهو الإسرافُ والتبذيرُ، أو التفريطِ وهو البخلُ والشُّحُّ.

2- أن يَعْتَقِدَ بأنَّ الإسرافَ محرمٌ شرعًا، وأنه سيُحَاسَبُ عليه يومَ القيامةِ: إنَّ الناظرَ في النصوص الشرعية سيَجِدُ عَدَدًا منها يَدُلُّ على حرمةِ الإسرافِ، ويُقَرِّرُ أنَّ العبدَ سيُحَاسَبُ عليه يومَ القيامةِ. فمِنْ بينِ تلك النصوصِ قولُهُ تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:31]. وقولُهُ أيضًا: ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾[الإسراء:26-27]. وقولُ النبيِّ ﷺ: ﴿إنَّ اللهَ حَرَّمَ عليكُم عُقُوقَ الأمَّهَاتِ، ومَنْعًا وهَاتِ[1]، ووَأْدَ البناتِ[2]. وكَرِهَ لكُم قِيلَ وقَالَ[3]، وكَثْرَةَ السُّؤَالِ[4]، وإِضَاعَةَ المالِ﴾[رواه البخاري].

---

[1]- منعًا وهاتِ: أي يَمْنَعُ ما وَجَبَ عليه من حقٍّ للغير، ويَطْلُبُ ما لا حَقَّ له فيه.

[2]- وَأْدُ البناتِ: هو دَفْنُهُنَّ وهُنَّ على قَيْدِ الحياةِ.

[3]- قِيلَ وقَالَ: أي الكلامُ الذي لا فائدةَ فيه، أو الْجَدَلُ بالباطلِ.

[4]- كثرةُ السؤالِ: يُقْصَدُ بها أن يسألَ الإنسانُ غيرَهُ عَمَّا لا يَعْنِيهِ.

وقولُهُ أيضًا: ﴿لاَ تزولُ قَدَمَا عبدٍ يومَ القيامةِ[1] حتى يُسْأَلَ عن عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وعن علمِهِ فِيمَ فَعَلَ فيه، وعن مالِهِ مِنْ أين اكْتَسَبَهُ وفِيمَ أنفقَهُ، وعن جسمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ﴾[رواه الترمذي].

ولذا فإنَّ المسلمَ إذا ما عَلِمَ عِلْمَ يقينٍ بأنَّ اللهَ جلَّ وعلاَ قد حَرَّمَ عليه الإسرافَ والتبذيرَ في الاستهلاكِ، وأنه إنْ وَقَعَ منه ذلك سيُحَاسِبُهُ عليه في الآخرةِ حسابًا عسيرًا، فإنه حينئذٍ سيُحْجِمُ عنه.

3- أن يَحْذَرَ من الوقوعِ في فَخِّ الإعلاناتِ والإشهاراتِ التجاريةِ، وحُمَّى متابعةِ آخِرِ الْمُوضَاتِ: ذلك أنَّ عددًا مُعْتَبَرًا من الناسِ يَنْجَذِبُ نَحْوَ ما يُعْرَضُ من إعلاناتٍ وإشهاراتٍ تجاريةٍ على مُخْتَلَفِ شاشاتِ الفضائياتِ، أو ما يُذَاعُ عَبْرَ أثيرِ الإذاعاتِ، أو ما يُنْشَرُ على صفحاتِ المواقعِ الإلكترونيةِ أو الجرائدِ أو المجلاتِ. كما أنَّ بعضَهم يَنْسَاقُ وراءَ الْمُوضَاتِ فيُسَايِرُ دائمًا أَحْدَثَهَا. وفي الحالتيْنِ سوف يَقْتَنِي أشياءَ ليس هو في حاجةٍ إليها، أو أنه يحتاجُهَا ولكن عنده ما يُغْنِيهِ عنها، فيَلْجَأُ إلى تخصيصِ أجزاءَ من مَالِهِ لأجلِ شراءِ الجديدِ أو ما تَأَثَّرَ به من خلالِ الإعلاناتِ والإشهاراتِ. وفي الوقتِ نفسِهِ يَبِيعُ القديمَ الصَّالِحَ الذي عنده -مع أنه يَفِي بالغرضِ- بثمنٍ بَخْسٍ، أو يَرْمِي به في زاويةٍ من زوايا البيتِ. وهذا في الحقيقةِ هو الإسرافُ بِعَيْنِهِ، بل إنه يُعَدُّ لَوْنًا من ألوانِ التَّرَفِ الذي بِسَبَبِهِ تَهْلَكُ الأممُ وتَنْهَارُ الحضاراتُ. قال

[1]- لاَ تزولُ قَدَمَا عبدٍ يومَ القيامةِ: أي لا يتحركُ الإنسانُ من ساحةِ الْمَحْشَرِ، لِيَذْهَبَ إلى مَثْوَاهُ الأخيرِ: الجنةِ أو النارِ.

اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[الإسراء:16]. ولذا يَجِبُ على المسلمِ أن يَحْذَرَ من السقوطِ في مَصْيَدَةِ الإعلاناتِ والْمُوضَاتِ التي يَتَفَنَّنُ الْمُرَوِّجُونَ لبضائعِهم في عَرْضِهَا بطُرُقٍ مُغْرِيَةٍ مُسْتَغِلِّينَ في ذلك أشياءَ كثيرةً من بينِها ما يأتي:

- صُوَرُ وأصواتُ المشاهيرِ من أصحابِ النُّجُومِيَّةِ مِمَّنْ يَحْضَوْنَ بمكانةٍ عند الناسِ.

- وقتُ وموضعُ انْشَدَادِ المشاهدين أو السامعين أو القراءِ إلى برنامجٍ مُعَيَّنٍ.

- الإطراءُ الزائدُ والمبالغةُ في وَصْفِ السلعةِ الْمُعْلَنِ عليها.

4- أن يَسْتَحْضِرَ في نفسِهِ وهو يَقْتَصِدُ في استهلاكِهِ بأنه يُعِدُّ نَفْسَهُ لساعةِ الْعُسْرَةِ: فمِمَّا يُعِينُ المسلمَ على الاقتصادِ في استهلاكِهِ أن يَضَعَ نَصْبَ عَيْنَيْهِ وهو يُنْفِقُ مِمَّا سَاقَهُ اللهُ تعالى إليه من الرزقِ أنه قد يُبْتَلَى ذاتَ يومٍ بذهابِ مَالِهِ، إنْ على مستواه الشخصيِّ فقط: بخسارتِهِ في تجارةٍ، أو سرقةٍ، أو نحوِهما من أسبابِ ذهابِ المالِ المختلفةِ. وإنْ على مستوى عمومِ الناسِ عندما يُبْتَلَوْنَ -لا قَدَّرَ اللهُ تعالى- بتَسَلُّطِ عدوٍّ خارجيٍّ عليهم، أو قَحْطٍ عامٍّ. وفي الحالَيْنِ سيَجِدُ نفسَهُ قد تَحَوَّلَ من صاحبِ مالٍ إلى عَدِيمِهِ، وثَمَّةَ إنْ لم يكن قد أَعَدَّ نفسَهُ في حالِ اليسرِ بالاقتصادِ وعدمِ الإسرافِ والتنعُّمِ الزائدِ عن حدودِ المعقولِ، فإنه لا يستطيعُ أن يَتَأَقْلَمَ مع حالِ العسرِ. وهنا لا يَرْضَى

بشَظَفِ العيشِ وضيقِهِ، فيَتَحَوَّلُ إلى عميلٍ لذاك العدوِّ؛ أو سارقٍ أو مغتصبٍ أو قاتلٍ؛ حتى يَظْفَرَ بمالٍ يُمَكِّنُهُ من عيشةِ الْبَذَخِ والتَّرَفِ التي عَهِدَهَا، وربما انْتَحَرَ؛ حتى يَرْتَاحَ -بِزَعْمِهِ- من الشقاءِ الذي وَجَدَ نفسَهُ فيه.

ولذا كان الخليفةُ الراشدُ الثانِيُّ عمرُ بنُ الخطابِ ﵁ ينصحُ فيقولُ: "اخْشَوْشِنُوا؛ فإنَّ النعمةَ لا تَدُومُ". وقال المؤرخُ والاجتماعيُّ الكبيرُ ابنُ خلدون المتوفى سنة 808هـ: "الهالكون في المجاعاتِ إنما قَتَلَهُمُ الشِّبَعُ المعتادُ السابقُ، لا الجوعُ الحادثُ اللاَّحِقُ".

5- أن يَعْلَمَ بأنَّ البركةَ تَحْصُلُ بالتوسطِ في الاستهلاكِ، وأنَّ الافتقارَ يَحْصُلُ بالإسرافِ فِيهِ: إذ إنَّ التوسطَ والاعتدالَ في الاستهلاكِ يُعَدُّ صورةً من صُوَرِ شُكْرِ اللهِ تعالى على نِعَمِهِ. ومَنْ شكرَهُ ﷿ عليها زَادَهُ من فضلِهِ الواسعِ؛ جزاءً عاجلاً في الدنيا. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم:07]. ولذا قال الحكماءُ: "ما عَالَ[1] مَنِ اقْتَصَدَ". بينما إذا أَسْرَفَ الإنسانُ وبَذَّرَ، فهذا دليلٌ على أنه ما عَرَفَ قَدْرَ نعمةِ اللهِ تعالى عليه، فلا يَقَعُ منه الشكرُ عليها، ومِنْ ثَمَّةَ فإنه يُعَرِّضُهَا للمَحْقِ والزوالِ، وحينئذٍ يَجِدُ نفسَهُ ذاتَ يومٍ قد تَحَوَّلَ إلى فقيرٍ مُعْسِرٍ، بعد أن كان الخيرُ مبسوطًا بين يَدَيْهِ.

---

[1]- عَالَ: افْتَقَرَ.

وهذا المعنى أشارَ إليه القرآنُ الكريمُ عندما قال: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ[1] وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ[2] فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً[3]﴾[الإسراء:29]. وعَبَّرَ عنه الشاعرُ الحكيم ابنُ الْوَرْدِيّ[4] في لاَمِيَّتِهِ بقولِهِ:

بَيْنَ تبذيرٍ وبُخْلٍ رُتْبَةٌ وكِلاَ هَذَيْنِ إنْ زَادَ قَتَلَ

6- أن لا يكونَ إِمَّعَةً يُسَايِرُ الناسَ في إسرافِهم: إذ إنَّ بعضَ الناسِ لا يَدْفَعُهُمْ إلى الإسرافِ إلا مسايرةُ الناسِ فيما يصنعون، فتَجِدُهُمْ يُنْفِقُونَ أموالاً تفوقُ في بعضِ الأحيانِ طاقتَهم الماليةَ على أشياءَ كماليةٍ جدًّا بالنسبةِ إليهم، سواء كانت هذه الأشياءُ أغذيةً أو ألبسةً أو أثاثًا أو أجهزةً أو حُلِيًّا. والأصلُ في المسلمِ أن لا يُسَايِرَ الناسَ إلا فيما كان

[1]- وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عنقِك: أي لا تُمْسِكْ عن النفقةِ، كأنَّ يَدَكَ مربوطةٌ إلى عنقِكَ، فلا تستطيعُ أن تُعْطِيَ شيئًا، وهذا فيه كنايةٌ عن البخلِ.

[2]- وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ: أي لا تَفْتَحْ يَدَكَ حين الإنفاقِ، بحيثُ تُخْرِجُ كلَّ ما في حَوْزَتِكَ من مالٍ، فلا تَكَادُ تُبْقِي شيئًا، وهذا فيه كنايةٌ عن الإسرافِ.

[3]- فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً: أي سيَلُومُكَ مَنْ حَرَمْتَهُمْ من الإنفاقِ في حالِ الشُّحِّ والتقتيرِ، وستَنْقَطِعُ عن سيرِكَ في الحياةِ في حالِ الإسرافِ ونَفَادِ المالِ فتُصْبِحُ نادمًا مغمومًا.

[4]- ابنُ الورديِّ هو: الفقيهُ، الأديبُ، المؤرخُ، سراجُ الدينِ، أبو حفصٍ، عمرُ بنُ مُظَفَّرٍ، الْحَلَبِيُّ، الشافعيُّ، ينتهي نَسَبُهُ إلى أبي بكرٍ الصديقِ ﷺ، المتوفَّى سنة 749هـ، له قصيدةٌ لاَمِيَّةٌ مشهورةٌ من اثنتيْنِ وسبعين بيتًا اسْمُهَا: "نصيحةُ الإخوانِ، ومرشدةُ الْخِلاَّنِ".

موافقًا للشرعِ، بينما إذا كان الأمرُ مخالفًا له، فإنه لا يُسَايِرُهُمْ في ذلك. وهذا ما نَصَحَ به النبيُّ ﷺ عندما قال: ﴿لاَ تكونُوا إِمَّعَةً تقولونَ: إنْ أحسنَ الناسُ أحسنَّا، وإنْ ظلمُوا ظلمنَا. ولكنْ وَطِّنُوا أنفسَكم[1]: إنْ أحسنَ الناسُ أنْ تُحْسِنُوا، وإنْ أساؤُوا فلاَ تَظْلِمُوا﴾[رواه الترمذي، وفيه ضَعْفٌ].

ومن صُوَرِ الْإِمَّعِيَّةِ في الإسرافِ والتبذيرِ ما يُلاَحَظُ في الولائمِ؛ إذ إنَّ أكثرَ المتزوِّجين وأهليهم -إلا مَنْ رَحِمَ رَبِّي- أصبحوا اليومَ يتكلَّفون فيما يُقَدَّمُ فيها من أطباقٍ ولحومٍ وفواكهَ، بل إنَّ بعضَهم ربما قَصَدَ التباهيَ والتفاخرَ على غيرِهِ بذلك، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ[2] وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً[3] إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:18]. ولذا فإن المسلمَ العاقلَ اللَّبِيبَ هو الذي يُنْفِقُ إنْ كان غنيًّا على قَدْرِ حاجتِهِ، وإنْ كان فقيرًا على قَدْرِ طاقتِهِ. وهذا ما أشار إليه القرآنُ الكريمُ في قولِهِ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ[4] وَمَن قُدِرَ

---

[1]- وَطِّنُوا أنفسَكم على كَذَا، أي: احْمِلُوهَا عليه.

[2]- وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ: أي لا تُعْرِضْ بوجهك عَمَّنْ تُكَلِّمُهُ تَكَبُّرًا.

[3]- مَرَحاً: مختالاً وبَطَرًا وعُجْبًا وخُيَلاءَ.

[4]- لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ: أي لِيُنْفِقْ ذو الْغِنَى من غِنَاهُ.

عَلَيْـهِ رِزْقُـهُ فَلْيُنفِـقْ مِمَّـا آتَـاهُ اللَّهُ[1] لَا يُكَلِّـفُ اللَّهُ نَفْسـاً إِلَّا مَـا آتَاهَا﴾[الطلاق:07].

7- أن يُعْطِيَ لأبنائِهِ من نفسِهِ النموذجَ الْحَسَنَ في التوسطِ في الاستهلاكِ: إنَّ صغيرَ اليومِ هو كبيرُ الغدِ، وإنَّ وَلَدَ الوقتِ الحاضرِ هو وَالِدُ المستقبَلِ، وإنَّ الْمُنْفَقَ عليه الآنَ هو الْمُنْفِقُ على غيرِهِ على الْمَدَى القريبِ أو المتوسطِ. وبناءً على هذا ينبغي أن يُعْطِيَ الوالدانِ من نفسيْهما القدوةَ الحسنةَ لأولادِهما في الإنفاقِ الْمُرَشَّدِ؛ لِيَغْرِسَا ذلك فيهم من الصغرِ، فيُعَايِشُونَهُ واقعًا، ومِنْ ثَمَّةَ نَضْمَنُ رشادَ إنفاقِهم حالَ كِبَرِهِمْ. ولذا فإنَّ الحكمةَ تقول: "مَنْ شَبَّ على شيءٍ، شَابَ عليه". كما أنَّ الشاعرَ يقولُ:

وينْشَأُ نَاشِئُ الفتيانِ مِنَّا على ما كان عَوَّدَهُ أَبُوهُ

وما دَانَ الْفَتَى بِحِجًا[2] ولكن يُعَوِّدُهُ التَّدَيُّنُ أَقْرَبُوهُ

ولْيَعْلَمِ الأبوانِ أنَّ إلزامَ نفسيْهما بالاعتدالِ في النفقةِ حتى يَتَأَثَّرَ بهما أبناؤُهما إيجابًا، يدخلُ ضِمْنَ مسؤليتِهما تُجَاهَ أبنائِهما، بحيث لو قَصَّرَا في ذلك، حَاسَبَهُمَا اللهُ تعالى عليه يومَ القيامةِ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿الرجلُ راعٍ في أهلِهِ ومسؤولٌ عنْ رعيتِهِ، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عنْ رعيتِهَا﴾[رواه الشيخان].

---

[1]- وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ: أي ومَنْ ضُيِّقَ عليه عيشُهُ فكان فقيرًا، فلْيُنْفِقْ على حسبِ حَالِهِ.

[2]- بحِجًا: بعقلٍ.

8- أن يُوَجِّهَ شيئًا مِمَّا زَادَ من مَالِهِ عن حاجتِهِ لخدمةِ الإسلامِ والمسلمين: إنَّ الأصلَ في المسلمِ أن يُنْفِقَ عن نفسِهِ وأهلِهِ بقدرِ الحاجةِ، وما زَادَ عنها ادَّخَرَ منه شيئًا يَجِدُهُ ذخرًا عند نوائبِ الدهرِ الكثيرةِ، وفي الوقتِ نفسِهِ وبعد إخراجِ الزكاةِ المفروضةِ إنْ وَجَبَتْ عليه، يصْرِفُ شيئًا من مالِهِ في المشاريعِ الخيريةِ الكثيرةِ التي يحتاجُهَا المسلمون في سائرِ بقاعِ الأرضِ، كإغناءِ فقرائِهِمْ -وما أكثرَهُمْ!-، وتشييدِ مساجدِهم، وتزويجِ شبابِهم، ومَحْوِ أُمِّيَّتِهِمْ، ونشرِ الثقافةِ الصحيحةِ والعلمِ الشرعيِّ فيهم.

وهذا هو شأنُ أغنياءِ الصحابةِ ﷺ -وهم مِمَّنْ جعلَهم اللهُ تعالى للمتقين أئمةً-، فمِنْ نماذجِهم خليفةُ رسولِ اللهِ ﷺ الأولُ أبو بكرٍ الصديقُ ﷺ، وكان اللهُ تعالى قد آتاهُ مالاً كثيرًا، فكان يتصدقُ منه في وجوهِ الخيرِ المختلفةِ، حتى بَشَّرَهُ اللهُ تعالى بسببِ ذلك -وهو في الدنيا- بدخولِ الجنةِ، وبالنجاةِ من النارِ. قال ﷻ في حَقِّهِ بعد أن قَرَّرَ بأنَّ الأشقياءَ المكذبين الْمُعْرِضِينَ عن الإسلامِ سيُقْذَفُونَ في النارِ التي تَلَظَّى وتتوقَّدُ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى[1] إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ

---

[1]- وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى: أي ليس ما يُنْفِقُهُ من مالٍ هو من أجلِ أنَّ لِأَحَدٍ من الناسِ عليه فَضْلاً سابقًا يريدُ بذاك الإنفاقِ أن يُكَافِئَهُ به. ذُكِرَ هذا؛ لأنَّ أبا بكرٍ ﷺ كان في مكةَ يشتري العبيدَ من أسيادِهم الذين يُعَذِّبُونَهُمْ من أجلِ إسلامِهم، ويُعْتِقُهُمْ لوجهِ اللهِ تعالى. ومِنْ هؤلاء بلالُ بنُ رباحٍ ﷺ. فقال=

يَرْضَى﴾[الليل:14-21]. بينما إذا ما تَنَاسَى الْغَنِيُّ مشاريعَ الخيرِ في الأمةِ التي تحتاجُ إلى مَنْ يُمَوِّلُهَا من أغنياءِ المسلمين، ولم يُبَالِ بإخوانِهِ المحتاجين، سوف تَنْطَبِقُ عليه القاعدةُ الاجتماعيةُ التي تقولُ: "ما جَاعَ فقيرٌ، إلا بتُخْمَةِ غَنِيٍّ".

أسألُ اللهَ جلَّ وعلاَ أن يجعلَنَا من المقتصدِين المعتدلِين في إنفاقهم واستهلاكِهم، وأن يُبَصِّرَنَا بعيوبِنَا، وأن يُعِينَنَا على إصلاحِ ما فَسَدَ من أمورِنَا، وآخِرُ دعوانا إنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

=المشركون: " إنما فعلَ ذلك لِيَدٍ عنده فهو يُكَافِيهِ بها". فَكَذَّبَهُمُ اللهُ تعالى، وأكَّد على إخلاصِ أبي بكرٍ.

المحاضرة الثانية

مِنْ بركاتِ الاتحادِ بين المسلمين

إنَّ المتأملَ في النصوصِ الشرعيةِ سيَجِدُ فيها دعوةً إلى الوحدةِ، ورَصِّ الصفوفِ، ولَمِّ الشَّمْلِ. فمِنْ بين تلك النصوصِ:

- قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:92]، فمِنَ اللطائفِ الملحوظَةِ في هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّ اللهَ تعالى قَدَّمَ تقريرَ وحدةِ الأمةِ الإسلاميةِ، عن أعظمِ حقٍّ من حقوقِهِ، وهو إفرادُهُ بالعبادةِ؛ وهذا حتى يُلْفِتَ انتباهَ المسلمين إلى أهميةِ اتحادِهم والسعيِ لأجلِ تحقيقِهِ.

- قولُهُ ﷺ فيما يرويه النعمانُ بنُ بشيرٍ رضي الله عنه: ﴿مثلُ المؤمنين في تَوَادِّهِمْ وتراحمِهم وتعاطفِهم مثلُ الجسدِ، إذا اشتكى منه عضوٌ تَدَاعَى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ والْحُمَّى﴾[رواه مسلم]، فَفِي هذا الحديثِ يُقَرِّرُ النبيُّ ﷺ أنَّ المسلمين في مجموعِهم كالجسدِ الواحدِ، وكلَّ فردٍ منهم بالنسبةِ للمجموعِ كالعضوِ بالنسبةِ للجسدِ، وكما أنَّ الجسدَ إذا مَرِضَ منه عضوٌ تألَّمَ له باقي الأعضاءِ، فكذلك إذا أصابتْ واحدًا منهم مصيبةٌ، شَعَرَ بِأَلَمِهَا الباقُون، فسَعَوْا بما فيهم من العواطفِ لِدَفْعِ الألمِ عنه، وجَلْبِ الخيرِ له.

- وقولُهُ ﷺ فيما يرويه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: ﴿المؤمنُ للمؤمنِ

كالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بعضًا﴾، ثم شَبَّكَ بين أصابعِهِ[رواه الشيخان]، فهاهنا يُشَبِّهُ النبيُّ ﷺ سائرَ المؤمنين بالنسبةِ لبعضِهم البعضِ بالبنيانِ الذي لا تَقُومُ له قائمةٌ إلاَّ بسائرِ أجزائِهِ، فكذلك المؤمنون لا تَقُومُ لهم قائمةٌ إلا باتحادِهم وتَضَافُرِ جهودِهم.

ولَوْ أنَّ المسلمين كانوا مُتَّحِدِينَ متآلِفين مُتَآخِينَ، كما أَمَرَهُمْ ربُّهم جلَّ وعَلاَ، ونبيُّهُم المصطفى ﷺ، فإنهم سَيَجْنُونَ ثمارًا طيبةً كثيرةً، ويَحْصُدُونَ خيرًا وَافِرًا؛ ذلك أنَّ للاتحادِ والتآلُفِ والتآخي بركاتٍ عديدةً نَذْكُرُ منها ما يأتي:

1- التَّحَصُّنُ من كَيْدِ الشيطانِ: ذلك أنَّ المسلمَ ضعيفٌ بنفسِهِ، قويٌّ بإخوانِهِ، فإذا ما كان منعزلاً عن جماعةِ المسلمين، سَهُلَ على الشيطانِ أن يَتَلَبَّسَهُ، ويستحوذَ عليه، ويُزَيِّنَ له ما يُزَيِّنُ. ولكنْ إذا ما كان مُتَحَصِّنًا بكوكبةِ إخوانِهِ، عُصِمَ من مصائدِهِ ومكائدِهِ؛ ذلك أنَّ هؤلاء الإخوانَ إذا ما رَأَوْا منه بدايةَ انحرافٍ وتَسْوِيلِ شيطانٍ، نَبَّهُوهُ، ومِنْ ثَمَّةَ يُنْقَذُ من شَرِّهِ.

روى أبو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال: ﴿ما مِنْ ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بَدْوٍ لا تُقَامُ فيهم الصلاةُ، إلا قد اسْتَحْوَذَ عليهم الشيطانُ، فعليك بالجماعةِ؛ فإنَّما يأكلُ الذئبُ الْقَاصِيَةَ﴾[رواه أحمد وأبو داود والنسائي].

2- التَّحُصُّنُ من الوقوعِ في فَخِّ الأعداءِ وكَيْدِهم: فالمسلمون عليهم أنْ يَعْرِفُوا بأنَّ أعداءَهم الذين يَتَرَبَّصُونَ بهم لا يَصْطَادُونَ إلا في المياهِ

الْعَكِرَةِ، فإذا رَأَوْهم مُتَّحِدينَ، يَئِسُوا مِنَ التَّحْرِيشِ بينهم، أَمَّا إذا ما رَأَوْهُمْ مُخْتَلِفِينَ مُتَناحِرِينَ، تَدَخَّلُوا وأَذْكَوْا ذاك الاختلافَ والتناحُرَ.

وهذا ما تُقَرِّرُهُ الآياتُ الكريماتُ الآتياتُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران:100-105][1].

[1]- جاء في سببِ نزولِ هذه الآياتِ عن مجاهدٍ أنه قالَ: كانَ جماعُ قبائلِ الأنصارِ بَطْنَيْنِ: الأوسِ والخزرجِ، وكان بينهما في الجاهليةِ حربٌ ودماءٌ وشَنَآنٌ -أي: تباغضٌ وعداوةٌ شديدةٌ-، حتى مَنَّ اللهُ عليهم بالإسلامِ وبالنبيِّ ﷺ، فأطفأَ اللهُ الحربَ التي كانت بينهم، وأَلَّفَ بينهم بالإسلامِ. فبَيْنَمَا رجلٌ من الأوسِ ورجلٌ من الخزرجِ قَاعِدَانِ يتحدَّثَانِ، ومعهما يهوديٌّ جالسٌ، فلم يَزَلْ يُذَكِّرُهما أيَّامَهما، والعداوةَ التي كانت بينهم، حتى اسْتَبَّا ثم اقْتَتَلاَ. فنادى هذا قومَهُ،=

3- التَّرَفُّعُ عن عاداتِ الجاهليِّين: ذلك أنَّ أهلَ الجاهليةِ هم الذين يَسْتَحِبُّونَ الفرقةَ، ويَسْتَحْسِنُونَ التعصُّبَ الأعمى للقبيلةِ، بَيْنَما المسلمُ الحقُّ هو ذاك الذي يَتَنَاسَى عاملَ اللسانِ واللونِ والْعِرْقِ والجهةِ، ويُقَدِّمُ عاملَ الدينِ.

ولذا مَنْ أرادَ أنْ يَرْبَأَ بنفسِهِ عن عاداتِ الجاهليِّين السيئةِ، ولا يَتَنَجَّسَ بما تَنَجَّسُوا به، فما عليه إلا أنْ يكونَ مُتَآخِيًا مع إخوانِهِ المسلمين، مُحِبًّا لهم، مهما كان لسانُهم أو لونُهم أو عرقُهم أو مكانُهم. وأمَّا إنْ أَبَى إلا أنْ يكونَ مُبْغِضًا لهم، مُبْتَعِدًا عن جماعتِهم، مُفَرِّقًا لكلمتِهم، فهو أَشْبَهُ ما يكونُ بأهلِ الجاهليةِ الْأُولَى.

روى البخاري أنَّ أبا ذَرٍّ وبِلالاً الحبشيَّ رضي الله عنهما تَغَاضَبَا وتَسَابَّا، وفي ثورةِ الغضبِ قالَ أبو ذَرٍّ لبلالٍ: "يا ابنَ السوداءِ"، فشَكَاهُ بلالٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقالَ النبيُّ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ لأبي ذَرٍّ:

=وهذا قومَهُ، فخرجوا بالسلاحِ، وصَفَّ بعضُهم لبعضٍ، ورسولُ اللهِ ﷺ شاهدٌ يومئذٍ بالمدينةِ، فجاء رسولُ اللهِ ﷺ، فلم يَزَلْ يمشي بينهم، إلى هؤلاء وإلى هؤلاء؛ لِيَسَكِّنَهم، حتى رجعوا ووضعوا السلاحَ، فأنزلَ اللهُ ﷻ القرآنَ في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، إلى قوله: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[رواه الطبري في التفسير].

﴿أَعَيَّرْتَهُ بأمِّهِ، إنك امْرُؤٌ فيك جاهليةٌ﴾[1].

وفي هذا السياقِ يُذْكَرُ أيضًا ما كان مِنَ النبيِّ ﷺ في غزوةِ بَنِي الْمُصْطَلَقِ سنة 6هـ، لَمَّا كَسَعَ[2] رجلٌ من المهاجرين رجلاً مِنَ الأنصارِ، فقال المهاجريُّ: "يا معشرَ المهاجرين". وقال الأنصاريُّ: "يا معشرَ الأنصارِ". فسمع ذلك النبيُّ ﷺ فقال: ﴿مَا بَالُ دَعْوَى الجاهليةِ؟!﴾، فأخبرُوهُ بِمَا وَقَعَ، فقال: ﴿دَعُوهَا؛ فإنَّها مُنْتِنَةٌ﴾[رواه الترمذي].

4- بقاءُ دولةِ الإسلامِ، وزيادةُ قُوَّتِهَا وهَيْبَتِهَا: إذا أرادَ المسلمون لدولتِهم بقاءً واستمرارًا، وقوةً ومَنَعَةً تَنْكَسِرُ عليها جيوشُ أعدائِهم، وهَيْبَةً ورَهْبَةً في قلوبِهم تجعلُهم لا يَتَجَرَّؤُونَ عليهم، فلْيَكُونُوا مُتَّحِدِينَ. وفي هذا المعنى يقول المولى ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ[3] وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال:46]. وصَدَقَ الشاعرُ الحكيمُ عندما قالَ:

تَأْبَى الرماحُ إذا اجْتَمَعْنَ تَكَسُّرًا   وإذا تَفَرَّقْنَ تَكَسَّرَتْ آحَادًا

والْمُتَصَفِّحُ لتاريخِ المسلمين القديمِ والمعاصرِ يَجِدُ أنَّ أهمَّ عاملٍ

---

[1]- أَرْجُو أنْ يَقِفَ المسلمُ عند هذا العتابِ الشديدِ الذي كان مِنَ النبيِّ ﷺ في حَقِّ صحابيٍّ جليلٍ عابدٍ زاهدٍ مجاهدٍ هو أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ ؓ؛ حتى يَعْرِفَ خَطَرَ التفريقِ بين المسلمين، وكذا الانتقاصِ من شأنِ بعضِهم.

[2]- كَسَعَ، بمعنى: ضَرَبَ دُبُرَهُ بيدِهِ، أو بصدرِ قدمِهِ.

[3]- يُقْصَدُ بالريح في هذا السياقِ القرآنِيِّ: القوةُ والْمَنَعَةُ والْهَيْبَةُ والدولةُ والْكَيَانُ والْمَكَانَةُ.

من عواملِ سقوطِ بعضِ دُوَلِهِمْ إنَّما هو تَفَرُّقُهم واختلافُهم. ولا أَجِدُ في هذا المقامِ مثالاً أوضحَ من دولةِ الأندلسِ التي أَقَامَهَا المسلمون على أرضِ إسبانيا حاليًّا، وشَيَّدُوا فيها حضارةً عظيمةً دَامَتْ ثمانيةَ قرونٍ، لكن عندما تَفَرَّقَتْ كَلِمَتُهم، وتَمَزَّقُوا في دُوَيْلاَتٍ صغيرةٍ متناحِرَةٍ متآمِرَةٍ على بعضِها، مستنجدةٍ بأعدائِها على إخوانِها، سَقَطَتْ سقوطًا مَشِينًا، وأصبحت أثرًا بعد عَيْنٍ، ومُحِيَ الإسلامُ منها مَحْوًا بَشِعًا منقطعَ النظيرِ.

ومِنَ التاريخِ المعاصرِ نَذْكُرُ دولةَ العراقِ، فإنَّ من أسبابِ سقوطِها في وَهْدَةِ الْمُحْتَلِّ الأمريكيِّ وحلفائِهِ انقسامَ أهلِ العراقِ طائفيًّا وعِرْقِيًّا: سنةً وشيعةً، وعَرَبًا وأَكْرَادًا. ولا يَزَالُ الْمُحْتَلُّ لِحَدِّ كتابةِ هذه الأسطرِ يُرَاهِنُ على إِذْكَاءِ هذه التفرقةِ؛ حتى يزيدَ من أَمَدِ تواجدِهِ في أراضيهم، ويستمرَّ في إضعافِهم واسْتِنْزَافِ خيراتِهم.

5- كَسْبُ مَعِيَّةِ اللهِ تعالى: إنَّ الذي يريدُ أن يكونَ اللهُ تعالى معه بالحفظِ والصَّوْنِ والتوفيقِ والتسديدِ، فما عليه إلا أنْ يَنْضَمَّ إلى جماعةِ المسلمين، ولا يَنْعَزِلَ عنهم. ولذا روى عبدُ اللهِ بنُ عمرَ ﵁ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: ﴿إنَّ اللهَ لا يَجْمَعُ أمتي -أو قال: أمةَ محمدٍ ﷺ-[1] على ضلالةٍ، ويَدُ اللهِ مع الجماعةِ﴾[رواه الترمذي]. والْمُلاَحِظُ في دنيا

---

[1]- هذا شكٌّ من الراوي، أي أنه شَكَّ هل قالَ النبيُّ ﷺ: ﴿أُمَّتِي﴾، أم أنه قال: ﴿أمةُ محمدٍ﴾، وفيه لَفْتَةٌ طيبَةٌ؛ ذلك أنَّ مَنْ شَكَّ في نَقْلِ كلامِ غيرِهِ بحروفِهِ، عليه أنه يُورِدَ في كلامِهِ ما يَدُلُّ على أنه ليس مُتَأَكِّدًا من حَرْفِيَّةِ كلامِ هذا الغيرِ.

الناسِ، سيجِدُ أنَّ الأعمالَ الجماعيةَ عادةً ما تكونُ مُوَفَّقَةً مُكَلَّلَةً بالنجاحِ؛ لأنَّ الجهودَ فيها تَتَضَافَرُ، والأفكارَ فيها تتلاقحُ، وقبلَ ذلك وبعدَهُ فإنَّ اللهَ تعالى قد أَحَلَّ البركةَ فيها. بينما الأعمالُ التي يقومُ بها الأفرادُ، فمَهْمَا أُوتُوا مِنْ إمكاناتٍ ماديةٍ ومعنويةٍ، فإنَّ ثمارَها في الغالبِ ستكونُ محدودةً، ونجاحَها سيكونُ في نطاقٍ ضيقٍ.

6- تَنَزُّلُ الرَّحَمَاتِ: ما أَحْوَجَ المسلمُ إلى تَنَزُّلِ رحمةِ ربِّهِ عليه؛ ذلك أنه لا يستطيعُ أن يُحَصِّلَ شيئًا من خَيْرَيِ الدنيا والآخرةِ، إلا إذا تَغَمَّدَهُ اللهُ تعالى برحمتِهِ.

ومِنَ الوسائلِ التي بِبَرَكَتِهَا تَتَنَزَّلُ عليه رحماتُ ربِّهِ اتحادُهُ مع إخوانِهِ، وتعاونُهُ معهم، ومحبتُهم وموالاتُهم. يقولُ ﷻ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:71]. بل إنَّ الاتحادَ نفسَهُ من أعظمِ صورِ الرحمةِ، ولذا قال النبيُّ ﷺ:﴿الجماعةُ رحمةٌ، والفرقةُ عذابٌ﴾[رواه أحمد].

7- الظَّفَرُ بالجنةِ: إنَّ أَغْلَى ما يَطْلُبُهُ المسلمُ الجنةَ؛ ذلك أنها هي دارُ النعيمِ الحقيقيِّ الأبديِّ، ولذا تَجِدُهُ يسعى ويَكِدُّ ويَجِدُّ في هذه الدنيا، فيأتي بشتَّى صنوفِ الأعمالِ التي يعتقدُ أنها تُمَهِّدُ له الطريقَ إليها، ومِنْ هذه الأعمالِ الْتِزَامُهُ بجماعةِ المسلمين، وعدمُ خروجِهِ عنها. قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿إيَّاكم والفرقةَ؛ فإنَّ الشيطانَ

مع الواحدِ، وهو مِنَ الاثنيْنِ أبعدُ، مَنْ أرادَ بُحْبُوحَةَ الجنةِ[1]، فلْيَلْزَمِ الجماعةَ﴾[رواه الترمذي].

نسألُ اللهَ جلَّ وعلاَ أن يُوَحِّدَ صفوفَ المسلمين، وأنْ يجمعَ شَمْلَهم، وأنْ يَلُمَّ شَعَثَهُمْ، وأنْ يُبَارِكَ في جهودِهم، كما نسألُهُ أنْ يُؤَلِّفَ بين قلوبِهم، وأنْ يُصْلِحَ ذاتَ بينهم، وأنْ يهديَهم سُبُلَ السلامِ، وآخِرُ دعوانا إنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

---

[1]- بُحْبُوحَةَ الجنةِ: وسطَهَا وخيارَهَا.

المحاضرة الثالثة

مِنَ الوسائلِ المُعِينَةِ على تربيةِ الأولادِ تربيةً سليمةً[1]

مِنْ أعظمِ نِعَمِ اللهِ تعالى على العبدِ في هذه الدنيا أن يرزقَهُ بالذريةِ والأولادِ الذين يَخْدُمُونَهُ وهو حيٌّ، ويَخَلِّدُونَ اسمَهُ بعد موتِهِ[2]. وهذا

[1]- مِنْ أحسنِ الأوقاتِ لِطَرْقِ هذا الموضوعِ الفاتحُ من جوان اليومُ العالميُّ للطفولةِ.

[2]- الذي لم يرزقْهُ المولَى ﷻ بالولدِ، عليه أن يصبرَ ويحتسِبَ ذلك عند اللهِ تعالى؛ لأنه نوعُ ابتلاءٍ، فلعلَّهُ جلَّ وعلاَ أرادَ أن يُدْخِلَهُ الجنةَ من خلالِ صبرِهِ على عدمِ الولدِ. كما أنَّ عليه أن يعلمَ بأنَّ اللهَ الرؤوفَ الرحيمَ الحكيمَ لا يختارُ له إلا ما فيه خيرُهُ في الدنيا والآخرةِ، فلَرُبَّمَا عَلِمَ اللهُ تعالى أنه لو رُزِقَ بالولدِ، لَسَوِّدُ وجهَهُ في الدنيا أمامَ الناسِ، وجَرَّهُ إلى المحاكمِ، وكان وبالاً عليه، بل رُبَّمَا كان حَتْفُ الوالدِ على يَدِ هذا الولدِ العاقِّ، كما هو مُلاَحَظٌ ومعيشٌ في دنيا بعضِ الناسِ. وهذا ما يشيرُ إليه التذييلُ الإلهي في قولِهِ تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[الشورى:49-50]. وهذا لا يمنعُهُ أن يسألَ اللهَ ربَّهُ كما سألَهُ زكريَّا عليه السلام، فلعلَّهُ يعطيهِ من فضلِهِ الواسعِ. قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى=

الأمرُ معروفٌ عند بني البشرِ فطريًّا، والقرآنُ الكريمُ أشارَ إليه عندما قالَ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[الكهف:46].

إلا أنَّ هذه النعمةَ لا تكونُ على وجهِهَا الأتَمِّ إلا إذا كان الولدُ صالحًا، ولذا أردتُّ أنْ أضعَ بين أيدي إخواني وأخواتي من الآباءِ والأمهاتِ مجموعةً من الوسائلِ والعواملِ، التي إذا ما رَعَوْهَا حقَّ رعايتِهَا رُبِّيَ الولدُ التربيةَ الإسلاميةَ الصحيحةَ، وأُنْشِئَ النشأةَ السَّوِيَّةَ السليمةَ. ويُمْكِنُ لي أنْ أُورِدَ هذه الوسائلَ والعواملَ على النحوِ الآتي:

1- اختيارُ شريكِ الحياةِ على أساسِ الأصلِ الطيبِ والْخُلُقِ والدينِ:

وهنا ينبغي أن نعرفَ بأنَّ عمليةَ تربيةِ الأولادِ تبتدئُ منذ تفكيرِ الأبويْنِ في أمرِ الارتباطِ ببعضِهما -يعني قبلَ إنجابِهم أصلاً-، وهذا معنى مهمٌّ يجبُ أن يَنْتَبِهَ إليه كلُّ مسلمٍ مقبلٍ على الزواجِ، سواء كان الزواجُ لنفسِهِ أو لأحدِ أبنائِهِ أو بناتِهِ؛ ذلك أنَّ الإخفاقَ في اختيارِ أبِ الأولادِ أو أُمِّهِمْ سببٌ أساسٌ في الإخفاقِ في تربيتِهم بعد ذلك. وإلا كيف نتصوَّرُ أبناء صالحين من أبٍ أو أمٍّ غيرِ صَالِحيْنِ؟![1]

=يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[آل عمران:38-40].

[1]- قد يَحْدُثُ أن يُنْجِبَ غيرُ الصالِحِ الولدَ الصالِحَ، ولكنَّ هذا شاذٌّ، والشاذُّ يُحْفَظُ ولا يُقَاسُ عليه. كما أنَّ الصالِحَ قد يُبْتَلَى بالولدِ غيرِ الصالِحِ.

يقول النبيُّ ﷺ وهو يُعدِّد مقاصدَ الناسِ من الارتباطِ بالمرأةِ عن طريقِ الزواجِ: ﴿تُنْكَحُ المرأةُ لأربعٍ: لمالِها ولِحَسَبِهَا ولجمالِها ولدينِها، فَاظْفَرْ بذاتِ الدينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ[1]﴾[متفق عليه].

ويقول ﷺ وهو يخاطِبُ المرأةَ وأولياءَها: ﴿إذَا خطبَ إليكُم مَنْ ترضوْنَ دينَهُ وخُلُقَهُ[2] فزوِّجُوهُ، إلاَّ تفعلُوا تكُن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عَرِيضٌ﴾[رواه الترمذي].

نُذَكِّرُ بهذا؛ لأنَّ عددًا مُعْتَبَرًا من الناسِ في هذا الزمانِ -إلا مَنْ رَحِمَ رَبِّي- أصبحَ لا يُرَكِّزُ عند اختيارِهِ لشريكِ حياتِهِ إلا على الجوانبِ الشكليةِ والماديةِ فقط، فالرجلُ يريدُ في المرأةِ أن تكونَ جميلةً، والمرأةُ تريدُ من الرجلِ أن يكونَ ذا مالٍ وفيرٍ، أمَّا عاملُ الدينِ فقد

---

[1]- قولُهُ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ: ﴿تَرِبَتْ يَدَاكَ﴾ فيه دعاءٌ بالفقرِ على مَنْ لم يجعلِ الدينَ من أهدافه في الزواج.

[2]- رغمَ أنَّ الْخُلُقَ جزءٌ لا يتجزَّأُ من الدينِ، إلا أنَّ النبيَّ ﷺ خَصَّهُ بالذكرِ لأهميتِهِ الكبرى؛ ذلك أنَّ بعضًا من الناسِ قد يكونُ طاهرًا عفيفًا مصليًا صائمًا قائمًا ساعيًا في تَمَثُّلِ سننِ الرسولِ ﷺ الشكليةِ في نفسِهِ، ولكنَّه في الوقتِ ذاتِهِ يكونُ فَضًّا غليظَ القلبِ خَشِنَ الطباعِ سيءَ العشرةِ، فمِثْلُ هذا لا تستقيمُ معه الحياةُ.

أصبحَ ثانويًّا عندهم، وهذا ما نَلْمَسُهُ حتى عند الذين نَتَوَسَّمُ فيهم الخيرَ، ونعتقدُ بأنهم من أهلِ الدينِ والصلاحِ[1].

ومسألةُ الاختيارِ ليست قاصرةً على شريكِ الحياةِ فقط، بل تتعدَّاها إلى أهلِهِ أيضًا؛ لأنَّ الولدَ كما أنه سيَنْشَأُ في كَنَفِ أبويْهِ، سيعيشُ ويُخَالِطُ أجدادَهُ وأعمامَهُ وأخوالَهُ، وسيتأثَّرُ بهم سَلْبًا أو إيجابًا، بل ربما أشرفَ هؤلاء أو بعضُهم على تربيتِهِ في حالِ موتِ أحدِ الأبويْنِ أو كليْهما، أو في حالِ الطلاقِ والانفصالِ -لا قَدَّرَ اللهُ-. ولذا فإنَّ

---

[1]- مِمَّا يُؤْسِفُنِي ويُؤْلِمُنِي كثيرًا، أنَّ بعضًا مِنَ المتديِّنِينَ مِمَّنْ يستشيرُونَنِي في أمرِ زواجِهِمْ، أَجِدُهم كغيرِهم من عوامِ الناسِ يُعْنَوْنَ أكثر بعاملِ الجمالِ في المرأةِ، وعندما أُذَكِّرُهم بِمَا أَكَّدَتْ عليه النصوصُ الشرعيةُ، لَرُبَّمَا حَاوَلُوا أن يُقْنِعُونِي بأنهم من خلالِ تَدَيُّنِهم كانوا يَغُضُّونَ من أبصارِهم، ويَحْفَظُونَ فروجَهم، ويَكْبِتُونَ دوافعَهم الجنسيةَ، فَهُمْ يريدون الآنَ أن يَتَحَصَّنُوا تَمَامَ التحصُّنِ، ولا يكونُ ذلك على حسبِ زعمِهم إلا مع المرأةِ الجميلةِ. وهذا في الحقيقةِ أَعُدُّهُ تَلْبِيسًا شيطانيًّا عليهم، حتى يُحَرِّفَهُمْ عن جادةِ الصوابِ، ولذا كثيرًا ما نلاحِظُ تراجعًا في قوةِ دينِ هؤلاء بعد زواجِهم بالجميلاتِ غيرِ المتديِّنَاتِ. وعلى هذا أريدُ أن أغتنمَ الفرصةَ لأقولَ لهم إنَّ الجمالَ أمرٌ نِسْبِيٌّ، وأنه يزولُ بمرورِ الأيامِ، إلا أنَّ الذي يبقى ويدومُ هو الدينُ المتينُ والْخُلُقُ الطيبُ. ولذا وَجَدْنَا النبيَّ ﷺ ينصحُ بالتي تَسُرُّ عند النظرِ إليها، لا التي تُبْهِرُ وتَفْتِنُ، فقد جاء عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنه قالَ: قيلَ لرسولِ اللهِ ﷺ أيُّ النساءِ خيرٌ؟ قالَ: ﴿التي تَسُرُّهُ إذا نَظَرَ، وتطيعُهُ إذا أَمَرَ، ولا تخالِفُهُ في نفسِهَا ولا مالِهَا بما يَكْرَهُ﴾[رواه النسائي والبيهقي في شُعَبِ الإيمانِ].

قضيةَ اختيارِ شريكِ الحياةِ معادلةٌ متعددةُ الأطرافِ، لكلِّ طرفٍ منها أهميتُهُ فيها.

2- استحضارُ معنى العبادةِ حَالَ القيامِ بمَهَمَّةِ التربيةِ: أي أَنَّ الأبويْنِ وهما يقومَانِ بتربيةِ أبنائِهما عليهما أن يعتقدَا بأنهما في حالِ تَعَبُّدٍ للهِ ﷻ وتَقَرُّبٍ منه، فكأنهما في حالِ صلاةٍ أو صيامٍ أو ذِكْرٍ أو تلاوةٍ ونحوِ ذلك من سائرِ العباداتِ الشعائريةِ. ذلك أَنَّ العبادةَ عندنا نحن المسلمين اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ من الأقوالِ والأفعالِ الباطنةِ والظاهرةِ. ولا شكَّ أَنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ من الوالديْنِ أن يُرَبِّيَا أولادَهما التربيةَ الحسنةَ ويَرْضَى عن ذلك؛ حتى يكونَ هؤلاءِ الأولادُ إضافةً طيبةً تُفِيدُ الإسلامَ والمسلمين. وهذا الاعتقادُ لَوْ استقرَّ في ذهنِ الأبويْنِ، فإنَّهُ من شأنِهِ أن يُقَوِّيَ من عزيمتِهما على مواصلةِ دَرْبِ التربيةِ الشاقِّ، وتَحَمُّلِ جميعِ ما يُمْكِنُ أن يَلْقَيَاهُ وهما يقومَانِ بهذا الواجبِ؛ لأنَّ المسلمَ الحقَّ يَسْتَبْسِطُ كلَّ عناءٍ يَجِدُهُ في سبيلِ إرضاءِ ربِّهِ.

أما إنْ غابَ هذا الاعتقادُ عن الوالديْنَ، بحيث يتصوَّرَانِ أَنَّ مَهَمَّةَ تربيةِ الأولادِ لا تَعْدُو أن تكونَ عادةً مثلَ سائرِ العاداتِ التي لا علاقةَ لها بالأجرِ والثوابِ، فإنهما قد يُقَصِّرَانِ فيها، بل رُبَّمَا رَفَعَا الرايةَ البيضاءَ عندما يَجِدَانِ شيئًا من الصعوبةِ عند القيامِ بها.

3- استشعارُ عِظَمِ مسؤوليةِ تربيةِ الأولادِ: ينبغي على الوالديْنِ أنْ يعتقدَا أَنَّ الأولادَ أمانةٌ أَلْقَاهَا اللهُ تعالى بين أيدِيهم، وأنه سائلُهم عنها

يومَ القيامةِ: هل صَانَا هذه الأمانةَ وحَفِظَاهَا من خلالِ حُسْنِ تربيتِهم؟ أم أنهما خَانَا وضَيَّعَاهَا بسببِ التفريطِ في التربيةِ؟ فالوالدَانِ بحُكْمِ إيمانِهما باليومِ الآخِرِ، وما يكونُ فيه من سؤالِ اللهِ تعالى لهم، وما يترتَّبُ على ذلك من نعيمٍ أو عذابٍ، إذا ما اسْتَشْعَرَا مسؤوليةَ تربيةِ الأولادِ انْدَفَعَا نحوَ القيامِ بها، وبَذَلاَ في ذلك قُصَارَى جهدِهما، ووظَّفَا مُنْتَهَى علمِهما.

أما إذا غَابَتْ رُوحُ المسؤوليةِ -كما هو مُلاحَظٌ عند عددٍ مُعْتَبَرٍ من الناسِ الآنَ-، فإنه مِنَ الْمُتَوَقَّعِ أن يُهْمِلاَ هذا الجانبَ ولا يَكْتَرِثَا به، ومِنْ ثَمَّةَ يضيعُ الأولادُ. يقول اللهُ تعالى مُحَمِّلاً الآباءَ مسؤوليةَ تربيةِ وتوجيهِ أبنائِهم إلى ما فيه نَجَاتُهم في الآخرةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:06]. ويُؤَكِّدُ النبيُّ ﷺ على ذلك فيقولُ: ﴿الرجلُ راعٍ في أهلِه ومسؤولٌ عنْ رعيتِه، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عنْ رعيتِها﴾[رواه الشيخان].

بل إننا نَجِدُ في القرآنِ الكريمِ تصويرًا لعمليةِ إيقافِ الوالديْنِ يومَ القيامةِ؛ لِيُسْأَلاَ عن أولادِهما، وهذا التصويرُ تَقْشَعِرُّ له أبدانُ مَنْ أَلْقَى

السمعَ وهو شهيدٌ متأمِّلٌ متدبِّرٌ، وذلك في قولِهِ تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾[الصافات:24][1].

كما أنَّ القرآنَ صَوَّرَ لنا حالةَ الْمُقَصِّرِ في مهمةِ التربيةِ، عندما يَفِرُّ من ساحةِ الْمَحْشَرِ من أولادِهِ الذين جَنَى عليهم بتقصيرِهِ، وهذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس:33-37].

4- صلاحُ الوالديْنِ في حَدِّ ذاتِهما: إنَّ أعظمَ ما يُهْدِيهِ الوالدانِ لولدِهما صَالُحُهما وإحسانُ علاقتِهما بربِّهما؛ ذلك أنَّ مِنْ بركاتِ الصلاحِ العاجلةِ أنْ يُكْرِمَ الْمَوْلَى ﷻ العبدَ الصَّالِحَ بصلاحِ ولدِهِ، حتى تَقَرَّ به عَيْنُهُ في الدنيا والآخرةِ. كما أنَّ الوالدَ الصَّالِحَ يعطي لولدِهِ من نفسِهِ القدوةَ الحسنةَ، فيَقْتَفِي آثارَهُ الطيبةَ، ويسيرُ عليها[2].

---

[1]- هذا الآيةُ الكريمةُ مَرَّ بها بعضٌ من السلفِ في قراءتِهِ أثناءَ قيامِهِ لليلِ، فظَلَّ يُكَرِّرُهَا، ولم يستطعْ أنْ يتجاوزَهَا إلى غيرِهَا من آياتِ سورةِ الصافاتِ؛ لِمَا اسْتَوْقَفَهُ فيها من عِظَمِ المسؤوليةِ يومَ القيامةِ.

[2]- هذا هو الأصلُ، إلا أنَّ هناك استثناءاتٍ؛ ذلك أنَّ بعضَ الصالحين قد يُبْتَلَوْنَ في أولادِهم فلا يَكُونُونَ صالحين، كما هو الحالُ في قصةِ نوحٍ عليه السلام مع ابنِهِ الكافرِ الذي تَحَدَّثَ عنه القرآنُ الكريمُ بقولِهِ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ=

يقول الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾[الكهف:82]. ومَحَلُّ الشاهدِ من الآيةِ: أنَّ الغلاميْنِ انتفعَا ماديًّا -كما يمكنُ أن ينتفعًا معنويًّا- بسببِ صلاحِ والدِهما[1].

=ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[هود:42-47]. وهذا الابتلاءُ الذي يَجِدُهُ بعضُ الصالحين في أبنائِهم الطَّالِحِينَ بعد قيامِهم بواجبِ التربيةِ والتوجيهِ، سيكونُ لهم زيادةَ أجرٍ في الآخرةِ إذا ما صَبرُوا واحْتَسَبُوا. وينبغي أن نُلْفِتَ انتباهَ إخوانِنَا من المقصِّرِينَ في تربيةِ أبنائِهم ثم ينحرِفون، فيعتذِرُونَ لأنفسِهم بهذه الحالةِ الشاذةِ، نُلْفِتُ انتباهَهم إلى أنَّ اعتذارَهم ليس في محلِّهِ، ذلك أنَّ نوحًا عليه السلام قد قامَ بواجبِهِ على أحسنِ وجهٍ -لا سِيَّمَا وأنَّهُ من أُولِي العزمِ من الرسلِ- ثم ابْتُلِيَ، فيكونُ حينئذٍ معذورًا، كما أنَّ انحرافَ ولدِ نوحٍ كان انحرافًا فكريًّا عقائديًّا، ولم يَكُنْ انحرافًا أخلاقيًّا سلوكيًّا.

[1]- جاء في تفسيرِ ابنِ كثيرٍ أنَّ الأبَ المذكورَ في هذه الآيةِ ليس هو الأبُ المباشرُ، بل هو الأبُ السابعُ، فلْيَتَأَمَّلِ المسلمُ في بركةِ الصلاحِ وأثرِهِ الطيبِ على الذريةِ.

ويقول النبيُّ ﷺ: ﴿احْفَظِ اللهَ، يحفظْكَ﴾[رواه الترمذي]. أي أنَّ مَنْ حَفِظَ اللهَ بفعلِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهِيهِ، حَفِظَهُ في دينِهِ ونفسِهِ وعرضِهِ وعقلِهِ ومالِهِ وزوجِهِ وولدِهِ.

وكان سلفُنَا الصالحون يفقهون هذا المعنى جيدًا، حتى إنَّ أحدَهم قالَ لولدِهِ: "إني لأزيدُ في الصلاةِ[1]؛ رجاءَ أن يَحْفَظَنِي اللهُ فيك".

أما إذا كان العبدُ طَالِحًا يُسِيءُ في علاقتِهِ مع ربّهِ، فإنَّ مِنْ شُؤْمِ المعصيةِ العاجلِ أن يُبْتَلَى العاصي في أولادِهِ فيَكُونُونَ عاصين مُنْحَرِفِينَ. هذا إضافةً إلى أنَّهُ من خلالِ عدمِ استقامتِهِ، يُعْطِيهم من نفسِهِ القدوةَ السيئةَ.

5- الدعاءُ للأولادِ بالصلاحِ: ينبغي على الوالديْنِ أن لا يبخلاَ على ولدِهما بالدعاءِ الصالِحِ في حضورِهِ وغَيْبَتِهِ؛ ذلك أنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ عبادَهُ بالدعاءِ، ووعدَهم بالإجابةِ، قالَ ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:60].

---

[1]- يُقْصَدُ بالزيادةِ في الصلاةِ في هذا السياقِ تحسينُهَا بتطويلِ قراءتِها، والإكثارِ من التسبيحِ في ركوعِها، والدعاءِ في سجودِها، هذا إنْ كانت فرضًا؛ حتى لا يَظُنَّنَّ ظَانٌّ أنه يجعلُ الرباعيةَ خماسيةً مثلاً أو سداسيةً. أمَّا إنْ كانت الصلاةُ نفلاً، فعَلاَوَةً على ما سبقَ، فإنه يزيدُ في عددِ الركعاتِ المتنفَّلِ بها.

بل إنَّ دعاءَ الوالديْنِ لولدِهما من الأدعيةِ المستجابةِ قطعًا كما أخبرَ النبيُّ ﷺ بقولِهِ: ﴿ثلاثُ دعواتٍ يُسْتَجَابُ لهنَّ لا شكَّ فيهنَّ: دعوةُ المظلومِ، ودعوةُ المسافرِ، ودعوةُ الوالدِ لولدِهِ﴾[رواه ابن ماجة].

ولذا كان مِنْ دَأْبِ الصالحين أنهم لا يَنْسَوْنَ أولادَهم بدعائِهم، ومِنْ هؤلاء مَنْ حَكَى عنه القرآنُ الكريمُ بقولِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأحقاف:15].

6- إعطاؤُهُمُ القدوةَ الحسنةَ: إنَّ الولدَ يحتاجُ إلى مَنْ يُقَلِّدُهُ ويُحَاكِيهِ[1] في أقوالِهِ وأفعالِهِ، وعلى هذا كان لِزَامًا على والديْهِ أن يُعْطِيَاهُ القدوةَ الحسنةَ التي يَقْتَفِي آثارَهَا، ويتأثَّرُ بها إيجابًا، ويتمثَّلُ أحوالَهَا في حياتِهِ. وهنا ينبغي عليْهما أن يَعْرِفَا بأنهما أولُ مَنْ سَيَقْتَدِي بهما وَلَدُهما؛ لأنهما أقربُ الناسِ إليه على الإطلاقِ ماديًّا ومعنويًّا، ولذا يجبُ عليْهما أن يَتَحَفَّظَا في تصرفاتِهما، ويَسِيرَانِ السيرةَ الحسنةَ في جميعِ أعمالِهما.

ويأتي بعدَهما في الدرجةِ مُعَلِّمُهُ، ولذا لا بَدُّ من تَمْكِينِهِ من الدراسةِ على يَدِ معلمٍ دَيِّنٍ فاضلٍ؛ حتى يَتَقَمَّصَ شخصيتَهُ الدينيةَ والعلميةَ.

---

[1]- قلتُ: "إنَّ الولدَ يحتاجُ إلى مَنْ يُقَلِّدُهُ ويُحَاكِيهِ"؛ لأنَّهُ صغيرُ السنِّ، ضعيفُ العقلِ، قليلُ التجربةِ. ولذا نجدُ أنَّ الولدَ الْمُهْمَلَ الذي لم يُوَجَّهْ إلى تقليدِ القدوةِ الحسنةِ، يُقَلِّدُ التَّوَافِهَ من الناسِ والطَّائِشِينَ منهم، بل ربما قَلَّدَ الْفَسَقَةَ والْكَفَرَةَ.

إضافةً إلى رَبْطِهِ بالصالحين من السلفِ والْخَلَفِ[1]، وذلك بتعريفِهِ على مَنَاقِبِهم ومآثِرهم وبطولاتِهم وبصماتِهم الطيبةِ؛ حتى تكونَ له نبراسًا يَسْتَنِيرُ بِهِ. قال تعالى: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام90]. وفوقَ الجميعِ القدوةُ العظمى النبيُّ ﷺ، بحيث يُعَرَّفُ بسيرتِهِ العطرةِ التي يَجِدُ فيها محلَّ الأسوةِ في سائرِ مجالاتِ الحياةِ. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[الأحزاب:21].

7- اختيارُ الرفقةِ الصالحةِ لهم: وهذا من صميمِ واجباتِ الآباءِ تُجَاهَ أبنائِهم، أُذَكِّرُ بهذا؛ لأنَّ عددًا من الآباءِ لا يُعْنَى به أصلاً، بحيث يتركُ لهم الْحَابِلَ على الْغَارِبِ، فيَلْعَبُونَ مع مَنْ شَاءُوا، ويُجَالِسُونَ مَنْ أرادوا، ويُصَاحِبُونَ مَنْ هَبَّ ودَبَّ، وهنا مَكْمَنُ الخطرِ؛ لأنَّ الإنسانَ من طَبْعِهِ صغيرًا كان أم كبيرًا، يتأَثَّرُ بِمَنْ يُكْثِرُ مجالستَهُ ومصاحبتَهُ، فإِنْ

---

[1]- قلتُ: "من السلفِ والْخَلَفِ"؛ لأنَّ أكثرَ الناسَ -على ما أُلاَحِظُ- يُرَكِّزُونَ عند عَرْضِ الْقُدْوَاتِ على سلفِنَا الصالحين، ولا ضَيْرَ في الكلامِ عنهم، فَهُمْ أهلٌ لذلك؛ فَقَدْ جعلَهم اللهُ تعالى للمتقين أئمةً. ولكنِ الإشكالُ أن نَضْرِبَ صَفْحًا عن الصالحين والناجحين من المعاصِرين الذين مَاتُوا قريبًا، أو مِمَّنْ ما زَالُوا على قيدِ الحياةِ، فهؤلاءِ أَجْدَرُ بأَنْ نُقَدِّمَهم قدواتٍ لأبنائِنَا؛ لِتَشَابُهِ الظروفِ الْمَعِيشِيَّةِ بيننا وبينهم، وبذلك نَسُدُّ على الشيطانِ بابَ التلبيسِ عليهم عندما يقول لهم: إنَّ السلفَ عَاشُوا في أزمنةٍ لها خاصيَّتُهَا، ولذا شَتَّانَ بينكم وبينهم، فهم لا يَصْلُحُونَ قدواتٍ لكم.

كان صالِحًا تأثَّرَ به إيجابًا، وإنْ كان طالِحًا تأثَّرَ به سَلْبًا. وهذا ما قَرَّرَهُ النبيُّ ﷺ عندما قالَ: ﴿الرجلُ على دينِ خليلِهِ، فلْينظرْ أحدُكم مَنْ يُخَالِلُ﴾[رواه الترمذي وأبو داود].

وأريدُ أنْ أُنَبِّهَ في هذا المقامِ إلى أنَّ المقصودَ بالرفيقِ ليس فقط ما تعلَّقَ بالأشخاصِ، بل يَتَعَدَّاهُ إلى ما يتعلَّقَ بالوسائلِ والتقنياتِ؛ إذ إنَّ أولادَنَا اليومَ يُصَاحِبُونَ التلفازَ أو الحاسوبَ وأمثالَهما من الوسائلِ والتقنياتِ الحديثةِ كثيرًا، ويَقْضُونَ معها أوقاتًا مُعْتَبَرَةً، ومعلومٌ أنها سلاحٌ ذو حَدَّيْنِ، ولذا وَجَبَ توجيهُهم إلى ما يُشَاهِدُونَ وما يَسْمَعُونَ، وما لا يليقُ أن يُشَاهِدُوهُ أو يَسْمَعُوهُ، مع مراقبتِهم في ذلك بطريقةٍ لا يَشْعُرُونَ من خلالِها أنهم تحت الرقابةِ.

8- الاطلاعُ على الطريقةِ الْمُثْلَى في التربيةِ: تقولُ الحكمةُ: "إنَّ فاقدَ الشيءِ لا يُعْطِيهِ"؛ ولذا فإنَّ الوالديْنِ إذا لم يكونَا على علمٍ بالطريقةِ الْمُثْلَى المناسبةِ لعصرِهما في تربيةِ أولادِهما، فإنهما في الأغلبِ سَيَفْشَلاَنِ في مَهَمَّتِهِمَا. وبناءً على هذا، فإنَّهما مطالبانِ شرعًا بقراءةِ كتابٍ في الموضوعِ[1]، أو حضورِ دورةٍ تكوينيةٍ، أو سماعِ محاضراتٍ مسجديةٍ أو متلفزةٍ أو على أثيرِ الإذاعةِ، أو الاستفادةِ من التجاربِ

---

[1]- أُرَشِّحُ للقراءةِ كتابَ: "تربيةُ الأولادِ في الإسلامِ" للشيخ: "عبد الله ناصح علوان" -رحمه الله-؛ فهو مِنْ أحسنِ ما قرأتُ في هذا الموضوعِ. وللعلمِ، فإنَّ هذا الكتابَ موجودٌ كاملاً في نسخةٍ صوتيةٍ -ليست بصوتِ الشيخِ-، يُمْكِنُ الاستفادةُ منها مع القراءةِ في النسخةِ المكتوبةِ.

الناجحةِ في التربيةِ مِمَّنْ يعرفانِ أو مِمَّنْ تُتَاحُ لهما فرصةُ الالتقاءِ بهم. وهذا الاطلاعُ مطلوبٌ شرعًا على سبيلِ الوجوبِ؛ لأنَّ القاعدةَ الشرعيةَ تقولُ: "ما لا يَتِمُّ الواجبُ إلا به، فهو واجبٌ"، ومعلومٌ أنَّ تربيةَ الأبناءِ تربيةً سليمةً واجبٌ شرعًا، وبِمَا أنَّ القيامَ بهذا الواجبِ لا يُتَصَوَّرُ إلاَّ بالاطلاعِ على الطريقةِ الْمُثْلَى له، فيكونُ هذا الاطلاعُ عندئذٍ واجبًا.

أُذَكِّرُ بهذا؛ لأنَّ أكثرَ الآباءِ في هذا الزمانِ مِمَّنْ أعرفُ -إلا مَنْ رحمَ ربِّي-، لا يُعْنَى بهذا الجانبِ، فيدخلُ عالَمَ التربيةِ دون أن يتسلَّحَ بالمعرفةِ الكافيةِ لطُرُقِهَا وأسالِيبِهَا، فيجعلُ بذلك أبناءَهُ حقلَ تجاربٍ، عندما يسيرُ في تربيتِهم بدونِ معالِمَ واضحةٍ.

وختامًا، أقول لكل والدِ ووالدةِ: إننا لا نريدُ منهما أن يكونَا خادميْنِ للأولادِ، ولكن نريدُ منهما أن يكونَا مُرَبِّيْنِ لهم. أقولُ هذا؛ لأنَّ بعضَهم -إنْ لم نَقُلِ الأكثرَ في هذا الزمانِ- يتصوَّرُ أنَّ واجبَهُ تُجَاهَ أبنائِهِ ينتهي عند مُجَرَّدِ توفيرِ الأكلِ والشربِ واللباسِ والمسكنِ والعلاجِ والنظافةِ لهم. فهذا كلُّهُ وإنْ كان مطلوبًا من الناحيةِ الشرعيةِ، ويُؤْجَرُ عليه الأبوان، ويأْثَمَانِ في حالِ التفريطِ فيه، ولذا قال النبيُّ ﷺ: ﴿كَفَى بالمرءِ إِثْمًا أنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتَ﴾[رواه مسلم]. إلا أنَّ هذا كُلَّهُ يُعْتَبَرُ خدمةً لهم لا تربيةً؛ لأن التربيةَ تَرْتَكِزُ على تلقينِ الدينِ الصحيحِ بعقائدِهِ وعباداتِهِ، وكذا الأخلاقِ الفاضلةِ، والعاداتِ الحسنةِ. ومِنْ هنا ينبغي أنْ نعرِفَ خطأَ تلك المقولَةِ التي نسمعُها من بعضِهم -هداهم

اللهُ وسامَحَهم-: إذا وَفَّرْنَا لأبنائِنا الطعامَ والشرابَ ونحوَهما من الماديات فنحن على أحسنِ حالٍ. والصوابُ: أنَّ مهمةَ التربيةِ الحقيقيةِ تبتدئُ بعد توفيرِ ذلك، وإلا كنتُمْ على حالٍ لا تُحْسَدُونَ عليها.

وفي الأخير، لا أَمْلِكُ إلاَّ أنْ أرفعَ كَفَّ الضَّرَاعَةِ إلى اللهِ تعالى سائلاً إيَّاهُ أنْ يُوَفِّقَ جميعَ الآباءِ والأمهاتِ إلى تربيةِ أبنائِهم التربيةَ السليمةَ، كما أسألُهُ أنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ، وَأن يَجْعَلَنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً، وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

المحاضرة الرابعة

بعضٌ من أخلاقِ المسلمِ مع إخوانِهِ من خلالِ سورةِ الحجراتِ[1]

إنَّ المتأملَ في مضمون سورةِ الحجراتِ يجدها تدعو المسلمَ إلى التحلي بمجموعةٍ من الآدابِ الساميةِ والأخلاقِ الفاضلةِ، التي مِنْ شأنها أن تبنِيَ المجتمعَ الإسلاميَّ على أسسٍ متينةٍ، وتُشِيعَ فيه الأخوةَ والتماسكَ فيما بين أفرادِهِ، حتى إنه يَصِحُّ لنا أن نصفَ هذه السورةَ بأنها سورةُ الآدابِ والأخلاقِ. وفيما يأتي عرضٌ موجزٌ لأهمِّ تلك الآدابِ والأخلاقِ:

1- التَّثَبُّتُ في الأخبارِ: إن الأخبارَ في كثيرٍ من الأحيانِ تترتبُ عليها أمورٌ عِظَامٌ، وقراراتٌ مهمةٌ، لذا كان الواجبُ على المسلمِ أن يتبيَّنَ ويتثبَّتَ قبل أن يتصرفَ بناءً على تلك الأخبارِ، لا سِيَّمَا إذا كان ناقلوها غيرَ عدولٍ، أو مشكوكًا في عدالتِهِمْ. فهو يتريَّثُ ويتحقَّقُ قبل اتخاذِ القراراتِ، ولا يَجْرِي وراءَ كلِّ شائعةٍ وشاردةٍ وواردةٍ.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[الحجرات:6].

---

[1]- هذه المحاضرةُ فيها اقتباسَاتٌ من بحثٍ منشورٍ على الشبكةِ العنكبوتيةِ للدكتور "وسيم فتح الله" بعنوان: "آدابُ وضوابطُ المجتمعِ الإسلاميّ من خلالِ سورةِ الحجراتِ".

ولا بُدَّ من أن ننظرَ في سببِ نزولِ هذه الآيةِ المتعلقةِ بالتثبتِ في الأخبارِ؛ لندركَ خطورةَ ما قد يترتَّبُ على الإخلالِ بهذا الخلقِ. فقد وردت عدةُ رواياتٍ -مع ملاحظةِ ضعفِهَا، وتنوعِ سياقاتِهَا- تفيدُ أنها نزلتْ بسببِ الوليدِ بنِ عقبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ ﵁ وما افتراه على بني المصطلق مِنْ حَبْسِهم الزكاةَ عن رسولِ اللهِ ﷺ، حتى أرسلَ النبيُّ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ إليهم بَعْثَهُ، وكادوا يقاتلونهم على منع الزكاةِ، لولا أن سيدَهم الحارثَ بنَ ضِرَارٍ ﵁ استقبلَ بَعْثَ رسولِ اللهِ ﷺ، وبيَّن لهم الأمرَ، وأنهم استبطَأُوا جَابِيَ الزكاةِ، فجَلاَ الأمرُ وتبيَّنَ.

وفي الآيةِ نكتةٌ دقيقةٌ، وهي أن أمرَ اللهِ تعالى بالتبيُّنِ والتثبُّتِ في خبرِ الفاسقِ، يدلُّ على عدمِ إهمال خبرِهِ مطلقاً، فلا يُقَالُ: خبرُ فاسقٍ لا يُؤْبَهُ له؛ إذ ربما فوَّتَ ذلك على المسلم مصلحةً ما قد تكون حقيقيةً.

وقد ضبطتِ الآيةُ الهدفَ من التبيُّنِ وعَلَّلَتْهُ بالحذر من الوقوع في المفاسد التي منها إصابةُ قومٍ من المسلمين بجهالةٍ وسوءِ ظنٍّ، وما يترتَّبُ على ذلك من ندمٍ.

2- عدمُ السخريةِ من الآخَرِين: يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَّكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَّكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الحجرات:11]. فالآيةُ تقرِّرُ أنَّ السخريةَ -وهي ازدراءُ الآخَرِين واحتقارُهم والاستهزاءُ بهم- سلوكٌ شائنٌ يُعَكِّرُ على أفراد

المجتمعِ المسلمِ صَفْوَ علاقتِهم، ويُكَدِّرُ صفاءَ مبادئِهم؛ فلا يُسَلِّمُ الاعتقادُ بأفضليةِ المسلمِ وتساوِيهِ في الحقوقِ مع أخيه المسلمِ مع الاستهزاءِ به والسخريةِ منه، فكان لا بُدَّ من توجيهٍ قرآنِيٍّ يُلْفِتُ الانتباهَ إلى أصلِ الرابطةِ الإيمانيةِ المشتركةِ بين المسلمين، ولذا صُدِّرَتِ الآيةُ بالنداء بوصفِ الإيمانِ.

ونلاحِظُ إفرادَ النساءِ عن الرجال في النهي عن السخريةِ؛ وذلك لكثرةِ وقوعِهَا منهن، فكان عطفهن على القوم -وإن كُنَّ داخلاتٍ فيهم أصلاً- من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لبيان شدةِ الاهتمامِ بنهيِهِنَّ عن هذا السلوكِ.

والسخريةُ منافيةٌ لخلق المسلمِ؛ لأنَّ فيها استعلاءً بغير حق، فذلك الذي يُسْخَرُ منه لأمرٍ دنيويٍّ، قد يكون خيراً من الذي سَخِرَ منه بالمعيار الشرعيِّ، فيكون استعلاؤُهُ عليه تقديمٌ لأمرِ الدنيا على أمرِ الآخرةِ، وتقديمٌ لهوى النفسِ على معيارِ الشرعِ.

ثم نَهَتِ الآيةُ عن صورتيْنِ من صُوَرِ السخريةِ هما: اللَّمْزُ -وهو أن يَعِيبَ الواحدُ الآخَرَ-، والتنابزُ بالألقابِ -وهو أن يُنَادِيَ الواحدُ الآخَرَ بلقبٍ يكرهُ أن يُنَادَى به-.

ولقد نفَّرت الآيةُ الكريمةُ من هذه الخصالِ القبيحةِ بوصفِ مَنْ تَلَبَّسَ بها بالفسوقِ -وهو الخروج عن طاعة اللهِ تعالى-، وبَيَّنَتْ أنه لا يليقُ بِمَنْ منَّ اللهُ عليه بوصفِ الإيمانِ أن يَعْدِلَ عنه إلى وصفِ الفسوقِ.

3- عدمُ إساءةِ الظنِّ بالمؤمنين، أو التجسُّسِ عليهم، أو اغتيابِهم: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات:12].

إنَّ مِنَ الخطأِ أن يَتَّهِمَ المسلمُ أخاه المسلمَ ويخوِّنَهُ، وما ذلك إلا إثمٌ مَحْضٌ حَرِيٌّ بالمسلم أن يجتنبَهُ ويترفَّعَ عنه. ولما كانت كثرةُ الظنونِ مفضيةً إليه، جاءت الآيةُ بالتوجيه الربانِيِّ، لِتَأْمُرَ المؤمنين باجتناب الظنِّ احتياطاً؛ لاحتمالِ التهمةِ في غير محلِّهَا، وما ذاك التحفُّظُ والاحتياطُ إلا لِعِظَمِ حرمةِ المسلمِ، وشدةِ قُبْحِ هذه الرذيلةِ. فنَاسَبَ أن يأتِيَ أسلوبُ التعبيرِ بالاجتناب الكليِّ؛ لأنَّ مَنْ جَرَى مع ظنونِهِ، واسترسلَ معها، أوصلتْهُ إلى ما لا يُحْمَدُ عقباه، مِمَّا يأثمُ به حَتْماً.

ثم جاء النهيُ في الآيةِ عن التجسسِ -وهو تَتَبُّعِ عوراتِ الآخَرِين-؛ لأنَّ المرءَ لا يقومُ بالتجسسِ على غيرِهِ عادةً، إلا عندما يَتَّهِمُهُ ويُسِيءُ الظنَّ به، فنَاسَبَ والحالُ كذلك أن يكونَ الترتيبُ في النهي عن سوءِ الظنِّ أولاً، ثم عن التجسسِ ثانيًا.

ثم خَتَمَتِ الآيةُ بالنهي عن الْغِيبَةِ -وهي ذِكْرُ الأخِ في غيابِهِ بما يَكْرَهُ-، ولقد جاءت الآيةُ بصورةٍ شديدةِ التنفيرِ من هذه الرذيلةِ الاجتماعيةِ؛ فشَبَّهَتْ غِيبَةَ الرجلِ أخاه بأَكْلِ لحمِهِ ميتاً. ولهذا التشبيهِ أوجهٌ عدةٌ بين المشبَّهِ والمشبَّهِ به:

- أولها: أن الذي يُغتاب لا يعلم أنَّ أخاه يغتابُهُ، تماماً كما أنَّ الميتَ لا يعلم مَنْ يأكلُ لحمَهُ.

- وثانيها: أنَّ الذي يَغتاب أخاه الحيَّ قد هَتَكَ حرمةَ أخيه، تماماً كما أنَّ آكِلَ لحمِ أخيه ميتاً قد هَتَكَ حرمتَهُ.

- وثالثها: أنَّ الغيبةَ أمرٌ مستقذَرٌ في الطبائع السليمةِ، تماماً كما أنَّ أكلَ لحمِ الميتِ أمرٌ مستقذَرٌ طبعًا.

أسأل اللهَ جلَّ وعلا أن يجعلنا من الذين يتثبَّتون عند سماعِ الأخبارِ، ومن الذين يتريَّثون في اتخاذِ القراراتِ، ومن الذين يجتنبون السخريةَ بغيرهم، وإساءةَ الظنِّ بهم، والتجسسَ عليهم، واغتيابَهم. اللهمَّ أَلِّفْ بين قلوبِ المسلمين، وأَصْلِحْ ذاتَ بينهم، واهْدِهِمْ سُبُلَ السلامةِ في الدنيا والآخرةِ. وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدِ لله ربِّ العالمين.

المحاضرة الخامسة

دعوة الآباء إلى تعليم أبنائهم القرآن الكريم

مِنَ المسؤولياتِ التي أَنَاطَها الشارعُ الحكيمُ بالوالديْن ترغيبُ أولادِهم في العناية بكتاب الله تعالى، خاصة ما تعلَّق بحفظِهِ وجمعِهِ في الصدرِ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿الرجلُ راعٍ في أهلِه ومسؤولٌ عنْ رعيتِه، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عنْ رعيتِها﴾[رواه الشيخان]. وجاء في الأثرِ:"أَدِّبُوا أولادَكم على ثلاثِ خصالٍ: حبُّ نبيِّكم، وحبُّ أهلِ بيتِهِ، وقراءةُ القرآنِ؛ فإنَّ حملةَ القرآنِ في ظلِّ اللهِ يومَ القيامةِ يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظلُّه مع أنبيائِه وأصفيائِه".

إلا أنه لا بُدَّ من التنبيهِ إلى ضرورةِ تمكينِ الولدِ من حفظِ كتابِ اللهِ تعالى على يد معلِّمٍ ثقةٍ علميًّا وأخلاقيًّا وتربويًّا، بمعنى: ينبغي أن لا يأخذَ الولدُ القرآنَ من المصحف مباشرةً دون تلقِّيه من شيخٍ، وهذا الشيخُ يُشترط فيه أن يكون متقنًا لحفظِ القرآنِ وتلاوتِهِ؛ حتى يتلقَّاهُ عنه الولدُ غضًّا طريًّا كما أُنزل، وأن يكونَ معروفاً بحُسْنِ السلوكِ والأخلاقِ؛ حتى يتأثرَ به الولدُ إيجابًا، وأن يكونَ عارفًا بالطُّرُقِ التعليميةِ والتربويةِ الْمُثلى؛ حتى يُوصِلَ الرسالةَ إلى الولدِ على أحسنِ الوجوهِ.

ولعلَّ سائلاً يسألُ فيقولُ: ما فائدةُ تعليمِ الأولادِ القرآنَ وتحفيظِهم إيَّاهُ؟ والجوابُ المختصَرُ عن هذا السؤالِ يكونُ كالآتي: إنَّ الولدَ إذا عُنِيَ بالقرآنِ الكريمِ منذ صغرِهِ، يكونُ القرآنُ مُبَارَكًا عليه في الدنيا والآخرةِ:

- فمِنْ بركاتِهِ عليه في الآخرةِ:

1- الحصولُ على الأجرِ العظيمِ الذي يملأُ صحيفةَ الحسناتِ: يقول النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ قرأَ حرفًا مِنْ كتابِ اللهِ فلهُ بهِ حسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقول "ألم" حرفٌ، ولكن: أَلِفٌ حرفٌ، ولاَمٌ حرفٌ، ومِيمٌ حرفٌ﴾[رواه الترمذي].

2- الفوزُ بشفاعتِهِ ساعةَ الحسابِ: يقول النبيُّ ﷺ: ﴿اقْرَؤُوا القرآنَ؛ فإنه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابِهِ﴾[رواه مسلم].

3- الظفرُ بالدرجةِ العاليةِ في الجنةِ: يقول النبيُّ ﷺ: ﴿يُقَالُ لصاحبِ القرآنِ: اقرأْ، وارْتَقِ، ورتِّلْ كما كنتَ ترتلُ في الدنيا؛ فإنَّ منزلَكَ عند آخرِ آيةٍ تقرؤُها﴾[رواه الترمذي وأبو داود والنسائي].

- ومِنْ بركاتِهِ عليه في الدنيا:

1- هدايةُ صاحبِهِ إلى سبيلِ الصوابِ والرشادِ: يقولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[الإسراء:09-10].

2- الظَّفَرُ بالصحةِ والعافيةِ في الجسدِ، والراحةِ والطمأنينةِ في النفسِ: يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً﴾[الإسراء:82].

3- التمكُّنُ من اللغةِ العربيةِ نطقًا وإملاءً ورصيدًا من حيث الكلماتُ والمصطلحاتُ: ذلك أنَّ القرآنَ مصدرٌ أساسٌ من مصادرِ اللغةِ العربيةِ، يقولُ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:02].

وجَدِيرٌ بي في هذا المقامِ أنَ أكونَ عمليًّا، فأَضَعَ بين يديْ إخواني وأخواتي من الآباءِ والأمهاتِ وكذا مُعَلِّمِي القرآنِ الكريمِ بعضًا مِنَ الوسائلِ التي تُعِينُهم على تحفيظِ أبنائِهم وتلاميذِهم كتابَ اللهِ تعالى:

1- حَمْلُهُ إلى حلقاتِ تحفيظِ القرآنِ الكريمِ وهو صغيرٌ لِيَرَى عمليةَ الحفظِ؛ حتى نُرَسِّخَ في ذهنِهِ منذ نعومةِ أظفارِهِ أن هناك مشروعًا ينتظرُهُ اسمُهُ "حفظُ القرآنِ الكريمِ".

2- جَعْلُهُ يَشْهَدُ حفلاتِ توزيعِ الجوائزِ على الحفظةِ واقعيًّا أو تلفزيونيًّا؛ وهذا مِن شأنِهِ أن يجعلَهُ يتطلَّعُ إلى أن يكونَ في مكانِ أولئك الْمُكرَّمِينَ ذاتَ يومٍ، بعد أن يُعْنَى بكتابِ اللهِ تعالى، ويُوَفَّقَ إلى حفظِهِ.

3- إِلْزَامُهُ بالتعامل مع مصحفٍ من طبعةٍ واحدةٍ مناسبةٍ تُخْتَارُ بعنايةٍ؛ لأنَّ توحيدَ النسخةِ التي يَحْفَظُ ويراجِعُ منها، يجعلُ كلماتِهَا وآياتِهَا وصفحاتِهَا مرسومةً في ذهنِهِ، مَاثِلَةً بين عينيْهِ، يستحضرُهَا حين

الاستظهارِ. وبما أننا جزائريُّون، فإنَّهُ مِنَ المفترَضِ أن تكونَ النسخةُ المختارةُ بروايةِ ورشٍ عن نافعٍ؛ مسايرةً للروايةِ والقراءةِ المنتشرتيْنِ في بلادِنَا، كما ينبغي أن تكونَ من طباعةٍ محليةٍ مُتَدَاوَلَةٍ؛ حتى يَسْهُلَ عليه مستقبلاً اقتناؤُهُا متى أرادَ ذلك.

4- تَهْيِئَةُ المكانِ المناسبِ للحفظِ والمراجعةِ، بحيث يكونُ بعيدًا عن كلِّ ما من شأنِهِ من سائرِ الْمَرْئِيَّاتِ والمسموعاتِ أن يُشَوِّشَ عليه ويُشَتِّتَ ذهنَهُ.

5- الثناءُ عليه عند حفظِ قِسْطِهِ اليوميِّ من القرآنِ الكريمِ؛ لأنَّ ذلك مِمَّا يبعثُ فيه روحَ التفاؤلِ والأملِ، ويدفعُهُ إلى مواصلةِ دربِ الحفظِ الذي فيه ما فيه من المشقةِ والطولِ.

6- معاتبتُهُ أو عقوبتُهُ عند تقصيرِهِ في الحفظ بطريقةٍ تربويةٍ مناسبةٍ[1]؛ وحينها يُدْرِكُ بأنه مراقَبٌ من قِبَلِ وليِّهِ الذي تأثَّرَ لتعثُّرِهِ في المرَّةِ المعيَّنَةِ، فيدفعُهُ هذا الأمرُ إلى الاستدراكِ، وعدمِ تكرارِ ما كانَ منه.

[1]- قلتُ: "بطريقةٍ تربويةٍ مناسبةٍ"؛ لأنَّ بعضَهم بحُسْنِ نيةٍ يُقَرِّعُ ويُعَنِّفُ ابنَهُ عند تقصيرِهِ، فيَصِفُهُ بالحيوانِ، أو الغباءِ، أو يضربُهُ ضربًا مُبَرِّحًا، بحيث يَصْفَعُ وجهَهُ، أو يخدِشُ لحمَهُ، أو يَكْسِرُ عظمَهُ، فتكونُ النتيجةُ -في الغالبِ- على عكسِ المقصودِ؛ إذ إنَّ الولدَ يزدادُ كُرْهًا ونفورًا من هذا المشروعِ المبارَكِ؛ بسببِ قساوةِ والدِهِ عليه.

7- تكريمُهُ عند حفظِهِ لجزءٍ مُعْتَبَرٍ[1] من القرآنِ الكريمِ، ومِمَّا يُذْكَرُ عن سلفِنَا في هذا المضمارِ أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهم كان كُلَّمَا حَفِظَ حديثًا أعطاهُ والدُهُ درهمًا، حتى أصبحَ بعد ذلك من علماءِ زمانِهِ.

8- عدمُ تكليفِهِ بحفظِ ما هو فوقَ طاقتِهِ؛ لأنَّ قدراتِ الأولادِ على الحفظِ مختلفةٌ، فبعضُهم تكونُ حافظتُهُ قويةً، والبعضُ الآخَرُ تكونُ حافظتُهُ متوسطةً أو ضعيفةً، ولذا لا يُعْقَلُ أن نتعاملَ مع هذه الحالاتِ المختلفةِ بطريقةٍ واحدةٍ، أو أن ننتظرَ من الجميعِ نتيجةً واحدةً.

9- فَتْحُ بابِ التنافسِ بينه وبين إخوانِهِ وزملائِهِ؛ ذلك أنَّ التنافسَ يَشْحَذُ الهممَ، ويُقَوِّي العزائمَ، ولا شكَّ أنَّهُ مِمَّا يدخلُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[المطففين:26].

10- جَعْلُ فترةٍ للراحةِ له في اليومِ والأسبوعِ والسنةِ؛ فالصغيرُ مَيَّالٌ بطبعِهِ إلى اللعبِ والْمَرَحِ، وجسدُ الإنسانِ عمومًا يُصَابُ بالإرهاقِ والتعبِ، فيحتاج إلى الراحةِ والاستجمامِ، ولذا ينبغي أن لا يُحْرَمَ

---

[1]- فالصغيرُ المبتدِئُ يُكَرَّمُ مثلاً كلما حفظَ حزبًا، إلى أن يُتِمَّ ربعَ القرآنِ، وثَمَّةَ يكونُ التكريمُ أكبرَ. وبعد ذلك يُكَرَّمُ عند إتمامِ كلِّ ربعٍ من الأرباعِ الثلاثةِ الباقيةِ، على أن يكونَ التكريمُ النهائيُّ عند الختمِ مناسبًا للمقامِ العظيمِ الذي بَلَغَهُ. نُؤَكِّدُ على هذا؛ لأنَّ بعضًا من الآباءِ لا يكترثُ بولدِهِ وهو يَشُقُّ طريقَهُ في حفظِ كتابِ اللهِ. فالولدُ من حزبٍ إلى حزبٍ، ومن ربعٍ إلى ربعٍ، إلا أنَّ الوالدَ لا يبالي بذلك، فيؤثِّرُ هذا الإهمالُ في الولدِ سَلْبًا، فتنهارُ عزيمتُهُ، وينقطعُ عن الحفظِ.

الولدُ من حقِّهِ في اللعبِ والراحةِ، بل إنه عندما يُمَكَّنُ من ذلك يعودُ إلى مسيرةِ حفظِهِ بنَفَسٍ جديدٍ قويٍّ.

11- تعريفُهُ بفضائلِ القرآنِ الكريمِ وحَفَظَتِهِ، وبيانُ فضلِ بعضِ الآياتِ والسُّوَرِ؛ لأنه عندما يُعَرَّفُ بذلك تنشرحُ نفسُهُ، وتتطلَّعُ إلى الحفظِ لتحصيلِ تلك الفضائلِ. فلو أنَّهُ ذُكِّرَ مثلاً بقولِ النبيِّ ﷺ: ﴿اقْرَؤُوا سورةَ البقرةَ؛ فإنَّ أَخْذَهَا بركةٌ، وتَرْكَهَا حسرةٌ، ولا تستطيعُهَا الْبَطَلَةُ[1]﴾[رواه مسلم]، فإنه سوف يندفعُ إلى حفظِ هذه السورةِ، ويَسْتَبْسِطُ كلَّ ما يجدُهُ من عناءٍ أثناء حفظِهَا؛ حتى ينالَ فضلَهَا العظيمَ.

12- ذِكْرُ ما في القرآنِ الكريمِ من قَصَصٍ بطريقةٍ تُنَاسِبُ مُسْتَوَاهُ العقليّ والعلميّ. فمعلومٌ أنَّ القرآنَ قد اشتملَ على عددٍ كبيرٍ من القصصِ، وأنَّ القصصَ مُحَبَّبٌ إلى النفسِ، ولذا عندما تُقَصُّ القصةُ المعيَّنَةُ على الطفلِ، ثم يُحَالُ على موضعِهَا من كتابِ اللهِ تعالى، فإنَّهُ حينئذٍ ستنفتحُ شهيةُ حفظِهِ لتلك السورةِ أو ذلك الجزءِ المشتمِلِ على القصةِ التي تفاعلَ معها.

13- العنايةُ به من حيثُ مراجعتُهُ للمحفوظِ، وتَمْيِيزُهِ للمتشابهاتِ[2] من كلماتِ وآيِ القرآنِ الكريمِ. روى أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه عن

---

[1]- الْبَطَلَةُ: السَّحَرَةُ.

[2]- من أمثلةِ المتشابهاتِ المقصودةِ في هذا السياقِ: قولُهُ تعالى: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾[التوبة:100]، فإنَّ هذه الآيةَ مستثناةٌ من سائرِ آياتِ القرآنِ التي=

النبيّ ﷺ قولَهُ: ﴿تَعَاهَدُوا القرآنَ؛ فوَالذِي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لَهُوَ أشدُّ تَفَلُّتًا من الإبلِ في عَقْلِهَا﴾[رواه مسلم].

14- إبعادُهُ عن مواطنِ المعاصي، وتعويدُهُ على الطاعاتِ؛ لأنَّ المعصيةَ تَحْجُبُ عليه الفهمَ والاستيعابَ، وتُعَسِّرُ عليه عمليةَ الحفظِ والاستظهارِ. ولذا قَرَنَ اللهُ تعالى في كتابه العزيزِ بين التقوى والعملِ الصالحِ وبين الْفَتْحِ على العبد في العلومِ والمعارفِ. فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:282][1].

ويُرْوَى عن بعضِ السلفِ قولُهم: "ما نَسِيَ أحدٌ القرآنَ إلاَّ بسببِ ذنبٍ أَذْنَبَهُ".

15- تحذيرُهُ من الْعُجْبِ والاغترارِ بالذَّاتِ؛ لأنَّ هذا المرضَ النفسيَّ يُذْهِبُ بركةَ الحفظِ، فلَرُبَّمَا عُوقِبَ صاحبُهُ فنُسِّيَ ما حفظَهُ من القرآنِ

=في جميعِهَا كلمةُ "مِنْ"، كما في قولِهِ تعالى: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[البروج:11].

[1]- مِنْ لطائفِ سلفِنَا الصالحين التي تُذْكَرُ في هذا الْمقامِ، ما وَقَعَ للشافعيّ -وقد كان يَحْفَظُ ما يَقْرَأُهُ لأولِ وَهْلَةٍ- أنه لَمَّا تَعَسَّرَ عليه يومًا حِفْظُ وِرْدِهِ المعتادِ من العلمِ، شَكَا أمرَهُ إلى شيخِهِ وَكِيعٍ، فاستنطقَهُ الشيخُ، فإذا به يُقِرُّ بأنَّ عَيْنَهُ قد وَقَعَتْ على امرأةٍ أجنبيةٍ عنه، فرأى منها بعضًا مِمَّا لا يَحِلُّ له، فبَيَّنَ له الشيخُ أنَّ تلك النظرةَ المحرمةَ هي التي شَوَّشَتْ عليه في حفظِهُ وعَسَّرَتْهُ عليه، فأَنْشَدَ الشافعيُّ قائلاً:

شَكَوْتُ إلى وَكِيعٍ سوءَ حِفْظِي　　　فأرشدَنِي إلى تَرْكِ المعاصي

وأخبرَنِي بأنَّ العلمَ نُورٌ　　　ونُورُ اللهِ لا يُهْدَى لعاصي

الكريمِ، لا سِيَّمَا وأنَّه قد يدفعُهُ الإعجابُ والغرورُ الزائدُ بنفسِهِ إلى عدمِ المراجعةِ، ومِنْ ثَمَّةَ يتبخرُ محفوظُهُ بعدَ مدةٍ من الزمنِ، عادةً ما تكونُ قصيرةً.

16- الدعاءُ له بالحفظِ في حَضْرَتِهِ وغَيْبَتِهِ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿ثلاثُ دعواتٍ يُسْتَجَابُ لهنَّ لا شكَّ فيهنَّ: دعوةُ المظلومِ، ودعوةُ المسافرِ، ودعوةُ الوالدِ لولدِهِ﴾[رواه ابن ماجة]. ويُذْكَرُ عن شيخِ المقرِئينَ ابنِ الْجَزَرِيِّ أنَّ والدَهُ لَمَّا تَزَوَّجَ شَرِبَ مِنْ ماءِ زَمْزَمَ ودَعَا لنفسِهِ بأولادٍ صالحين حفظةٍ لكتابِ اللهِ تعالى، فكان له ما أَرَادَ.

وأَخْتِمُ بالقولِ: إنَّ مَنْ أراد مِنَ الآباءِ أن تَقَرَّ عينُهُ بِبِرِّ أبنائِهِ له، فلْيُقْرِئْهُمُ القرآنَ؛ فإنهم سيتأدَّبون بآدابِهِ التي منها بِرُّ الوالديْنِ، يقول سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[لقمان:14]. وإذا لم يُقْرِئْهِمُ القرآنَ، فلا يَلُومَنَّ إلا نفسَهُ عندما يَجِدُ منهم عقوقًا -لا قَدَّرَ اللهُ-. ومِمَّا يُؤْثَرُ عن عمرَ بنِ الخطابِ ﷺ في هذا المعنى أنَّ رجلاً شَكَا إليه عقوقَ ولدِهِ، فأحضرَ عمرُ الولدَ وأنَّبَهُ على ذلك، فقال الولدُ: "يا أميرَ المؤمنين، أليس للولدِ حقوقٌ على أبيه؟" قال: "بلى". قال: "فما هي يا أميرَ المؤمنين؟" قال: "أن يَنْتَقِيَ له أمَّهُ، ويُحْسِنَ اسمَهُ، ويُعَلِّمَهُ الكتابَ". قال: "يا أميرَ المؤمنين، إنَّ أبي لم يفعلْ شيئًا مِنْ ذلك؛ أمَّا

أمِّي فإنها زنجيةٌ كانت لمجوسيٍّ، وقد سَمَّانِي جُعَلاً[1]، ولم يُعَلِّمْنِي من الكتابِ حرفًا". فالْتَفَتَ عمرُ إلى الرجلِ وقال له: "جئتَ تشكُو عقوقَ ابْنِكَ، وقد عَقَقْتَهُ قبل أن يَعُقَّكَ، وأسأتَ إليه قبل أن يُسِيءَ إليك".

أسألُ اللهَ العليَّ الكبيرَ أن يُعيننا على تعليمِ القرآنِ لأبنائنا؛ حتى تَقَرَّ بهم أعينُنا في الدنيا وفي الآخرة؛ إنه على ذلك قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ، إنه نعم المولى ونعم النصيرُ، وآخِرُ دعوانا أَنِ الحمد لله رب العالمين.

---

[1]- الْجُعَلُ هو الخنفساءُ.

المحاضرة السادسة

دعـــوةٌ إلى قيـــامِ الليـــلِ [1]

إنَّ مِنْ أعظمِ العباداتِ التي يُمْكِنُ أن يتقربَ بها المسلمُ إلى ربِّهِ: قيامُ الليلِ بالصلاةِ وتلاوةِ القرآنِ الكريمِ والذكرِ والدعاءِ. ولذا فإننا نجدُ النصوصَ الشرعيةَ تدعو إليه. يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾[الفرقان:64]. فهذه الآيةُ الكريمةُ جاءت في سياقِ تعدادِ صفاتِ عبادِ الرحمنِ الذين أَعَدَّ اللهُ تعالى لهم في الآخرةِ المنازلَ الرفيعةَ في الجنةِ يستقرُّون فيها ويُقِيمُونَ، ولذا قال جلَّ وعلاَ عَقِبَ الانتهاءِ من تعدادِهَا: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا

[1]- مِنَ الأفضلِ أن يُثَارَ هذا الموضوعُ في أعقابِ شهرِ رمضانَ؛ ذلك أنَّ أكثرَ المسلمين لا يزالون حَدِيثِي عهدٍ بقيامِ الليلِ خلالَ الشهرِ الفضيلِ، حيث لا يَكَادُونَ يتخلَّفون عن صلاةِ التراويحِ، بل إنَّ فيهم مَنْ يَزِيدُ عليها صلاةَ التهجُّدِ، فيكونُ من السَّهْلِ عليهم الاستجابةُ لهذا الموضوعِ، فيُوَاصِلُونَ بذلك دَرْبَ القيامِ الذي أَلِفُوهُ في رمضانَ. كما يُمْكِنُ أن يُثَارَ في فصلِ الشتاءِ عندما يكون الليلُ طويلاً، فيَسْهُلُ على الناسِ أن يَقْتَطِفُوا جُزْءًا منه للقيامِ. ولذا مِمَّا يُذْكَرُ عن بعضِ من سَلَفِنَا الصالحين أنهم كانوا يَفْرَحُونَ إذا ما دَخَلَ عليهم الشتاءُ؛ حتى يَغْتَنِمُوا طولَ لَيْلِهِ في القيامِ، وقِصَرَ نهارِهِ في الصيامِ.

وَيُلَقَّــوْنَ فِيهَــا تَحِيَّــةً وَسَــلَاماً خَالِــدِينَ فِيهَــا حَسُــنَتْ مُسْــتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾[الفرقان:75-76].

ويقول تعالى أيضًا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ[1] آنَاء اللَّيْلِ[2] سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[الزمر:09].

وعن عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ رضي الله عنه قال: "أولُ ما قَدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ انْجَفَلَ الناسُ إليه، فكنتُ فيمن جاءه، فلما تأملتُ وجهَهُ واسْتَبَنْتُهُ عرفتُ أنَّ وجهَهُ ليس بوجهِ كذابٍ". ثم قال: "فكان أولُ ما سمعتُ من كلامِهِ أنْ قال: ﴿أيها الناسُ: أَفْشُوا السلامَ، وأَطْعِمُوا الطعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وصَلُّوا بالليلِ والناسُ نيامٌ؛ تدخلُوا الجنةَ بسلامٍ﴾"[رواه الترمذي وابن ماجة].

وقد جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: "يا محمدُ، عِشْ ما شئتَ فإنك ميتٌ، واعْمَلْ ما شئتَ فإنك مَجْزِيٌّ به، وأَحْبِبْ مَنْ شئتَ فإنك مُفَارِقُهُ، واعْلَمْ أنَّ شرفَ المؤمنِ قيامُ الليلِ، وعِزَّهُ استغناؤُهُ عن الناسِ"[رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن].

وهذه العبادةُ -حسبَ استقرائي الخاصِّ- يَنْشَطُ كثيرٌ من المسلمين في الإتيانِ بها في شهرِ رمضانَ، ولكن يتخلَّى عنها عددٌ مُعْتَبَرٌ منهم بعدَهُ، فلا يكادُ أحدُهم يقومُ الليلَ إلا نادرًا.

---

[1]- قَانِتٌ: مطيعٌ خاضعٌ.

[2]- آنَاء اللَّيْلِ: ساعاتِهِ.

وحتى يَحْظَى المسلمُ بشرفِ قيامِ الليلِ، ويَظْفَرَ بأجرِهِ العظيمِ، أريدُ أن أَعْرِضَ عليه بعضًا من الأسبابِ التي تُعِينُهُ على الإتيانِ به، وفيما يأتي بيانُهَا:

1- الحرص على أَخْذِ قسطٍ من النومِ عند الظهيرةِ[1]، والنومِ مبكرًا بالليلِ: وهذا ائتمارًا بأمرِ النبيِّ ﷺ، وأَخْذًا بهديِهِ القويمِ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ. فقد قال في الحديثِ الحسنِ: ﴿قِيلُوا؛ فإنَّ الشياطينَ لا تَقِيلُ﴾[أَوْرَدَهُ السيوطيُّ في الجامعِ الصغيرِ]. وقد صَحَّ عن أبي بَرْزَةَ رضي الله عنه "أنَّ النبيَّ ﷺ كان يكرهُ النومَ قبل العشاءِ، والحديثَ بعدها".[رواه الجماعة].

ومعلومٌ أنَّ القيلولةَ مع النومِ المبكِّرِ تُكْسِبُ الإنسانَ قوةً جسديةً، تُمَكِّنُهُ من قيام الليلِ وهو على أحسن حالٍ. ومع ذلك فلا بُدَّ من اتخاذِ شيءٍ يُعِينُهُ على الاستيقاظ، كأنْ يطلبَ مِمَّنْ يعلمُ بأنه سيقومُ أنْ يُوقِظَهُ، أو يجعلَ مُنَبِّهًا يُنَبِّهُهُ عند الساعةِ المعيَّنَةِ.

2- تركُ الذنوبِ بالنهارِ: ولذا قال أحدُ السلفِ: "لا تَعْصُوا اللهَ بالنهار، تَقُومُوا الليلَ". وقال ثانٍ: "إذا لم تَقْدِرْ على قيامِ الليلِ، وصيامِ النهارِ، فاعْلَمْ أنكَ محرومٌ، وأن ذنوبكَ الكثيرةَ قَيَّدَتْكَ". وقال ثالثٌ: "حُرِمْتُ قيامَ الليلِ أشهرًا بذنبٍ". قيل له: "وما ذاكَ الذنبُ؟" قال: "رأيتُ رجلاً يبكي فقلتُ: هذا مُرَاءٍ". فهذا حُرِمَ قيامَ الليلِ أشهرًا بهذه الكلمةِ التي

---

[1]- وهو ما يُسَمَّى بالْقَيْلُولَةِ.

يظهر بأنها بسيطةٌ، فما بالك بِمَنْ يُصِرُّ على بعض الصغائرِ، أو يَقَعُ في بعض الكبائرِ؟!.

3- عدمُ الإكثارِ من الأكلِ أو الشربِ قبلَ النومِ: ذلك أَنَّ مَنْ أكل كثيرًا ثَقُلَ فاحتاجَ إلى النومِ الكثيرِ. ومَنْ نَامَ كثيرًا فَاتَهُ خيرٌ كثيرٌ، ومِنْ هذا الخيرِ الذي يُمْكِنُ أَنْ يفوتَهُ قيامُ الليلِ.

والناصحُ الأمينُ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ يقول في الحديث الصحيح: ﴿ما مَلَأَ آدميٌّ وعاءً شَرًّا مِنْ بطنٍ، بَحَسْبِ ابنِ آدمَ أُكُلاَتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ. فإنْ كان لا مَحَالَةَ فثُلُثٌ لطعامِهِ، وثلثٌ لشرابِهِ، وثلثٌ لِنَفَسِهِ﴾[رواه الترمذي].

4- مراعاةُ التدرجِ في قيامِ الليلِ: وللتدرجِ في القيام صورٌ متعددةٌ منها:

- أن يبدأَ بركعتيْنِ لمدةِ شهرٍ، ثم أربعِ ركعاتٍ لمدةِ شهرٍ ثانٍ، فستِّ ركعاتٍ لمدةِ شهرٍ ثالثٍ، وهكذا إلى ما شاءَ اللهُ تعالى من الركعاتِ، وإنْ كان الأفضل أن لا يزيد على إحدى عشرة ركعةً، مع حُسْنِ أدائِهن. تقول أُمُّنَا عائشةُ رضي الله عنها: "ما كان رسولُ اللهِ ﷺ يزيدُ في رمضانَ ولا في غيرِهِ على إحدى عشرةَ ركعةً، يصلي أربعًا فلا تَسْأَلْ عن حُسْنِهِنَّ وطُولِهِنَّ، ثم يصلي أربعًا فلا تَسْأَلْ عن حُسْنِهِنَّ وطُولِهِنَّ، ثم يصلي ثلاثًا"[رواه الشيخان].

- أن يبدأَ بقيام ليلةٍ في الأسبوعِ، ولْتَكُنْ ليلةَ يومِ عطلتِهِ الأسبوعيةِ مثلاً، وهذا لمدةِ شهرٍ، ثم يرتقي بنفسه إلى يوميْنِ في الأسبوعِ في

الشهرِ الموالي، وهكذا، إلى أن يعتادَ على القيام يوميًّا، فلا يكادُ يتركُهُ إلا نادرًا، ولعذرٍ معينٍ معقولٍ.

وإنما نَاصَحْنَا بالتدرجِ؛ لأن بعضَهم ربما رَغِبَ في قيام الليل، فابتدأَ بوِرْدٍ كبيرٍ منه، فإذا به يُرْهَقُ بعد مدةٍ -عادةً ما تكونُ قصيرةً-، فينقطعُ بعد ذلك عنه كليةً. ولذا قال النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ[1] الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ[2]، فَسَدِّدُوا[3] وَقَارِبُوا[4] وَأَبْشِرُوا[5]﴾[رواه الشيخان].

5- استحضارُ فضلِ وثوابِ قيامِ الليلِ: ذلك أن الإنسانَ مَجْبُولٌ على أنْ لا يعملَ إلا بمقابلٍ، سواء كان هذا المقابلُ ماديًّا أو معنويًّا. أما إذا لم يكن هناك مقابلٌ، فإنه يَفشل عن القيام بأي عملٍ.

والأمر نفسُه في قيام الليل؛ فإن المسلمَ إذا لم يَسْتَحْضِرْ ما سينالُه عن القيام من ثوابٍ جزيلٍ، وما يترتب عنه من آثار طيبة في الدنيا وفي الآخرة، فإنه سوف لا يُعْنَى به.

[1]- يُشَادَّ: من المشادَّةِ، وهي المغالَبَةُ التي تعني المبالغةَ في تطبيقِ أحكامِ الشريعةِ دون فِقْهٍ.

[2]- غَلَبَهُ: أي جَعَلَهُ يعجزُ عن الإتيانِ بجميعِ أحكامِهِ.

[3]- سَدِّدُوا: من السدادِ، وهو الصوابُ الذي لا يكونُ إلا بالتوسطِ والاعتدالِ، دون إفراطٍ ولا تفريطٍ.

[4]- قَارِبُوا: أي اعْمَلُوا ما يُقَرِّبُكُمْ من الأكملِ.

[5]-أَبْشِرُوا: تَفَاءَلُوا بالثوابِ الجزيلِ على عملِكم الذي حاولْتُمْ فيه الاقترابَ من الأكملِ.

والعكسُ صحيحٌ؛ فإنه إذا ما استحضرَ بأنه سينال أجرًا عظيمًا، ويَظْفَرُ بفضائلَ كثيرةٍ، إذا ما قامَ الليلَ، اندفعتْ نفسُه إليه، وسَعَتْ إلى الإتيان به، واسْتَبْسَطَتْ ما يصاحبُهُ من تعبٍ ومشقةٍ.

ومِنْ بين فضائلِ قيامِ الليلِ ما يأتي ذِكْرُهُ:

- نَيْلُ النعيمِ المقيمِ والسعادةِ الأبديَّةِ في الجنةِ: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات:15-18]. ويقول أيضًا: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَى[2] جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ[3] يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ[4] جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[السجدة:15-17].

- إجابةُ الدعوةِ، ومغفرةُ الذنوبِ: يقول النبيُّ ﷺ: ﴿ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليلِ الآخِرِ يقولُ: مَنْ يدعوني فأستجيبُ له؟ مَنْ يسألني فأعطيه؟ مَنْ يستغفرني فأغفرُ له؟﴾[رواه الشيخان].

---

[1]- يَهْجَعُونَ: ينامون.

[2]- تَتَجَافَى: ترتفعُ وتَتَنَحَّى للعبادةِ.

[3]- الْمَضَاجِعِ: الْفُرُشُ.

[4]- مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ: مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَسَرَّةِ والفرحِ.

- ما جاء في قولِ سلمـانَ الفارسيِّ ﷺ:"**عليكُم بقيام الليل؛ فإنه دأبُ الصالحينَ**[1] **قبلكُم، ومَقْرُبَةٌ إلى رَبِّكُم، ومَكْفَرَةٌ للسيئات، ومَنْهَاةٌ عن الإثم**[2]**، ومَطْرَدَةٌ للداءِ عن الجسد**[3]".

6- مجاهدةُ النفسِ ومحاولةُ طَرْدِ الكسلِ عنها بقدرِ الإمكانِ: يقول تعـالى: ﴿وَالَّـذِينَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهْـدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَـعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:69]. ويقـول ثابـتٌ الْبُنَـانِيُّ[4]: " كَابَـدْتُ قيـامَ الليلِ عشرين سنةً، ثم تَلَذَّذْتُ به عشرين سنةً".

7- التجاءُ العبدِ إلى الله تعالى بالدعاء أنْ يُوَفِّقَهُ إلى قيامِ الليلِ: فالدعاء سلاحُ المؤمنِ ومَلاَذُهُ الذي يلجأُ إليه في الْمُلِمَّاتِ، واللهُ ﷻ لا يُخَيِّبُ عبدَه إذا ما رأى فيه صدقًا في الالتجاء إليه. يقول جلَّ وعلاَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[5]﴾[غافر:60].

[1]- دأبُ الصالحينَ: شأنُهم وعادتُهم.

[2]- لأنَّ قيامَ الليلِ يُفْعَلُ بعيدًا عن أعينِ الناسِ، فيتعلَّمُ منه القائمُ استحضارَ رقابةِ اللهِ تعالى، فيَعْصِمُهُ ذلك من الوقوعِ في الآثامِ.

[3]- أَكَّدَ المهتمُّون بالإعجازِ العلميِّ في القرآنِ والسنةِ على أنَّ لقيامِ الليلِ فوائدَ صحيةً تعودُ على بَدَنِ القائمِ.

[4]- تابعيٌّ جليلٌ من أصحابِ أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ.

[5]- دَاخِرِينَ: صاغرِين أَذِلاَّءَ.

ومِنْ أهمِّ آدابِ الدعاءِ أن يَتَخَيَّرَ المسلمُ الأوقاتَ والأحوالَ التي تكون أَدْعَى لإجابةِ دعائِه، كالثلثِ الأخيرِ من الليل، وحالِ السفرِ والصيامِ، وعند السجودِ في الصلاةِ. فإذا اغتنمَ المسلمُ هذه الأوقاتَ والأحوالَ وأمثالَها، وتوجَّهَ إلى ربِّهِ بتذلُّلٍ وانكسارٍ، سائلاً إيَّاهُ أن يجعلَهُ من الذين يُعْنَوْنَ بقيامِ الليلِ، فإنه تعالى وَعَدَ بإجابةِ مَنْ دَعَاهُ، وهو لا يُخلف الميعادَ.

8- استحضارُ صُوَرِ حرصِ السلفِ الصالحِ على القيام: ومِمَّا يُذْكَرُ في هذا المضمارِ أنَّ النبيَّ ﷺ كان لا يترك قيامَ الليلِ، حتىَّ إن قَدَمَيْهِ كانت تَتَفَطَّرُ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ، إلى درجة أنَّ أمَّنَا عائشةَ رضي الله عنها استغربتْ منه ذلك عندما قالت له: "لِمَ تصنعُ هذا، وقد غُفِرَ لك ما تَقَدَّمَ من ذنبك وما تأخَّرَ؟!". فقال: ﴿أفلاَ أحبُّ أنْ أكونَ عبدًا شكورًا﴾[رواه الشيخان].

وكان للحسن البصري رحمه الله جاريةٌ فباعها، فلما جاء الليل قامت الجاريةُ وأخذت تنادي: "يا أهلَ الدارِ، الصلاةَ الصلاةَ". فقالوا: "أطلعَ الفجرُ؟" فقالت: "ألا تُصَلُّونَ إلا المكتوبةَ!؟" فقالوا: "نعم". فرجعتْ إلى الحسن البصري وقالت: "يا مولايَ رُدَّنِي، فإنك بِعْتَنِي لقومٍ لا يُصَلُّونَ إلا الصلواتِ الخمسَ"[1].

---

[1]- إذا كان سلفُنَا الصالحون -وهم الذين جعلَهم اللهُ تعالى للمتقين أئمةً- يُنْكِرُونَ على مَنْ لا يقومُ الليلَ، مع أنه يؤدِّي الصبحَ في وقتِهِ، فماذا سيقولون للذين يتقاعسون عن الصبحِ، فلا يصلُّونَهُ إلا بعد شروقِ الشمسِ؟؟؟!!!

وإذا وُفِّقَ المسلمُ إلى الدخول في مشروع قيام الليل، فإنه ينبغي أن يراعيَ الآدابَ الآتيةَ؛ حتى يكونَ قيامُهُ موافقًا لهديِ النبيّ ﷺ:

1- أن ينويَ عند نومِهِ قيامَ الليلِ: ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ﴿مَنْ أتى فراشَهُ وهو ينوي أن يقومَ فيصلِّيَ من الليل، فغلبتْهُ عينُهُ حتى أصبحَ، كُتِبَ له ما نَوَى، وكان نومُهُ صدقةً عليه مِنْ ربِّهِ﴾[رواه النسائي وابن ماجة بإسناد جيد].

2- الإتيانُ بالذكرِ المأثورِ عند الاستيقاظ إليه: فقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه كان إذا انْتَبَهَ من الليلِ قال: ﴿الحمدُ للهِ الذي أحيانا بعد ما أَمَاتَنَا وإليه النشورُ﴾[رواه ابن ماجة].

3- تلاوةُ أواخِرِ سورةِ آل عمران بُعَيْدَ الإتيانِ بالذكر السابقِ: فقد جاء في الصحيحيْنِ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنه قال: "بِتُّ عند خالتي ميمونةَ ليلةً والنبيُّ ﷺ عندها، فتحدَّثَ رسولُ اللهِ ﷺ مع أهلِهِ ساعةً ثم رَقَدَ. فلما كان ثلثُ الليلِ الآخِرُ أو بعضُهُ، قَعَدَ فنظرَ إلى السماءِ فقرأَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[آل عمران:190]، حتى ختم السورةَ". ثم ذَكَرَ أنه ﷺ توضَّأَ وصلَّى، وصلَّى هو معه.

4- إيقاظُ الأهلِ؛ للظفرِ بفضلِهِ: ذلك أنَّ مَنْ دعا إلى هدى كان له مثلُ أجرِ مَنِ اتبعه من غير أن يُنْقِصَ من أجره شيئاً، والنبيُّ ﷺ يدعو بالرحمة لقائِم الليل الذي يوقظ زوجتَهُ، ولقائمة الليل التي توقظ زوجَهَا فيقول: ﴿رَحِمَ اللهُ رجلاً قامَ من الليل فصلَّى، وأَيْقَظَ امرأتَهُ

فصلَّتْ، فإنْ أَبَتْ رَشَّ في وجهها الماءَ. ورَحِمَ اللهُ امرأةً قامتْ من الليل فصلَّتْ، وأَيْقَظَتْ زوجَهَا فصلَّى، فإنْ أَبَى رَشَّتْ في وجهه الماءَ﴾[رواه ابنُ ماجةَ والنسائيُّ].

ويقول ﷺ: "من استيقظ من الليل فأيقظ امرأَتَهُ فصليا ركعتيْنِ كُتِبَا من الذاكرين اللهَ كثيراً والذاكرات"[رواه أبو داود].

وهذا أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ كان تحت عينيْهِ خَطَّانِ أسودانِ من كثرة البكاء، وكان يقوم الليلَ ويوقظ أهلَهُ ويقرأُ قولَهُ تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه:132].

5- أن يفتتحَ قيامَهُ بركعتيْنِ خفيفتيْنِ: فعن أبي هريرةَ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: ﴿إذا قام أحدُكم من الليل، فليَفْتَتِحْ صلاتَهُ بركعتيْنِ خفيفتيْنِ﴾[رواه مسلم].

6- أن يجعلَ صلاتَهُ مثنى مثنى: إذ إن النبيَّ ﷺ قال: ﴿صلاةُ الليلِ مثنى مثنى، فإذا خَشِيَ أحدُكم الصبحَ صَلَّى ركعةً واحدةً تُوتِرُ له ما قد صَلَّى﴾[متفق عليه].

7- أن يجعلَ آخِرَ صلاتِهِ بالليل الوترَ[1]: فقد رُوِيَ عن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ ﷺ قولُهُ: "أمرنا رسولُ اللهِ ﷺ أن نصليَ من الليلِ ما قَلَّ أو كَثُرَ، ونجعلَ آخِرَ ذلك وَتْرًا"[رواه الطبراني والبزار، وفيه ضعف].

---

[1]- كلُّ مَنْ عَلِمَ من نفسِهِ أنه سيقومُ الليلَ بعد أن ينامَ، فعليه أن يُؤَخِّرَ الوترَ إلى آخرِ قيامِهِ. أما مَنْ كان شَاكًّا في قيامِهِ، فعليه أن يُوتِرَ قبل نومِهِ؛ عملاً بحديثِ أبي هريرةَ ﷺ الذي قالَ فيه: "أوصاني خليلي -أي: النبي ﷺ- بثلاثٍ: صيامِ=

8- أن يجعلَ لنفسه وردًا يناسب ظروفَهُ ينضبطُ فيه فلا يتركُهُ: نقول هذا؛ لأن قيامَ الليلِ فيه مشقةٌ على النفس، حتى إن التابعيَّ الجليلَ الحسنَ البصريَّ رحمه الله لَمَّا سُئِلَ عن أشدِّ شيءٍ وأصعَبِهِ على الإنسان، فقال: "قيام الليل". فقيل لَهُ: "فما بالُ المتهجدينَ أحسَنُ الناس وجوهًا؟" فقال: "لأنهم خَلَوْا بالرحمن تعالى فألبسَهم من نوره".

فحتى يتغلبَ المسلمُ الذي يَوَدُّ القيامَ على شدتِهِ وصعوبتِهِ، عليه أن يتخذَ لنفسه وردًا معينًا ولو كان قليلا، شريطةَ المداومةِ عليه. ولذا لما سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ: "أيُّ الأعمالِ أَحَبُّ إلى اللهِ؟" قال: ﴿أَدْوَمُهُ وإِنْ قَلَّ﴾[رواه الشيخان].

أسألُ اللهَ العليَّ القديرَ أن يجعلَنَا من الذين يقومون الليلَ ويصومون النهارَ، وأن يُعِينَنَا على ذلك؛ إنه وَلِيُّ ذلك والقادرُ عليه، وصَلِّ اللهمَّ وسَلِّمْ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

=ثلاثةِ أيامٍ من كلِّ شهرٍ، وركعتيِ الضحى، وأنْ أُوتِرَ قبلَ أن أنامَ"[متفق عليه]. وإنْ وُفِّقَ بعد ذلك للقيامِ، فلْيُصَلِّ ما شاء اللهُ له أن يصليَ مثنى مثنى، ولا يوترُ مرةً ثانيةً؛ عملاً بقولِهِ ﷺ: ﴿لاَ وِتْرَانِ في ليلةٍ﴾[رواه أبو داود والترمذي والنسائي].

المحاضرة السابعة

بعضٌ مِنْ مُكَفِّرَاتِ الذنوبِ من خلالِ السنةِ النبويةِ[1]

هـذه بعـضٌ مـن الأعمـالِ والأقـوالِ والأحـوالِ[2] المكفِّـرَةِ للـذنوبِ والآثامِ[3]، مِمَّا وَرَدَ في سنةِ النبيِّ ﷺ:

---

[1]- ذكرتُ في العنوانِ قَيْدَ "السنةِ النبويةِ"؛ لأنَّ هناك مكفراتٍ أخرى كثيرةً ذكرَها القرآنُ الكريمُ لا يُعْنَى بها هذا الموضوعُ، نحو ما جاء في قولِهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الأنفال:29].

[2]- إذا كان المكفِّرُ عملاً كإحسانِ الوضوءِ، أو قولاً كبعضِ الأذكارِ التي سيأتي ذكرُها، فإنَّ المسلمَ عليه أن يبادرَ إلى فعلِهما، وإذا كان حالاً كالمرضِ ونحوِهِ، فإنه لا يُمْرِضُ نفسَهُ، ولا يَتَمَنَّى المرضَ، ولكن إنِ ابْتُلِيَ به، فعليه أن يستحضرَ أنَّ ذاك مِمَّا يُكَفِّرُ ذنبَهُ، فيكونُ ذلك مُعِينًا له على الصبرِ والاحتسابِ.

[3]- المقصودُ بالذنوبِ والآثامِ ما كان منها من قبيلِ الصغائرِ؛ ذلك أنَّ الكبائرَ لا تَكْفِي فيها هذه المكفِّرَاتُ لِمَحْوِ آثارِهَا السيئةِ، بل إنها تحتاجُ إلى توبةٍ خاصةٍ بشروطِهَا الثلاثةِ التي قَرَّرَهَا أهلُ العلمِ استنادًا إلى النصوصِ الشرعيةِ. وهذه الشروطُ هي: الندمُ على فعلِ المعصيةِ، والإقلاعُ عن فعلِهَا، والعزمُ على عدمِ الرجوعِ إليها. وإذا كانتِ المعصيةُ متعلقةً بالعبادِ، فلا بُدَّ من شرطٍ رابعٍ، وهو إرجاعُ الحقوقِ إلى أصحابِهَا.

1- إحسانُ الوضوءِ[1]: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿مَنْ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ، خرجتْ خطايَاهُ من جسدِهِ، حتى تخرجَ من تحتِ أَظْفَارِهِ﴾[رواه الشيخان].

2- الإتيانُ بالذكرِ المأثورِ عند سماعِ المؤذِّنِ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿من قال حين يسمعُ المؤذِّنَ: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، رضيتُ باللهِ ربًّا، وبمحمدٍ رسولاً، وبالإسلامِ ديناً[2]، غُفِرَ له ذنبُهُ﴾[رواه مسلم].

3- المحافظةُ على الصلواتِ الخمسِ والْجُمُعَاتِ، وصيامُ رمضانَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بينهنَّ، إذا اجْتُنِبَتِ الكبائرُ﴾[رواه مسلم].

4- المشيُ إلى صلاةِ الجماعةِ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿صلاةُ الرجلِ في الجماعةِ، تضعفُ على صلاتِهِ في بيتِهِ وفي سوقِهِ خمساً وعشرين ضعفاً؛ ذلك أنَّهُ إذا توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ، ثم خرجَ إلى المسجدِ، لا

---

[1]- إحسانُ الوضوءِ إتقانُهُ، بحيث يُعْطَى لكلِّ عضوٍ حقَّهُ من الْغَسْلِ أو المسحِ.

[2]- يأتي المتوضئُ بهذا الذكرِ عقبَ وضوئِهِ إضافةً إلى الذكرِ الآخَرِ الثابتِ عن النبيِّ ﷺ من حديثِ جابرٍ رضي الله عنه عندما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿مَنْ قالَ حين يسمعُ النداءَ: اللهمَّ ربَّ هذه الدعوةِ التامةِ، والصلاةِ القائمةِ، آتِ محمدًا الوسيلةَ والفضيلةَ، وابْعَثْهُ مقامًا محمودًا الذي وَعَدتَّهُ، حَلَّتْ له شفاعتي يومَ القيامةِ﴾[رواه البخاري].

يُخْرِجُهُ إلا الصلاةُ، لم يَخْطُ خطوةً إلا رُفِعَتْ له بها درجةٌ، وحُطَّ عنه بها خطيئةٌ، فإذا صلَّى لم تَزَلِ الملائكةُ تُصَلِّي عليه ما دَامَ في مُصَلاَّهُ: اللهمَّ صلِّ عليه، اللهمَّ ارْحَمْهُ، ولا يزالُ أحدُكم في صلاةٍ ما انتظرَ الصلاةَ﴾[رواه الشيخان].

5- القيامُ في الثلثِ الأخيرِ من الليلِ مع الاستغفارِ فيه: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا حين يبقَى ثلثُ الليلِ الأخيرُ يقولُ: مَنْ يدعوني فأستجيبُ له، مَنْ يسألُني فأُعْطِيهِ، مَنْ يستغفرُني فأغفرُ له﴾[رواه الشيخان].

6- الصدقةُ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لمعاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه: ﴿ألاَ أدلُّك على أبوابِ الخيرِ؟ الصومُ جُنَّةٌ[1]، والصدقةُ تطفئُ الخطيئةَ كما يطفئُ الماءُ النارَ، وصلاةُ الرجلِ من جوفِ الليلِ﴾[رواه الترمذي].

7- التسبيحُ بصيغةِ "سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ" مائةَ مرةٍ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿مَنْ قالَ: سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ في يومٍ مائةَ مرةٍ، حُطَّتْ خطايَاهُ وإنْ كانت مثلَ زبدِ البحرِ[2]﴾[رواه الشيخان].

8- الأمراضُ والهمومُ والأحزانُ وسائرُ الابتلاءاتِ: يقولُ النبيُّ ﷺ: ﴿ما يُصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ[3]، ولا هَمٍّ، ولا حَزَنٍ، ولا

---

[1]- جُنَّةٌ: أي وقايةٌ من الأمراضِ في الدنيا، ومن عذابِ اللهِ في الآخرةِ.

[2]- زبدِ البحرِ: هو ما يَعْلُوهُ من رغوةٍ.

[3]- الْوَصَبُ: هو المرضُ والْوَجَعُ.

أذًى، ولا غَمٍّ، حتى الشوكةُ يُشَاكُهَا، إلا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ﴾[رواه الشيخان].

9- بِرُّ الوالديْنِ وصلةُ الأرحامِ: عن ابنِ عمرَ ﷺ أنَّ رجلاً أتَى النبيَّ ﷺ فقالَ: "يا رسولَ اللهِ، إني أَصَبْتُ ذنبًا عظيمًا[1]، فهل لي من توبةٍ؟" قالَ: ﴿هلْ لك مِنْ أُمٍّ؟﴾ قالَ: "لاَ". قالَ: ﴿وهلْ لك من خالةٍ؟﴾ قالَ: "نَعَمْ". قالَ: ﴿فَبُرَّهَا﴾[رواه الترمذي].

---

[1]- إنَّ هذا الرجلَ وصفَ ذنبَهُ بالعظيمِ على اعتبارِهِ هو كصحابيٍّ جليلٍ، وإلا فإنَّ ذنبَهُ يبدُو أنه ضمنَ الصغائرِ على اعتبارِ الشرعِ، وهذا هو شأنُ الصالحين في كلِّ زمانٍ، فإنهم يَسْتَعْظِمُونَ المعصيةَ التي يقترفُونها ولو كانت من الصغائرِ؛ لأنهم لا ينظرُون إلى صِغَرِهَا هي، ولكنَّهم ينظرُون إلى عِظَمِ مَنْ يعصُونه جلَّ في عُلاَهُ. نقولُ هذا؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ ما كان لِيَكْتَفِيَ بإرشادِهِ إلى فعلِ مُكَفِّرٍ من المكفِّرَاتِ، دون نُصْحِهِ بالإتيانِ بالتوبةِ النصوحِ بشروطِهَا المقرَّرَةِ شرعًا. كما يُمْكِنُ أن يُفْهَمَ هذا الحديثُ على أساسِ أنَّ هذا الصحابيَّ قد تابَ التوبةَ النصوحَ، ولكن ظَلَّ ضميرُهُ يُؤَنِّبُهُ، فأراد أن يُرِيَ ربَّهُ من نفسِهِ قوةَ صدقٍ في الإنابةِ إليهِ، فسألَ النبيَّ ﷺ عن عملٍ صالحٍ يُمَكِّنُهُ من ذلك. وهذا الصنيعُ من صفاتِ عبادِ الرحمنِ الذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾[الفرقان:68-71].

10- حضورُ مجالسِ العلمِ والذكرِ: عن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿إنَّ لله ملائكةً يطوفُون في الطرقِ، يلتمسُون أهلَ الذكرِ، فإذا وجدوا قومًا يذكُرُون اللهَ، تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجتِكم. فيَحُفُّونَهُمْ بأجنحتِهم إلى السماءِ الدنيا. فيسألُهم ربُّهم وهو أعلمُ بهم: ما يقولُ عبادي؟ يقولُون: يُسَبِّحُونَكَ ويُكَبِّرُونَكَ ويَحْمَدُونَكَ ويُمَجِّدُونَكَ. فيقولُ: هل رَأَوْنِي؟ فيقولُون: لاَ واللهِ ما رَأَوْكَ. فيقولُ: كيف لو رَأَوْنِي؟ فيقولُون: لو رَأَوْكَ كانوا أشدَّ لك عبادةً، وأشدَّ لك تمجيدًا، وأكثرَ لك تسبيحًا. فيقولُ: فما يسألُون؟ قالوا: يسألونَك الجنةَ. يقولُ: وهلْ رَأَوْهَا؟ فيقولُون: لاَ واللهِ يا ربُّ، ما رَأَوْهَا. فيقولُ: فكيف لو رَأَوْهَا؟ يقولُون: لو أنَّهم رَأَوْهَا، كانوا أشدَّ حرصًا، وأشدَّ لها طَلَبًا، وأعظمَ فيها رغبةً. قالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ يقولُون: مِنَ النارِ. يقولُ: فهلْ رَأَوْهَا؟ يقولُون: لاَ واللهِ يا ربُّ، ما رَأَوْهَا. يقولُ: فكيف لو رَأَوْهَا؟ يقولُون: لو رَأَوْهَا، كانوا أشدَّ منها فرارًا، وأشدَّ لها مَخَافَةً. فيقولُ: فأُشْهِدُكُمْ أنِّي قد غَفَرْتُ لهم[1]. يقولُ مَلَكٌ من الملائكةِ: فِيهِمْ فلانٌ ليس منهم؛ إنَّما جاء لحاجةٍ. قالَ: هُمُ الجلساءُ لا يَشْقَى جليسُهم﴾[رواه الشيخان].

[1]- وهذه العبارةُ هي مَحَلُّ الشاهدِ مِنْ هذا الحديثِ الطويلِ من حيث مَتْنُهُ، العظيمُ من حيث الفضلُ الواردُ فيه.

11- ذِكْرُ كفارةِ المجلسِ: يقولُ النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ جلسَ في مجلسٍ فكَثُرَ لَغْطُهُ[1] فقالَ قبلَ أن يقومَ من مجلسِهِ ذلك: سبحانك اللهمَّ وبحمدِك، أشهدُ أن لا إلهَ إلا أنت، أستغفرُك وأتوبُ إليك، إلا غَفَرَ اللهُ له ما كان في مجلسِهِ ذلك﴾[رواه الترمذي].

وفي ختامِ هذا الموضوعِ، نسألُهُ ﷻ أن يغفرَ ذنوبَنَا، وأن يَسْتُرَ عيوبَنَا، وأن يكشفَ كُرُوبَنَا، وأن يُطَهِّرَ قلوبَنَا، وأن يُحَصِّنَ فروجَنَا، وأن يُؤَمِّنَ رُوعَاتِنَا، وأن يبلِّغَنَا مِمَّا يُرْضِيهِ عَنَّا آمالَنَا؛ إنه سميعٌ قريبٌ مجيبُ الدعواتِ، وصلِّ اللهمَّ وسلِّمْ على سيدِنَا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

---

[1]- لَغْطُهُ: كلامُهُ. ومعلومٌ أنَّ "مَنْ كَثُرَ لَغْطُهُ، كَثُرَ سَقْطُهُ".

المحاضرة الثامنة

أعمال تفتح للمسلم أبواب الجنة الثمانية

إنَّ مِمَّا يعتقدُهُ المسلمُ أنَّ لِلْجَنَّةِ التي هي مستقرُّ المتقين ومقامُهُمْ يومَ القيامةِ أبوابًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً[1] حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا[2] سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ[3] مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[الزمر:73-74].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أنفقَ زوجيْنِ[4] في سبيلِ اللهِ، نُودِيَ[5] من أبوابِ الجنةِ: يا عبدَ اللهِ، هذا خيرٌ، فمَنْ كان مِنْ أهلِ

---

[1]- زُمَراً: جماعاتٍ.

[2]- خَزَنَتُهَا: الملائكةُ الموكَّلون بها.

[3]- نَتَبَوَّأُ: نَنْزِلُ.

[4]- زوجيْنِ: صنفيْنِ، مثل أن يُنْفِقَ دراهمَ ودنانيرَ، أو دراهمَ وأمتعةً، أو خيلاً وإِبِلاً، وما أشبهَ ذلك.

[5]- نُودِيَ: أي نادتْهُ الملائكةُ.

الصلاةِ[1]، دُعِيَ من بابِ الصلاةِ، ومَنْ كان من أهلِ الجهادِ، دُعِيَ من بابِ الجهادِ، ومَنْ كان من أهلِ الصدقةِ، دُعِيَ من بابِ الصدقةِ، ومَنْ كان من أهلِ الصيامِ، دُعِيَ من بابِ الرَّيَّانِ﴾. فقال أبو بكرٍ ﷺ: "بِأَبِي أنت وأمِّي، ما على مَنْ دُعِيَ من هذه الأبوابِ من ضرورةٍ[2]، فهل يُدْعَى أحدٌ من تلك الأبوابِ كلِّها[3]"، قال: ﴿نعم، وأرجُو أن تكونَ منهم﴾[رواه الشيخان].

كما أنَّ المسلمَ يعتقدُ أنَّ عددَ هذه الأبوابِ هو ثمانيةٌ[4]، في الوقتِ الذي يعتقدُ فيه أنَّ للنارِ -أَعَاذَنَا اللهُ منها- أبوابًا، وأنَّ عددَهَا سبعةٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[الحجر:42-44].

[1]- يعني: أنَّ اللهَ تعالى فَتَحَ عليه في الصلاةِ، فكان مُكْثِرًا منها. ومثلُ ذلك يُقَالُ في الجهادِ والصدقةِ والصومِ الآتي ذِكْرُهم في الحديثِ.

[2]- أي: أنَّ الذي يُدْعَى من بابٍ واحدٍ لا يَشُقُّ عليه الأمرُ؛ لأنه سيَتَّجِهُ إلى ذلك البابِ، ويدخُلُ الجنةَ.

[3]- أبو بكرٍ الصديقُ ﷺ قدوةٌ حسنةٌ لنا من خلالِ هذا الموقفِ السامِيّ فيما يتعلَّقُ بالهمةِ العاليةِ في الإكثار من الطاعاتِ والصالحاتِ بشتَّى أنواعِهَا.

[4]- سيأتي الدليلُ من سنةِ النبيِّ ﷺ على أنها ثمانيةٌ.

وقد عَرَضَتْ سنةُ النبيِّ ﷺ أعمالاً مُعَيَّنَةً، لو أنَّ المسلمَ قامَ بها في هذه الدنيا، قيلَ له يومَ القيامةِ: ادْخُلْ مِنْ أيِّ أبوابِ الجنةِ الثمانيةِ شئتَ، فمِنْ بين هذه الأعمالِ:

1- إسباغُ[1] الوضوءِ، وإنهاؤُهُ بكلمةِ التوحيدِ: عن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: ﴿ما منكم من أحدٍ يتوضَّأُ فيُسْبِغُ الوضوءَ، ثم يقولُ: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ[2]، إلا فُتِحَتْ له أبوابُ الجنةِ الثمانيةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شاءَ[3]﴾[رواه مسلم].

2- إقامةُ الصلواتِ الخمسِ، واجتنابُ كبائرِ الذنوبِ: عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو[4] رضي الله عنهما قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿أَبْشِرُوا، أَبْشِرُوا، مَنْ صَلَّى الصلواتِ الخمسَ، واجتنبَ الكبائرَ، دخلَ مِنْ أيِّ أبوابِ الجنةِ

---

[1]- إسْبَاغُ الوضوءِ: هو أن يُعْطِيَ المتوضِّئُ كلَّ عضوٍ حقَّهُ من الْغَسْلِ إن كان مغسولاً، أو المسحِ إن كان ممسوحًا، مع الحرصِ على أن يأتيَ بجميعِ السننِ المتعلقةِ بالوضوءِ.

[2]- وزاد الترمذيُّ أنه يقولُ بعد كلمةِ التوحيدِ: ﴿اللهمَّ اجعلْنِي من التَّوَّابين، واجعلْنِي من المتطهِّرين﴾.

[3]- هذا فضلٌ عظيمٌ يُفَرِّطُ فيه عددٌ من المسلمين، رغم أنَّهُ لا يُكَلِّفُ شيئًا من الجهدِ أو الوقتِ أو المالِ.

[4]- إذا قيلَ في كُتُبِ علومِ الشريعةِ: عبدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو، فهو ابنُ عَمْرِو بنِ العاصِ رضي الله عنه. أما إذا قيلَ: عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ، فهو ابنُ عُمَرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه.

شاءَ﴾، وسُئِلَ عبدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو: "أسمعتَ رسولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُهُنَّ؟" قالَ: "نعم، عقوقُ الوالدَيْنِ، والشركُ باللهِ، وقَتْلُ النفسِ، وقَذْفُ المحصَنَاتِ[1]، وأَكْلُ مالِ اليتيمِ، والفرارُ من الزحفِ[2]، وأَكْلُ الرِّبَا"[رواه الطبراني].

3- حفاظُ المرأةِ على صلواتِهَا، وصَوْنُهَا لِعِرْضِهَا، وطاعتُها لزوجِهَا:

عن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿إذا صَلَّتِ المرأةُ خَمْسَهَا،

---

[1]- قَذْفُ المحصَنَاتِ: هو رَمْيُهُنَّ واتِّهَامُهُنَّ بالزِّنَى دون بينةٍ، والبينةُ أربعةُ شهودٍ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور:04]. وينبغي أن لا يُفْهَمَ من النصوصِ الشرعيةِ أنَّ القذفَ خاصٌّ بالنساءِ، بل إنه يَشْمَلُ الرجالَ أيضًا؛ إذ إنَّ الذي يَتَّهِمُ رجلاً بالزِّنَى ولا بينةَ له، فإنَّهُ يُعَدُّ قاذفًا. وإنما رَكَّزَتِ الآياتُ والأحاديثُ على النساءِ؛ لأنَّ عِرْضَهُنَّ أكثرُ حساسيَّةً من عِرْضِ الرجالِ، كما أنَّ السائدَ في أعرافِ الناسِ أنَّ عرضَ الرجلِ قاصرٌ في الجزءِ الأكبرِ منه على نفسِهِ، أمَّا عرضُ المرأةِ فإنَّهُ مُتَعَدٍّ إلى أهلِهَا، ومِنْ هنا فمَنْ رَمَى رجلاً، فقد رَمَى شخصًا واحدًا -وهذا عظيمٌ-، ومَنْ رَمَى امرأةً رَمَى امرأةً من خلالِهَا أشخاصًا -وهذا أعظمُ-.

[2]- يُقْصَدُ بالزحفِ في هذا السياقِ الحربُ، وذلك حين يلتقي صفُّ المجاهدين من المسلمين بصفِّ المقاتِلين من الكافرين وجهًا لوجهٍ. والزحفُ تسميةٌ قرآنيةٌ وردتْ في قولِهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَآء بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[الأنفال:15-16].

وحَصَّـنَتْ فَرْجَهَـا، وأطاعـتْ بَعْلَهَـا، دخلـتْ مِـنْ أيِّ أبـوابِ الجنـةِ شاءَتْ﴾[رواه ابن حبان في صحيحه].

4- الصبرُ على موتِ فِلْذَاتِ الأكبادِ: عن عُتْبَةَ بنِ عبدِ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ﴿ما مِنْ مسلمٍ يموتُ له ثلاثةٌ مِنَ الولدِ لم يَبْلُغُوا الْحِنْثَ[1]، إلا تَلَقَّوْهُ مِنْ أبوابِ الجنةِ الثمانيةِ، مِنْ أَيِّهَا شاءَ دخلَ[2]﴾[رواه ابن ماجة].

وفي ختامِ هذا الموضوعِ، أريدُ من نفسي وإخواني وأخواتي في اللهِ تعالى أن تكونَ هِمَّتُنَا عاليةً، وطموحُنَا كبيرًا، بحيث نتطلَّعُ إلى دخولِ الجنةِ من أيِّ أبوابِهَا شِئْنَا، لا لِمُجَرَّدِ دخولِهَا فقط. إلاَّ أنَّ هذا لا يَتَأَتَّى لنا إلاَّ إذا حَقَّقْنَا ما سبقَ في أنفسِنَا.

---

[1]- الْحِنْثَ: الإدراكَ.

[2]- لعلَّ العددَ "ثلاثة" ليس مقصودًا لذاتِهِ في هذا السياقِ، بمعنى: أنَّ مَنْ ماتَ له الواحدُ أو الاثنانِ، فصبرَ على موتِهم، تلقَّاهُ الواحدُ أو الاثنانِ من أبوابِ الجنةِ، من أيِّهَا شاءَ دخلَ؛ بدليلِ حديثِ: ﴿مَنْ كان له ثلاثُ بناتٍ يُؤْوِيهِنَّ ويَكْفِيهِنَّ ويَرْحَمُهُنَّ، فقد وجبتْ له الجنةُ الْبَتَّةُ﴾. فقال رجلٌ من بعضِ القومِ: "واثنتيْنِ يا رسولَ اللهِ؟" قال: ﴿واثنتيْنِ﴾[أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وأبو نُعَيْمٍ في الحلية، وإسناده صحيح]. وفي روايةٍ فيها ضعفٌ: ﴿مَنْ كانت له ثلاثُ بناتٍ فصبرَ على لَأْوَائِهِنَّ وضرَّائهنَّ وسرَّائهنَّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجنةَ بفضلِ رحمتِهِ إياهنَّ﴾. فقال رجلٌ: "أو اثنتانِ يا رسولَ اللهِ؟" قال: ﴿أو اثنتانِ﴾. فقال رجلٌ: "أو واحدةٌ يا رسولَ اللهِ؟" قال: ﴿أو واحدةٌ﴾.

نسألُهُ ﷻ أن يُوَفِّقَنَا إلى ذلك؛ إنَّهُ القادرُ عليه، ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ، وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

المحاضرة التاسعة

عشر وقفات مع حديث الاستخارة[1]

خيرُ ما نَسْتَهِلُّ به هذا الموضوعَ المبارَكَ بإذنِ اللهِ تعالى عَرْضُ نصِّ حديثِ الاستخارةِ، فقد رَوَى البخاريُّ رحمه الله عن جابرٍ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما أنه قال: "كان رسولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاستخارةَ في الأمورِ كلِّها، كما يُعَلِّمُنَا السورةَ من القرآنِ، يقولُ: ﴿إذا هَمَّ أحدُكم بالأمرِ فلْيركعْ ركعتيْنِ من غيرِ الفريضةِ، ثم لِيَقُلْ: اللهمَّ إني أستخيرُك بعلمِك، وأستقْدِرُك بقدرتِك، وأسألُك من فضلِك العظيمِ؛ فإنَّك تَقْدِرُ ولاَ أَقْدِرُ، وتعلمُ ولاَ أعلمُ، وأنتَ علاَّمُ الغيوبِ. اللهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ -ويُسَمِّي حاجتَهُ[2]- خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ

---

[1]- إنَّ أهمَّ ما دعاني إلى إثارةِ هذا الموضوعِ هو تلك الأسئلةُ الكثيرةُ التي كانت تأتيني من الأخوةِ والأخواتِ -خاصةً من فئةِ الشبابِ-. وهذه الأسئلةُ كانت تدورُ حولَ صفةِ صلاةِ الاستخارةِ، والوقتِ المشروعِ لأدائِهَا، والدعاءِ المأثورِ فيها، وكذا علاماتِ الأمرِ الذي اختارَهُ اللهُ للمستخيرِ. ومِنْ كثرةِ هذه الأسئلةِ، أصبحتُ أَعُدُّ العنايةَ بموضوعِ الاستخارةِ من مظاهرِ الخيرِ في الأمةِ الإسلاميةِ اليومَ.

[2]- أي أنَّهُ يذكرُها باسمِها، كأنْ يقولَ: زواجي من فلانةٍ بنتِ فلانٍ، أو مشاركتي لفلانٍ بنِ فلانٍ.

أمري -أو قال: عاجِلِهِ وآجِلِه[1]-، فَاقْدُرْهُ لي، ويسِّرْهُ لي، ثمَّ باركْ لي فيه. وإنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري -أو قال: عاجِلِهِ وآجِلِهِ-، فاصْرِفْهُ عنِّي، واصرفْني عنه، واقْدُرْ لي الخيرَ حيثُ كانَ، ثم أرْضِنِي بِهِ﴾.

وبالتأمُّلِ في هذا الحديثِ العظيمِ، وبعضٍ مِمَّا قَالَهُ أهلُ العلمِ فيه، تستوقفُنَا أمورٌ كثيرةٌ، أَقِفُ في هذا المقامِ الكريمِ مع إخواني وأخواتي في اللهِ تعالى عند عشرةٍ منها:

الوقفة الأولى: موضوعُ الحديثِ هو إحدى النوافلِ من الصلواتِ التي تُقَرِّبُ العبدَ من ربِّهِ، وتُكْسِبُهُ محبتَهُ[2]، وتبعثُ في نفسِهِ راحةً وطمأنينةً، وتُمَكِّنُهُ من الاختيارِ الأفضلِ، والقرارِ الأنجعِ؛ لأنَّ الاستخارةَ هي طلبُ الْخِيَرَةِ في الشيءِ من اللهِ تعالى العليمِ الخبيرِ.

---

[1]- هذا شَكٌّ من أحدِ رواةِ هذا الحديثِ، بمعنى أنَّهُ شَكَّ: هل أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: ﴿خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري﴾، أم أنه قال: ﴿خيرٌ لي في عاجِلِ أمري وآجِلِهِ﴾، وأيُّ الصيغتيْنِ قَالَهَا المستخيرُ، فهو على خيرٍ إن شاءَ اللهُ تعالى.

[2]- دليلُ ذلك قولُ النبيِّ ﷺ في الحديثِ القدسيّ: ﴿وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عبدي بشيءٍ أَحَبَّ إلَيَّ مِمَّا افترضتُهُ عليه، ولا يَزَالُ عبدي يتقرَّبُ إلَيَّ بالنوافلِ حتى أُحِبَّهُ. فإذا أَحْبَبْتُهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به، وبصرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، ورجلَهُ التي يمشي بها، ولَئِنْ سألَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ استعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ﴾[رواه البخاري].

الوقفة الثانية: بيانُ رحمةِ النبيّ ﷺ بالأمةِ عمومًا، وبصحابتِهِ خصوصًا؛ إذ إنه كان حريصًا على أن يُعَلِّمَهُمْ ما يُفيدهم في دنياهم وآخرتِهم. ولذا ينبغي على المسلمِ أن يكونَ رحيمًا ناصحًا لأمتِهِ وإخوانِهِ، فلا يبخلُ عليهم بما فيه فائدتُهم.

الوقفة الثالثة: بيانُ أهميةِ صلاةِ الاستخارةِ؛ بدليلِ عنايةِ النبيّ ﷺ بها من حيث تعليمُهَا للصحابةِ ﷺ، إلى درجةِ أنه كان يُعْنَى بها كما يُعْنَى بالقرآنِ الكريمِ.

ولذا فإنه مِمَّا يُعَابُ على عددٍ مُعْتَبَرٍ من المسلمين المعاصرين عدمُ عنايتِهم بصلاةِ الاستخارةِ، فإذا كان النبيُّ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ يعلِّمها الصحابةَ في الأمور كلِّها، فهو يحُثُّهم عليها حتى في الأمورِ البسيطةِ، فجديرٌ بالمسلم أن يأتيَ بها، خاصةً إذا كان الأمرُ ذَا بالٍ، فإن الاستخارةَ فيه تتأكَّد.

ومِنْ لطائفِ ما يُذْكَرُ عن سلفِنَا في هذا المضمارِ: أنَّ أمَّ المؤمنين زينبَ بنتَ جَحْشٍ -رضي الله عنها- لَمَّا تَقَدَّمَ لها رسولُ اللهِ ﷺ خاطبًا، استخارتْ ربَّها؛ تَعَبُّدًا، وخوفًا مِنْ أن لا تقومَ بحقِّهِ عليه الصلاةُ والسلامُ.

الوقفة الرابعة: صلاةُ الاستخارةِ تُرَسِّخُ في المسلمِ معنًى عقائديًّا مهمًّا، وهو الارتباطُ باللهِ تعالى، واللجوءُ إليه في أمورِهِ كلِّها، وكذا التخلِّي عن الشركيَّاتِ والخرافيَّاتِ قديمِهَا وحديثِهَا.

يقول الله تعالى ناهيًا المؤمنين عن تعاطي كلِّ الوسائلِ التي مِنْ شأنها أنْ يُتَطَلَّعَ بها إلى معرفةِ ما يُخْفِيهِ المستقبلُ لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ[1] وَالأَزْلاَمُ[2] رِجْسٌ[3] مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة:90].

الوقفة الخامسة: الاستخارةُ لا تكونُ في فعلِ الواجباتِ أو المستحباتِ[4]، ولا في تركِ المحرماتِ أو المكروهاتِ، ولكنها تكونُ في المباحاتِ. كالزواجِ من فلانةٍ أو فلانٍ من الناسِ، أو مشاركةِ عِلاَّنٍ منهم في مشروعٍ اقتصادي أو اجتماعي أو ديني أو سياسي، أو السفرِ إلى المكانِ المعيَّنِ في الوقتِ المحدَّدِ، أو شراءِ شيءٍ ما أو بيعِهِ، ونحوِ ذلك من الأمورِ المباحةِ.

---

[1]- الأَنصَابُ: هي الأصنامُ والأوثانُ التي تُعْبَدُ من دون اللهِ.

[2]- الأَزْلاَمُ: هي عِيدانٌ يستعملُها الجاهليون لمعرفةِ الخيرِ من الشرِّ، والربحِ من الخسارةِ.

[3]- رِجْسٌ: نجاسةٌ وقذارةٌ.

[4]- لأنَّ الواجباتِ والمستحباتِ مطلوبٌ فعلُهَا شرعًا، فلا تحتاجُ إلى استخارةٍ. كما أنَّ المحرماتِ والمكروهاتِ مطلوبٌ تركُهَا شرعًا، فلا تتناسبُ معها الاستخارةُ. إلا أنَّهُ في بابِ المستحباتِ يُمْكِنُ أن يستخيرَ المسلمُ ربَّهُ في عددٍ منها أيُّهَا يفعلُهُ في الظرفِ المعيَّنِ؛ على أساسِ أنه لا يستطيعُ أن يأتيَ بها جميعًا، كأنْ يستخيرَ اللهَ تعالى في أن ينضمَّ إلى جمعيةٍ خيريةٍ للتكفُّلِ بالأيتامِ، أو إلى جمعيةٍ أخرى تُعْنَى بأصحابِ الإعاقاتِ، وهو بإمكانِهِ أن يفيدَ فيهما معًا، لكن ليس في الوقتِ نفسِهِ.

الوقفة السادسة: الأوقاتُ التي تُؤَدَّى فيها صلاةُ الاستخارةِ هي الأوقاتُ التي تَحِلُّ فيها النافلةُ، وهي: من بعدِ طلوعِ الشمسِ قَدْرَ رُمْحٍ -وهو ما يساوي 20 دقيقةٍ تقريبًا من بدايةِ ظهورِ قرصِ الشمسِ في الأفقِ- إلى قُبَيْل استوائِها، ومن بعدِ زوالِ الشمسِ إلى صلاةِ العصرِ، ومن بعدِ غروبِ الشمسِ إلى قُبَيْل طلوعِ الفجرِ.

والحائضُ والنفساءُ ومَنْ كان في وقتِ حرمةِ النافلةِ، إذا احتاجُوا إلى الاستخارةِ، فعليهم أن يَكْتَفُوا بالدعاءِ، مُسْتَعْمِلِينَ فيه الصيغةَ الواردةَ في صلاةِ الاستخارةِ.

الوقفة السابعة: صفةُ صلاةِ الاستخارةِ هي أن يُصَلِّيَ المسلمُ ركعتيْنِ سرًّا أو جهرًا مثلَ سائرِ الركعاتِ، ويقرأَ في كلِّ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ وما تَيَسَّرَ من القرآنِ الكريمِ -وله أنْ يقرأَ في الأُولى بسورة الكافرون، وفي الثانية بسورة الإخلاصِ-، ثم يرفعُ يديْهِ بعد السلامِ ويدعُو بالصيغةِ المأثورةِ في الاستخارةِ.

الوقفة الثامنة: الأصلُ في دعاءِ الاستخارةِ أن يُحْفَظَ، وأن يُقْرَأَ حينَ الصلاةِ عن ظهرِ قلبٍ، ولكن لا بأسَ لِمَنْ لم يَحْفَظْهُ أن يقرأَهُ من ورقةٍ أو كتابٍ. إلا أنَّ المطلوبَ في كلِّ الأحوالِ هو استحضارُ القلبِ عند الدعاءِ، والصدقُ فيه.

الوقفة التاسعة: علامةُ الخيرِ في الأمرِ انشراحُ الصدرِ له إقداماً أو إِحْجَامًا، وكذا تَيَسُّرُ أسبابِهِ.

وينبغي على المسلمِ أن لا ينتظرَ رُؤْيَا يَرَاهَا في المنام تُثَبِّطُهُ أو تشجِّعُهُ على الإقدامِ أو الإحجامِ، وأن لا ينساقَ إلى مَيْلِهِ الذاتِيِّ السابقِ للاستخارةِ.

يقول النوويُّ -رحمَهُ اللهُ-: "ينبغي أن يفعلَ بعد الاستخارةِ ما ينشرحُ له، فلا ينبغي أن يعتمدَ على انشراحٍ كان فيه هَوًى قبلَ الاستخارةِ، بل ينبغي للمستخيرِ تَرْكُ اختيارِهِ رأسًا، وإلا فلا يكون مستخيرًا، بل يكون غيرَ صادقٍ في طلبِ الْخِيَرَةِ والتَّبَرِّي من العلمِ والقدرةِ وإثباتِهما لله تعالى. فإذا صَدَقَ في ذلك تَبَرَّأَ من الْحَوْلِ والقوةِ ومن اختيارِهِ لنفسِهِ".

الوقفة العاشرة: بيانُ أنَّ النجاحَ والبركةَ والتوفيقَ في الأمورِ كلِّها يكونُ بما يأتي:

1- تفويضُ الأمرِ إلى اللهِ تعالى ابتداءً وانتهاءً بالدعاءِ، وصلاةِ الاستخارةِ، والرِّضَا بما قَدَّرَ اللهُ ﷻ: يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:60]. ويقولُ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ -رضي الله عنهما-: "إنَّ الرجلَ لَيَسْتَخِيرُ اللهَ فيختارُ له، فيتسخَّطُ على ربِّهِ، فلا يَلْبَثُ أنْ ينظرَ في العاقبةِ، فإذا هو قد خَارَ له".

2- مشورةُ أهلِ الصلاحِ والخبرةِ: وذلك بأنْ يقصدَ صاحبُ الشأنِ مَنْ يثقُ فيه من أهلِ الدينِ والفضلِ، مِمَّنْ له معرفةٌ ودرايةٌ بالموضوع الذي سوف يُؤخذ رأيُهُ فيه، ويسألُهُ؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى

بَيْنَهُمْ﴾[الشورى:38]. فإنْ شجَّعه على المُضِيّ فيه مَضَى، وإلا فإنه ينبغي عليه أن يُحْجِمَ عنه[1].

3- الْأَخْذُ بالأسبابِ الماديةِ: ولذا لَمَّا سأل صاحبُ الناقةِ النبيَّ ﷺ: "يا رسولَ اللهِ، أَعْقِلُهَا وأَتَوَكَّلُ، أو أُطْلِقُهَا وأَتَوَكَّلُ؟" قال: ﴿اعْقِلْهَا وتَوَكَّلْ﴾[رواه الترمذي].

وقد أُثِرَ عن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه أنه لَمَّا رأى مَنْ تَفَرَّغَ للعبادة في المسجد تاركًا العملَ لكسبِ الرزقِ، قال مُسْتَنْكِرًا مُوَبِّخًا: "إن السماءَ لا تُمْطِرُ ذَهَبًا ولا فِضَّةً".

وقد لَخَّصَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَةَ -عليه رحمةُ اللهِ- ما سبقَ بقولِهِ: "ما نَدِمَ مَنْ استخَار الخالقَ، وشَاوَرَ المخلُوقين، وتَثَبَّتَ في أمرِهِ".

ومسكُ الختامِ دعاءٌ والتجاءٌ إلى اللهِ، طَالِبينَ منه أن يجعلَنَا من أهلِ الاستشارةِ والاستخارةِ، وأن يباركَ لنا في جميعِ خُطْوَاتِنَا؛ إنَّهُ وَلِيُّ ذلك والقادرُ عليه، وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

---

[1]- يجبُ على مَنِ استُشيرَ أن يُخلص في النصيحة، بحيث يذكُرُ كلَّ ما يعرفُه عن هذا الموضوع بنزاهةٍ تامةٍ، ولا يتحرَّج من ذِكْرِ العيوبِ والْمَثَالِبِ المتعلقة بالأشخاص؛ فإن ذلك لا يُعَدُّ من باب الْغِيبَةِ المحرَّمةِ شرعًا، وإنما هو من باب الإخلاص في النصيحة التي قال عنها النبي ﷺ في الحديث الصحيح: ﴿الدينُ النصيحةُ﴾. قال الصحابةُ رضي الله عنهم: لِمَنْ؟ قال: ﴿للهِ ولكتابِه ولرسولِه ولأئمةِ المسلمين وعامَّتِهم﴾[رواه مسلم].

المحاضرة العاشرة

مِنْ ثمراتِ الصبرِ الجليلةِ

إنَّنَا في هذا المقامِ الكريمِ بِصَدَدِ الكلامِ عن موضوعٍ مُهِمٍّ، يتعلقُ بخُلُقٍ عظيمٍ، بحيث لو أنَّ المسلمَ ما عَرَفَ له قدرَهُ، وما تَحَلَّى به، فَاتَهُ خيرٌ كثيرٌ في الدنيا والآخرةِ. إنه خلقُ الصبرِ، وما أَدْرَاكَ ما خلقُ الصبرِ. ولذا فإنَّ النصوصَ الشرعيةَ عُنِيَتْ به عنايةً كبيرةً:

- فنجدُ مثلاً ما خَلَّدَهُ القرآنُ الكريمُ مِمَّا جاء على لسانِ العبدِ الصالحِ الحكيمِ لقمانَ عليه السلام في وصيتِهِ لابنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ[1]﴾[لقمان:17].

- وأمَّا السنةُ النبويةُ، فإنَّ مِنْ أعظمِ ما يَسْتَوْقِفُنَا فيها، ما جاء عن صهيبٍ الروميِّ رضي الله عنه عندما قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿عجبًا لأمرِ المؤمنِ، إنَّ أمرَهُ له كلَّهُ خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ؛ إنْ أصابتْهُ سَرَّاءَ شَكَرَ، فكانَ خيرًا له، وإنْ أصابتْهُ ضَرَّاءَ صَبَرَ، فكانَ خيرًا له﴾[رواه مسلم].

---

[1]- مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ: أي مِمَّا أمرَ اللهُ به عَزْمًا لا رخصةَ فيه.

وعلى هذا، فإنَّ الأصلَ في المسلمِ أن يكونَ صابرًا مُحْتَسِبًا أجرَ صبرِهِ عند اللهِ تعالى، وثَمَّةَ سيَجْنِي ثمارًا طيبةً كثيرةً. فمِنْ بين هذه الثمراتِ:

1- أنَّ الصبرَ يُوَلِّدُ في صاحبِهِ صِفَتَي الْحِلْمِ والْعَفْوِ[1]: يقول جَلَّتْ قدرتُهُ: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ[2] ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ[3] فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ[4] وَمَا يُلَقَّاهَا[5] إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[فصلت:34-35].

2- يكونُ عَوْنًا وعُدَّةً لصاحبِهِ يُجَابِهُ به مصاعبَ الحياةِ: يقول الله جلَّ في عُلاَهُ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ[6] إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ[7] أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[البقرة:45-46].

---

[1]- الحِلْمُ هو عدمُ المعاجلةِ بالعقوبةِ، والعفوُ هو الصَّفْحُ والمسامحةُ.

[2]- لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ: أي لا تكونُ الحسنةُ -ومثالُها الإيمانُ والعدلُ- كالسيئةِ -ومثالُها الكفرُ والظلمُ-، فشَتَّانَ بينهما.

[3]- ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ: أي ادفعْ أيُّها المؤمنُ السيئةَ بالخصلةِ التي هي أحسنُ، كالغضبِ بالرِّضَى، والقطيعةِ بالصلةِ. وقال ابنُ عباسٍ ﵁ في تفسيرِ هذه العبارةِ: "ادفعْ بحِلْمِكَ جهلَ مَنْ يجهلُ عليك".

[4]- وَلِيٌّ حَمِيمٌ: صديقٌ قريبٌ يهتمُّ لأمرِك.

[5]- مَا يُلَقَّاهَا: ما يُعْطَى هذه الخصلةَ الشريفةَ، وهي الْحِلْمُ والعفوُ.

[6]- لَكَبِيرَةٌ: لَشَاقَّةٌ ثقيلةٌ.

[7]- يَظُنُّونَ: يَعْلَمُونَ ويَسْتَيْقِنُونَ.

3- يُمَكِّنُهُ من الفوزِ بِمَعِيَّةِ اللهِ تعالى[1]: يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:153].

4- الظَّفَرُ بالثناءِ والمغفرةِ والرحمةِ والهدايةِ مِنَ اللهِ تعالى: قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ[2] قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ[3] أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ[4] مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة:155-157].

---

[1]- ما أحوجَ المؤمنَ إلى أن يكونَ اللهُ تعالى معه مؤيِّدًا ومسدِّدًا وموفِّقًا؛ لأنَّ مَنْ كان اللهُ معه، لم يَفْقِدْ أيَّ شيءٍ، ومَنْ لم يكنِ اللهُ معه، لم يَكْسِبْ أيَّ شيءٍ.

[2]- مُصِيبَةٌ: هي ما يُصِيبُ الإنسانَ من ضررٍ في نفسِهِ أو أهلِهِ أو مالِهِ.

[3]- إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ: أي إنَّا ملكٌ لله تعالى يتصرَّفُ فينا كيفما يشاءُ، فلَهُ أن يصيبَنَا بما أرادَ. وبما أنَّنَا إليه راجعون بالموتِ، فلا جَزَعَ ولا اضطرابَ، ولكنْ تسليمٌ لحكمِهِ، ورضًا بقضائِهِ وقدرِهِ. وقد جاء في فضلِ الاسترجاعِ -وهو قولُ: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" عند المصيبةِ- حديثُ: ﴿ما مِنْ عبدٍ تُصِيبُهُ مصيبةٌ فيقولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللهمَّ أَجِرْنِي في مصيبتِي، واخْلُفْ لي خيرًا منها، إلاَّ آجَرَهُ اللهُ في مصيبتِهِ، وأَخْلَفَ له خيرًا منها﴾[رواه مسلم]. ومِنْ لطائفِ ما يُذْكَرُ عن سلفِنَا الصالحِ أنَّ أمَّ المؤمنين أمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قالتْ: "لَمَّا تُوُفِّيَ أبُو سَلَمَةَ رضي الله عنه -وقد كان نِعْمَ الزوجُ بالنسبةِ إليها-، قلتُ كما أَمَرَنِي رسولُ اللهِ ﷺ، فأخلفَ اللهُ لي خيرًا منه: رسولَ اللهِ ﷺ."

[4]- صَلَوَاتٌ: ثناءٌ ومغفرةٌ.

5- مضاعفةُ أجرِهِ الذي يُثَقِّلُ به الصابرُ كَفَّةَ حسناتِهِ يومَ القيامةِ: يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:10].

6- نيلُ درجةِ الإمامةِ في الدينِ، ومِنْ ثَمَّةَ الظفرُ بالدرجةِ الرفيعةِ في الجنةِ: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ[1] أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:24]. ولذا كان بعضُ السلفِ يقولُون: "بالصبرِ واليقينِ، تُنَالُ الإمامةُ في الدينِ".

ولو أنَّ الإنسانَ أصبحَ إمامًا للناسِ في الدينِ، فإنَّهُ سيكونُ في أعلى المراتبِ في الجنةِ، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً[2] أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ[3] بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً[4] خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾[الفرقان:74-76].

ولْيَعْلَمِ المسلمُ أنَّ الصبرَ مطلوبٌ في فعلِ الطاعاتِ، ومطلوبٌ في تركِ الطاعاتِ، تمامًا كما هو مطلوبٌ في حالِ الابتلاءِ بالمصائبِ والنوائبِ. نقولُ هذا؛ لأنَّ المسلمَ لا يستطيعُ أنْ يثبتَ على فعلِ طاعةٍ مَا إلا إذا مَا كان صابرًا؛ إذ إنَّ الثباتَ على الطاعةِ محفوفٌ بالمكارهِ.

---

[1]- أي مِنْ بني إسرائيلَ، وهُمْ عبرةٌ لغيرِهم من الناسِ إلى يومِ القيامةِ.

[2]- إِمَاماً: قدوةً حسنةً للناسِ.

[3]- الْغُرْفَةَ: المنزلةَ الرفيعةَ في الجنةِ.

[4]- وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً: أي أنَّ الملائكةَ تستقبلُهم بالتحيةِ والتسليمِ.

وفي الوقت نفسِهِ، فإنَّ استدامةَ تركِ المعصيةِ يحتاجُ أيضًا إلى الصبرِ؛ لأنَّ المعصيةَ محاطةٌ بالشهواتِ الْمُحَبَّبَةِ للنفسِ[1].

أما فيما يتعلقُ بالصبرِ على الابتلاءاتِ التي يُمْكِنُ أن تَحِلَّ بالإنسانِ في هذه الدنيا، فإنه ينبغي أن يكونَ عند الصدمةِ الْأُولَى[2]، وهذا ما يُقَرِّرُهُ حديثُ أنسِ بنِ مالكٍ ﵁ عندما قالَ: "مَرَّ النبيُّ ﷺ بامرأةٍ تبكي عند قبرٍ فقالَ: ﴿اتَّقِي اللهَ واصْبِرِي﴾. فقالت: "إليكَ عَنِّي، فإنَّك لَمْ تُصَبْ بمصيبتِي" -ولَمْ تَعْرِفْهُ-، فقيلَ لها: "إنَّهُ النبيُّ ﷺ"، فأتَتْ بَابَهُ فلَمْ تَجِدْ عنده بَوَّابِينَ، فقالتْ: "لَمْ أَعْرِفْكَ"، فقالَ: ﴿إنما الصبرُ عند الصدمةِ الْأُولَى﴾"[متفق عليه].

نسألُهُ جلَّ وعلاَ أن يجعلَنَا من الصابرِين المحتسِبين، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:250]، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[الأعراف:126]، وصلِّ اللهمَّ وسلِّمْ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ تبعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

---

[1]- مصداقُ ذلك قولُ النبيِّ ﷺ: ﴿حُفَّتِ الجنةُ بالمكارِهِ، وحُفَّتِ النارُ بالشهواتِ﴾"[رواه الترمذي].

[2]- هذا هو الصبرُ الحقيقيُّ؛ لأنَّهُ إذا ما جَزِعَ وأَبْدَى تسخُّطَهُ عند الصدمةِ الأولى، ثم زَعَمَ بعد مدةٍ بأنَّهُ صابرٌ، فهو لا يَعْدُو حينئذٍ أن يكونَ مُسْتَسْلِمًا للأمرِ الواقعِ.

المحاضرة الحادية عشرة

مِنْ فضائلِ العلــمِ وآدابِ طالبــهِ[1]

أوجب الإسلامُ طَلَبَ العلمِ على المسلمين، وجعلَهُ من أعظمِ القرباتِ التي يتقرَّبُ بها المسلمُ إلى ربِّهِ[2]، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿طَلَبُ

[1]- الوقتُ الأمثلُ للتطرُّقِ لهذا الموضوعِ هو السادسُ عشرَ من شهرِ أفريل الذي يُوَافِقُ عند الجزائريِّين عيدَ العلمِ المرتبطَ بذكرى وفاةِ العلامةِ عبدِ الحميدِ بنِ باديسَ. كما يُمْكِنُ أن يُثَارَ في مُسْتَهَلِّ السنةِ الدراسيةِ، حتى يَتَحَفَّزَ به التلاميذُ على طلبِ العلمِ.

[2]- مع هذا الإيجابِ الشرعيّ، فإنَّ حالةَ المسلمين عمومًا، والعربِ خصوصًا، فيما يتعلقُ بالمطالعةِ والنشرِ والتعليمِ لا تُنْبِئُ بخيرٍ؛ فقد أفادَ تقريرٌ أُمَمِيٌّ حولَ عاداتِ المطالعةِ لَدَى الشعوبِ أنَّ حصةَ العالَمِ العربيّ صادمةٌ جدًّا، حيث كان نصيبُهُ هو ربعُ صفحةٍ سنويًّا لكلِّ فردٍ، في مقابلِ 11 كتابًا للفردِ الأمريكيِّ، و8 كتبٍ للبريطانيِّين. وتأتي هذه الإحصائياتُ المخيفةُ لتأكيدِ ما ذهبَ إليه التقريرُ العربيُّ للتنميةِ والثقافةِ الذي يُقَدِّمُ تشخيصًا لواقعِ النشرِ العربيّ الذي وصفَهُ بالمتدنِّي، وقَدَّمَ التقريرُ أرقامًا مخيفةً عن واقعِ التعليمِ العربيّ مقارنةً بما هو موجودٌ عالميًّا، حيث لا يتجاوزُ معدلُ الالتحاقِ بالتعليمِ عربيًّا 21.8%، في الوقتِ الذي تصلُ فيه هذه النسبةُ إلى 91% في كوريا الجنوبيةِ، و72% في أستراليا، ووصلتْ ذاتُ النسبةِ في إسرائيلَ إلى 58%، ولا يُنْتِجُ العربُ إلا كتابًا واحدًا لكلِّ 12 ألفَ مواطنٍ عربيٍّ، مقابلَ كتابٍ لكلِّ 500 فردٍ إنجليزيٍّ،=

الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ﴾[رواه الطبراني وابن ماجة]. وقال أيضًا: ﴿مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، كَانَ فِي سَبِيلِ الله حَتَّى يَرْجِعَ﴾[رواه الترمذي].

ومِنْ بابِ تحبيبِ المسلمين في العلمِ وطلبِهِ، فإنَّ النصوصَ الشرعيةَ قد عَرَضَتْ مجموعةً من الفضائلِ والبركاتِ والخيراتِ التي تَتَرَتَّبُ عليهما، فمِنْ بين هذه الفضائلِ:

1- أن العالِمَ بعلمِهِ يَعْرِفُ رَبَّهُ، ومن ثَمَّةَ يُوَحِّدُهُ، بل يصبحُ داعيةً إلى ذاك التوحيدِ: قال ﷻ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران:18].

=وكتابٍ لكلِّ 900 ألمانيّ، كما تشيرُ إحصائياتُ منظمةِ التربيةِ والتعليمِ الدوليةِ "اليونسكو"، ومنظمةِ "أليسكو" العربيةِ، إلى أنَّ معدلَ قراءةِ الفردِ العربيِّ هو ستُّ دقائقَ في السنةِ. ينظر: جريدة الشروق اليومي، عدد: 2458، يوم: 19 ذو القعدة 1429هـ / 17 نوفمبر 2008م، ص21، بشيءٍ من التصرفِ. وأنا عندما أنقلُ هذه الحقائقَ، ليس من بابِ التشاؤمِ، أو تثبيطِ العزائمِ، وإنما أريدُ أن أُحَسِّسَ نفسي وإخواني وأخواتي في اللهِ تعالى بالحالِ التي نحن عليها؛ حتى نراجعَ أنفسَنَا، فيَعْكِفَ العالِمُ على تعليمِ الناسِ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ تعالى، ويسعَى الأمِّيُّ إلى مَحْوِ أُمِّيَّتِهِ، ويحرصَ القارئُ الكاتبُ على زيادةِ تحصيلِ العلمِ، وثَمَّةَ نكونُ في مستوى دينِنَا الذي مَجَّدَ العلمَ، إلى درجةِ أن كتابَهُ الخالدَ اسْتُفْتِحَ من حيث النزولُ بقولِهِ تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق:01-05].

2- جَعَلَ اللهُ ﷻ الذين يطلبونه في أعلى مراتبِ خلقِهِ: قال ﷻ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة:11].

3- أنَّ الملائكةَ تضعُ أجنحتَهَا لهم تكريمًا واعترافًا بعُلُوِّ مكانتِهم: قال الرسولُ ﷺ: ﴿إِنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَفْعَلُ﴾[رواه أحمد والترمذي].

4- يُحَقِّقُ الخشيةَ من اللهِ ﷻ: قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر:28].

5- أنَّ أجرَ العالِمِ المعلِّمِ يبقى مستمرًّا ما انتفعَ الناسُ بعلمِهِ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿إذا ماتَ ابنُ آدَمَ انقطعَ عملُهُ[1] إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ[2]، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به[3]، أو ولدٍ صالحٍ يَدْعُو له[4]﴾[رواه مسلم].

---

[1]- انقطعَ عملُهُ: أي انقطعَ وصولُ أجرِ وثوابِ الأعمالِ الصالحةِ إليه.

[2]- صدقةٍ جاريةٍ: هي كلُّ ما يتركُهُ المسلمُ بعد مماتِهِ وقفًا لله تعالى، بحيث يتجدَّدُ أجرُ ذاك المتروكِ، كُلَّمَا تجدَّدَ استعمالُهُ.

[3]- العلمُ الذي يُنْتَفَعُ به بعد موتِ صاحبِهِ قد يكونُ قد أُخِذَ عنه شفاهيًّا، ويَتَنَاقَلُهُ الناسُ عنه، أو كتابيا في شكلِ كُتُبٍ وصحائفَ يتداولها القراءُ.

[4]- وهذه مِنْ بركاتِ تربيةِ الأولادِ التربيةَ الحسنةَ؛ إذ إنهم يُفِيدُونَ آباءَهم وأمهاتِهم من حيث وصولُ الأجرِ إليهم حتى وهُمْ في العالَمِ الأخرويِّ، وذلك من خلالِ التصدُّقِ عليهم، والاستغفارِ والدعاءِ لهم. أما إذا كانت التربيةُ سيئةً، فإنَّ الوالديْنِ لا يلحقُهما من وَلَدِهما إلا الْوَبَالُ في الدنيا والآخرةِ.

وإذا افترضْنَا أنَّ المسلمَ قد استجابَ إلى هذه النصوصِ الشرعيةِ، فأرادَ أن يكونَ طالبًا للعلمِ، سواء كان هذا العلمُ شرعيًّا -كعلمِ الفقهِ أو التفسيرِ أو القراءاتِ ونحوِها- أم كونيًّا -كالطبِّ أو الهندسةِ أو الفلكِ ونحوِها-[1]؛ حتى يتعبَّدَ إلى اللهِ تعالى بذلك، ويَظْفَرَ بفضائلِ العلمِ الكثيرةِ، فإنَّهُ لا بُدَّ أن يتحلَّى بمجموعةٍ من الآدابِ، نذكرُ أهمَّهَا فيما يأتي:

1- الأمانةُ العلميةُ: وذلك بأن لا ينقلَ من المعلوماتِ إلا ما تَوَثَّقَ منه، وأن يَنْسِبَ الأقوالَ إلى أصحابها، وإلا فإنه يُعَدُّ خائنًا، والخيانةُ من صفاتِ المنافقين التي قال فيها النبيُّ ﷺ: ﴿أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقًا[2] خالصًا، ومَنْ كانت فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ من النفاقِ حتى

---

[1]- الأمةُ الإسلاميةُ في حاجةٍ إلى سائرِ العلومِ الشرعيةِ والكونيةِ؛ حتى تكتفيَ ذاتيًّا، ويقوَى كيانُهَا، ولا تكونَ عالةً على غيرِهَا من الأممِ، ولا عُرْضَةً لطمعِ أعدائِهَا فيها. أُذَكِّرُ بهذا؛ لأنَّ بعضًا من المسلمين يعتبرُ أنَّ المقصودَ بالعلمِ الْمُمَجَّدِ في النصوصِ الشرعيةِ إنَّمَا هو علمُ الشريعةِ فقط، ومِنْ ثَمَّةَ يستصغرُ من شأنِ سائرِ العلومِ، مع أنَّهَا جميعًا من فروضِ الكفاياتِ على المسلمين، بحيث لو أنَّ حاجةَ الأمةِ لم تُسَدَّ في علمٍ منها لَأَثِمَ كلُّ أفرادِهَا، ومَنْ تطوَّعَ للتخصصِ في علمٍ من تلك العلومِ، فهو على ثَغْرٍ من ثغورِ الإسلامِ، يُؤْجَرُ على ذلك، إذا استحضرَ نيةَ خدمةِ الإسلامِ والمسلمين.

[2]- منافقًا: أي منافقًا النفاقَ العمليَّ الذي لا يُخْرِجُ من الملةِ، لا النفاقَ الاعتقاديَّ الْمُخْرِجَ من الملةِ؛ على أساسِ أنَّ في هذا الأخيرِ إظهارًا للإسلامِ، وإِبْطَانًا للكفرِ.

يَـدَعَهَا: إذا اؤْتُمِـنَ خـانَ، وإذا حَـدَّثَ كَـذَبَ، وإذا عاهَـدَ غَـدَرَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ[1]》[رواه الشيخان].

2- التواضعُ: وذلك بأن يُلِينَ الجانبَ لشيخِهِ ولزملائِهِ ولسائرِ الناسِ ولـو كـانوا أقلَّ منه علمًـا، فـلا يَسْتَبِدُّ به الْعُجْبُ والغـرورُ؛ لأنـه يُدْرِكُ بيقينٍ أنَّ العلمَ بَحْرٌ لا شاطئَ له، ولا يستطيع أحدٌ أن يَصِلَ إلـى قَرَارِهِ، وصَدَقَ اللهُ إذْ يقولُ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[الإسراء:85].

3- العملُ بِمُقْتَضَى العلمِ: فإن كـان العلـمُ شرعيًّا أصلحَ به حالَهُ، وإن كان دنيويًّا أفادَ به أمتَهُ؛ لأنَّ طالبَ العلمِ يعلـمُ بأنَّ ربَّهُ ﷻ سيسألُهُ يومَ القيامةِ عـن أربع نعمٍ مِنْ بينها العلـمُ، يقـول النبيُّ ﷺ: 《لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[2] حَتّى يُسْأَلَ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ[3]، وَعن عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فيـه، وعـن مَالِـهِ مِـنْ أَيْـنَ اكْتَسَـبَهُ وَفـيمَ أَنْفَقَـهُ، وعـن جِسْـمِهِ فِـيمَ أَبْلاَهُ[4]》[رواه الترمذي].

4- نشرُ العلمِ: فلا خيرَ في علمٍ يُكْتَمُ، كما أَنَّهُ لا خيرَ في مالٍ يُكْنَزُ، ولذا كان النبيُّ ﷺ يَحُضُّ أصحابَهُ على تبليغِ ما يسمعونَهُ منه؛ لِيَنْتَفِعَ به

---

[1]- إذا خاصمَ فَجَرَ: أي إذا تشاجرَ مع غيرِهِ فعلَ ما فيه فجورٌ وفسقٌ وخروجٌ عن طاعةِ اللهِ تعالى، كأنْ يَسُبَّ أو يَشْتُمَ أو يقذفَ خصمَهُ.

[2]- لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أي لا تتحركُ من ساحةِ المحشَرِ يومَ القيامةِ لِتَعْرِفَ مصيرَهَا النهائيَّ الجنةَ أم النارَ.

[3]- أَفْنَاهُ: قَضَاهُ وأمضاهُ.

[4]- أَبْلاَهُ: أَنْهَكَهُ وأَتْعَبَهُ.

غيرُهم، قال ﷺ: ﴿بلِّغوا عنِّي ولو آيةً﴾[رواه البخاري]. ولم يَكْتَفِ ﷺ بالحثِّ على نشرِ العلمِ فقط، بل رَهَّبَ مِنْ كتمانِهِ، فقال: ﴿مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ﴾[رواه الترمذي].

5- الاستزادةُ منه: فطالبُ العلمِ الحقيقيُّ يُلاَزِمُ العلمَ من بدايةِ طلبِهِ إيَّاهُ، إلى غايةِ أن ينتقلَ إلى الرفيقِ الأعلى. ولذا ما أَمَرَ اللهُ تعالى عبادَهُ في القرآنِ الكريمِ بالاستزادةِ من شيءٍ إلا من العلمِ، قال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[طه:114]. وقد أُثِرَتْ عن الإمامِ أحمد مقالةٌ، ينبغي أن يجعلَها كلُّ طالبِ علمٍ نَصْبَ عينيْهِ: "مع الْمِحْبَرَةِ، إلى المقبرةِ".

نسألُهُ ﷻ أن يجعلَنا من ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[الزمر:18]، كما نسألُهُ أن يعلِّمَنا ما جهلْنَا، وأن ينفعَنَا بما عَلَّمَنَا؛ إنَّهُ وليُّ ذلك والقادرُ عليه، وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

المحاضرة الثانية عشرة

مِنْ مظاهرِ أدبِ المؤمنِ مع اللهِ تعالى

إذا كان مِنْ واجبِ المسلمِ أنْ يتأدبَ مع والديْهِ اللذيْنِ كَانَا سببًا في وجودِهِ في هذه الدنيا، وكذا أن يتأدبَ مع مُعَلِّمِيهِ الذين أخرجُوهُ من ظلمةِ الجهلِ إلى نورِ العلمِ، فإنه مِنْ بابِ أَوْلَى يجبُ عليه أنْ يتأدبَ مع اللهِ تعالى ربّهِ وإِلَهِهِ[1]. ومظاهرُ الأدبِ مع اللهِ ﷻ كثيرةٌ نذكرُ منها ما يأتي[2]:

1- الإخلاصُ له: وذلك بأنْ يبتغيَ المسلمُ بعملِهِ الدنيويّ أو الدينيّ وجهَ اللهِ تعالى وحدَهُ، ولا يبتغيَ به رياءً أو سمعةً أو عَرَضًا دنيويًّا رخيصًا. وهذا ما أَمَرَ اللهُ تعالى به الأوَّلين والآخِرين، قال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:05].

واللهُ تعالى لا يَقْبَلُ من الأعمالِ إلا ما كان خالصًا لوجهِهِ الكريمِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿إنَّ اللهَ طيبٌ لا يَقْبَلُ إلا طيبًا[3]﴾[رواه مسلم].

---

[1]- الربُّ هو الخالقُ، والإِلَهُ هو المعبودُ.

[2]- إذا اتَّصَفَ المسلمُ بما يأتي فهو متأدبٌ مع ربِّهِ، وإلاَّ فَلاَ.

[3]- لا يَقْبَلُ إلا طيبًا: أي: لا يُثِيبُ عن الأعمال إلا ما كان منها خالصًا لوجهِهِ، ولا يُثِيبُ عن الصدقاتِ إلا ما كان منها من مالٍ حلالٍ.

وقال أيضًا: ﴿إنما الأعمالُ بالنياتِ، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نَوَى. فمَنْ كانت هجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ، فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ، ومَنْ كانت هجرتُهُ إلى دنيا يُصِيبُهَا، أو امرأةٍ يتزوجُّهَا، فهجرتُهُ إلى ما هاجرَ إليه[1]﴾[متفق عليه].

2- التوكُّلُ عليه: وذلك بأنْ يعتمدَ المسلمُ عند قيامِهِ بأعمالِهِ كلِّهَا على الله تعالى صاحبِ القدرةِ المطلَقَةِ؛ إذ إنَّ المسلمَ يُوقِنُ بأنَّ قدرتَهُ محدودةٌ، وأنَّ التوفيقَ لن يحصلَ له إلا بالتوكلِ على اللهِ تعالى وتفويضِ الأمرِ إليه. وفي هذا يقولُ تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة:51].

إلا أنَّ التوكلَ على اللهِ ﷻ لا يعني التواكلَ وعدمَ الأخذِ بالأسبابِ الماديةِ، ولذا فإنَّ النبيَّ ﷺ صَوَّبَ للصحابةِ ﷺ مفهومَ التوكلِ، لَمَّا سألَهُ صاحبُ الناقةِ قائلاً: "يا رسولَ اللهِ، أَعْقِلُهَا[2] وأَتَوَكَّلُ، أو أُطْلِقُهَا وأَتَوَكَّلُ؟" فقالَ: ﴿اعْقِلْهَا وتَوَكَّلْ﴾[رواه الترمذي].

3- الخوفُ والرجاءُ: وذلك بأنْ يَخْشَى المسلمُ عقابَ اللهِ تعالى العاجلَ أو الآجلَ إنْ هو عَصَاهُ وخَالَفَ شرعَهُ، وفي الوقت نفسِهِ يطمعُ في أنَّهُ تعالى سيُعْطِيهِ من خَيْرَي الدنيا والآخرةِ إنْ هو أطاعَهُ

---

[1]- وقد ذُكِرَ في سببِ ورودِ هذا الحديثِ أنَّ رجلاً هاجرَ من مكةَ إلى المدينةِ لا يريدُ بذلك فضيلةَ الهجرةِ، وإنما ليتزوجَ امرأةً تسمَّى "أمُّ قيسٍ"، فكان يُقَالُ له: "مهاجرُ أمِّ قيسٍ"، ولهذا خُصَّ في الحديثِ ذِكْرُ المرأةِ دون سائرِ ما يُنْوَى.

[2]- أَعْقِلُهَا: أَرْبِطُهَا بالْعِقَالِ. والْعِقَالُ حبلٌ يُشَدُّ به الجملُ أو الناقةُ.

واتَّقَاهُ. يقولُ تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ[1]﴾[الحجر:49-50].

وبالخوفِ والرجاءِ يكونُ المسلمُ مُتَّزِنًا؛ فهو لا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ تعالى، ولا يَقْنَطُ من رحمتِهِ.

4- الصبرُ: وذلك بأنْ يتحمَّلَ المسلمُ كلَّ ما يُصِيبُهُ في سبيلِ اللهِ تعالى، فهو يصبرُ على طاعتِهِ، فَيَثْبُتُ على القيامِ بها، ويصبرُ على عدمِ معصيتِهِ، فَيُلْزِمُ نفسَهُ باستدامةِ اجتنابِهَا، ويصبرُ على ما يَجِدُهُ من أنواعِ الابتلاءاتِ كالفقرِ والمرضِ ونحوِهما.

ولذا أرشدَ لقمانُ الحكيمُ ابنَهُ في وصيتِهِ الجامعةِ إلى الصبرِ فقالَ له: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[القمان:17].

---

[1]- في قولِهِ تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ رجاءٌ، وفي قولِهِ: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ تخويفٌ. وهذا هو شأنُ كثيرٍ من النصوصِ الشرعيةِ، التي تريدُ من المسلمِ أن يعيشَ دائمًا بن الخوفِ والرجاءِ، فتصفُ له النارَ مثلاً؛ حتى يخافَ من عذابِهَا، ثم تصفُ له الجنةَ؛ حتى يرجُو نعيمَهَا. ومن ذلك قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر:47-55].

وضربَ لنا النبيُّ ﷺ المثلَ الأعلى في الصبرِ؛ إذ إنه رغمَ ما كان يَجِدُهُ من كيدِ أعدائِهِ، ورغمَ ما ابْتُلِيَ به مِنْ فَقْدِ أحبابِهِ من آلِ بيتِهِ[1] ومن أصحابِهِ[2]، إلا أنه كان صابرًا مُحْتَسِبًا.

5- الشكرُ: فالذي يَمُنُّ اللهُ تعالى عليه بنعمةٍ معيَّنَةٍ -وما أكثرَ نعمَهُ جلَّ وعلاَ علينا[3]-، عليه أن يَسْتَشْعِرَ قلبيًّا أنَّ هذه النعمةَ مَسُوقَةٌ من الله تعالى إليه، ثم يَحْمَدُهُ تعالى عليها لفظيًّا، ويُسَخِّرُهَا هي وسائرَ نِعَمِ اللهِ عليه فيما يُرْضِيهِ عنه سبحانه.

وهذا المعنى المتكامِلُ للشكرِ كان حاضِرًا في سائرِ حياتِه ﷺ، ومِمَّا يُؤَكِّدُ ذلك حديثُ عائشةَ رضي الله عنها أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يقومُ من الليل حتىَّ تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فقالت له: "لِمَ تصنعُ هذا، وقد غُفِرَ لك ما

---

[1]- ماتَ جميعُ أبنائِهِ ذكورًا وإناثًا في حياتِهِ، عَدَا فاطمة رضي الله عنها التي لَحِقَتْ به بعد ستةِ أشهرٍ من وفاتِهِ، وفَقَدَ في عامٍ واحدٍ -وهو العاشرُ من بعثتِهِ- عمَّهُ أبا طالبٍ -وهو حِصْنُهُ المنيعُ من أهلِ مكةَ-، وزوجَهُ خديجةَ رضي الله عنها -وهي الْمُوَاسِيَةُ له ماديًّا ومعنويًّا-.

[2]- اسْتُشْهِدَ مثلاً في غزوةِ أحدٍ وَحْدَهَا سنة 3هـ سبعُون صحابيًّا، من بينهم سيدُ الشهداءِ عمُّهُ حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ، وأولُ سفيرٍ في الإسلامِ مصعبُ بنُ عُمَيْرٍ رضي الله عن الصحابةِ جميعا.

[3]- مصداقُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم:34].

تَقَدَّمَ من ذنبك وما تأخَّرَ؟". فقال: ﴿أفلاَ أحبُّ أنْ أكونَ عبدًا شكورًا﴾[رواه الشيخان].

ولو أنَّ المسلمَ شَكَرَ ربَّهَ على هذا النحوِ، فإنه سيزيدُهُ من فضلِهِ الواسعِ. يقولُ ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم:07].

6- حسنُ الظنِّ به: وذلك بأنْ لا يعتقدَ المسلمُ بأنَّ ربَّهُ غيرُ مُطَّلِعٍ عليه، ومِنْ ثَمَّةَ يَتَجَرَّأُ على معصيتِهِ، فإنَّ هذا شأنُ الكافرين الذين قالَ فيهم تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ[1] فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[فصلت:22-23].

كما أنَّه يُطِيعُهُ وينتظرُ أنْ يَتَقَبَّلَ منه طاعتَهُ، ويُجَازِيَهُ على حسنِ عملِهِ. يقولُ ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل:97].

نسألُهُ جلَّ في عُلاَهُ أن يرزقَنَا حسنَ الأدبِ معه، وأن يتقبَّلَ مِنَّا سائرَ صالحاتِنَا، وأن يُمِيتَنَا ونحن على أحسنِ حالٍ، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:180-182].

---

[1]- أَرْدَاكُمْ: أَهْلَكَكُمْ.

المحاضرة الثالثة عشرة

ما الذي ينبغي أن نفعلَهُ تُجاهَ ما يحدث لإخوانِنَا المُعْتَدَى عليهم في غَزَّةَ

إنَّ إخوانَنَا في غزةِ هاشمٍ[1] رغمَ استمرارِ الحصارِ عليهم، وقد تجاوزَ السنتيْنِ، يتعرَّضُون الآنَ[2] إلى هجومٍ شرسٍ همجيٍّ من قِبَلِ اليهودِ الْمُتَصَهْيِنِينَ، مَدْعُومِينَ عسكريًّا وسياسيًّا من طرفِ الدولِ التي تُسَمَّى بالكبرى غَرْبِيّهَا وشَرْقِيّهَا، وأنا في لَفَحِ هذه الحالِ المأساويةِ، والكارثةِ الإنسانيةِ، أريدُ أن أُوصِيَ نفسي وإخواني وأخواتي في اللهِ تعالى بفعلِ بعضٍ من الأمورِ التي من شأنِهَا أن تخفِّفَ عَنَّا من العبءِ الثقيلِ الذي ينتظرُنَا بين يدي اللهِ تعالى لَمَّا يسألُنَا عن قضيةِ فلسطينَ عمومًا، وعن قضيةِ غزةَ الآنَ خصوصًا. هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ ثانيةٍ، لَعَلَّنَا نُسْهِمُ ولو بوجهٍ مَا في مواساةِ إخوانِنَا في مِحْنَتِهِمْ، والتخفيفِ عنهم من حِدَّتِهَا. ومن جهةٍ أخرى؛ حتى نَعْصِمَ سائرَ بلادِ الإسلامِ من أيِّ اعتداءٍ مُحْتَمَلٍ مستقبلاً –لا قَدَّرَ اللهُ تعالى–. وهذه الأمورُ التي ينبغي أن نفعلَهَا أُورِدُهَا على النحوِ الآتي:

---

[1]– سُمِّيَتْ بذلك نسبةً إلى هاشمٍ الجدِّ الثانيِّ للنبيِّ ﷺ؛ لأنَّهُ دُفِنَ بها.

[2]– كُتِبَ هذا الموضوعُ أثناءَ اعتداءِ اليهودِ على أهلِ غزةَ في أواخرِ شهرِ ديسمبر سنة 2008م، وثُلُثَيْ شهرِ جانفي الأولى سنة 2009م.

1- أن نتأكَّدَ من العداوةِ والبغضاءِ التي يُكِنُّهَا اليهودُ والنصارى لنا نحن المسلمين: وهذا يجعلُنَا نحذَرُ مِمَّا يُصَدِّرُونَهُ لنا في سائرِ المجالاتِ السياسيةِ والاقتصاديةِ والاجتماعيةِ المختلفةِ؛ إذ إنَّهم في الغالبِ لا يأتينا منهم إلا الشرُّ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[البقرة:120].

2- أن نُفَعِّلَ القضيةَ في جميعِ الأوساطِ والمناسباتِ وبشتَّى الطرقِ المشروعةِ[1]: ومِمَّا يُمْكِنُ أن نُفَعِّلَ به القضيةَ:

- الكلامُ عنها مع الأهلِ والأصحابِ.
- متابعةُ ومشاهدةُ ما يَحْدُثُ باستمرارٍ[2].

---

[1]- قلتُ: "المشروعة"؛ لأنَّ بعضَ الطائشين من المراهقين والشبابِ بحجةِ التضامنِ مع إخوانِهم الْمُعْتَدَى عليهم، يُخَرِّبُ الممتلكاتِ العامةَ والخاصةَ، فهذا لا يجوزُ من الناحيةِ الشرعيةِ، وإلاَّ كُنَّا مثلَ اليهودِ الذين خَرَّبُوا بيوتَهم ذاتَ يومٍ -في غزوةِ بني النضيرِ سنة 4هـ- بأيديهم وأيدي المؤمنين.

[2]- مِنَ الخطأِ أن يقولَ بعضُهم: "إنَّا لم نَعُدْ نتحمَّلْ رؤيةَ مشاهدِ القتلِ والحصارِ والدمارِ"؛ لأنَّ هذه المقالةَ تلبيسٌ شيطانيٌّ، يريدُ أن يُبْعِدَ به المسلمَ عن القضيةِ، حتى ينسَاهَا ويتخلَّى عن خدمتِهَا، ومعلومٌ أنَّ ما كان بعيدًا عن العينِ، فهو بعيدٌ عن القلبِ.

- عقدُ وقفاتٍ وندواتٍ ومعارضَ تُعَرِّفُ بالقضيةِ وجذورِها وخلفيَّاتِهَا وأبعادِهَا.

- كتابةُ الشعرِ والنثرِ ونشرُهما في القنواتِ المرئيةِ والمسموعةِ والمقروءةِ.

- مقاطعةُ البضائعِ التي ثبتَ أنَّ أصحابَهَا مُتَصَهْيِنُونَ[1].

- الاتصالُ ببعضٍ من إخوانِنَا هناك هاتفيًا؛ حتى نصبِّرَهم ونثبِّتَهم ونزيدَ من عَزْمِهم، ونرفعَ من معنويَّاتهم.

---

[1]- مِمَّا يُؤْسِفُـــــنِي كثيرًا أنَّ بعضًا من المسلمين إذا ذَكَّرْتَهُ بأنَّ السلعةَ المعيَّنَةَ -ولْتَكُنْ مثلاً كوكا كولا وأخواتَهَا من المشروباتِ الغازيةِ- قد ثبتَ أنَّ نسبةً محدَّدَةً من عوائدِهَا تَذهبُ إلى دَعْمِ اليهودِ وكيانِهم، يقولُ لك: "وما الذي سيؤثِّرُ به استهلاكِي لهذه السلعةِ أو عدمُهُ أنا كَفَرْدٍ نكرةٍ في العالَمِ". وهاهنا نجدُ أنَّ هذا المسلمَ -رغمَ البدائلِ المحليةِ لهذا المشروبِ ونحوِهِ من سائرِ السلعِ، ورغمَ أنَّهُ من كماليَّاتِ الحياةِ، لا من ضروريَّاتِهَا- قد أَنْسَاهُ الشيطانُ بأنَّهُ جزءٌ لا يتجزَّأُ من أمةِ الإسلامِ التي بلغَ عددُ أفرادِهَا في العالَمِ اليومَ حدودَ المليارِ ونصفِ المليارِ، وأنَّهُ لو قاطعَ كلُّ واحدٍ من هؤلاءِ هذه السلعةَ، فإنَّ مُنْتِجِيهَا سيَفْقِدُونَ سوقًا كبيرةً من الأسواقِ التي يُرَوِّجُونَ فيها سِلَعَتَهُمْ، الأمرُ الذي يؤدي إلى نَقْصِ حجمِ الدعمِ الماديِّ للكيانِ اليهوديِّ. وبِحُكْمِ تعلُّقِهم بالدرهمِ والدينارِ كما قال عنهم تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾[البقرة:96]، فإنَّهم سيؤثِّرون بوجهٍ مَا في صنَّاعِ القرارِ في العالَمِ؛ حتى يُرَاجِعُوا سياساتِهم الْمُجْحِفَةَ تُجَاهَ العالَمِ الإسلاميِّ.

وشعارُنا في هذا دائمًا الأثرُ القائلُ: "مَنْ لم يَهْتَمَّ بأمرِ المسلمين فليس منهم"[1].

3- أن نتضامنَ معهم معنويًّا وماديًّا: وذلك من خلالِ إبداءِ الألمِ والتحسُّرِ لِمَا يواجهُهُ إخوانُنَا من اعتداءٍ وهمجيَّةٍ تتنافَى مع جميعِ المبادئِ الإنسانيةِ.

ثم لا نبقى عند هذا الحدِّ من الشعورِ، بل ينبغي أن نَمُدَّ لهم يَدَ الْعَوْنِ، ونجاهدَ معهم بأموالِنَا وممتلكاتِنَا[2].

نفعلُ هذا ونحن نجعلُ نَصْبَ أعينِنَا قولَ النبيِّ ﷺ: ﴿مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمِهم وتعاطفِهم مثلُ الجسدِ، إذا اشتكَى منه عضوٌ تَدَاعَى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ والْحُمَّى﴾[رواه مسلم].

4- الدعاءُ لهم بالنصرِ والفرجِ بإلحاحٍ وحضورِ قلبٍ: يكون هذا مِنَّا في صلواتِنَا وخَلْوَاتِنَا وأسحارِنَا وقُنُوتِنَا. ولْنَعْلَمْ أنَّ الدعاءَ سلاحٌ فعَّالٌ، نتصلُ من خلالِهِ بالعزيزِ الجبَّارِ ﷻ الذي يفعلُ ما يريدُ، ونفوِّضُ الأمرَ إليه، لا سِيَّمَا وأنَّهُ أمرَنَا بالدعاءِ، ووعدَنَا بالإجابةِ. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:60].

---

[1]- هذه المقالةُ رغمَ أنَّ معناها صحيحٌ، إلا أنَّهَا لم تثبتْ في نسبتِهَا للنبيِّ ﷺ.

[2]- تُشْكَرُ الجزائرُ حكومةً وشعبًا على المساندةِ الماديةِ والمعنويةِ الدائمةِ وغيرِ المشروطةِ للقضيةِ الفلسطينيةِ.

5- عدمُ اليأسِ من نصرِ الإسلامِ والمسلمين: ذلك أنَّهُ قد وقعَ مثلُ هذا للمسلمين في تاريخِهم الطويل أكثرَ من مرةٍ: كأيامِ الصليبيّين قُبَيْلَ صلاحِ الدينِ الأيوبِي، وأيامِ التَّتَارِ قُبَيْلَ سيفِ الدينِ قُطْزْ، وأيامِ فرنسا في الجزائرِ قبلَ وأثناءَ الحربِ التحريريةِ المظفَّرَةِ. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ[1] إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف:87].

وعلى هذا، فلا يزيدُنَا ما يحدثُ لإخوانِنَا إلا إصرارّا على الدفاعِ عن الْمُغْتَصَبَاتِ والمقدساتِ إلى غايةِ النصرِ والتمكينِ.

6- التوبةُ إلى اللهِ تعالى من ذنوبنا، والرجوعُ عن خلافاتِنَا: فإنَّ مِنْ شُؤمِ الذنوبِ والخلافاتِ أن يتجرَّأَ عدوُّنَا علينا، يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:41]، ويقول أيضًا: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال:46]، وما انهزامُ المسلمين في غزوةِ أحدٍ إلا بسببِ معصيةِ بعضٍ من الصحابةِ رضي الله عنهم للنبيّ ﷺ.

وفي خاتمةِ هذا المناصحةِ، أريدُ أن أقولَ: رغمَ بشاعةِ الجريمةِ المرتكَبَةِ في حقِّ إخوانِنَا في غزةَ، ورغمَ الخسائرِ البشريةِ والماديةِ

---

[1]- رَوْحِ اللّهِ: فَرَجِهِ وتنفيسِهِ.

الجسيمةِ المترتِّبَةِ عليها، إلا أنَّ هناك مِنَحًا إلهيةً كثيرةً[1]، يُمْكِنُ أن يلاحِظَهَا المتأمِّلُ في الأحداثِ والمتفاعلُ معها، فمِنْ هذه الْمِنَحِ:

1- فضحُ المتخاذِلين والخائنين والمتآمِرين مِنْ بني جلدتِنَا على أمتِهم مع أعدائِها، وبيانُ الصادقين.

2- كشفُ ضعفِ الكيانِ اليهوديِّ من حيث قوتُهُ وترسانتُهُ العسكريةُ والاستخباريةُ المزعومةُ.

3- إبرازُ جرائمِ الكيانِ اليهوديِّ الفظيعةِ للعالَمِ، الأمرُ الذي جعلَهُ يَفْقِدُ متعاطفين ومتعاونين معه.

4- كسبُ تعاطفٍ عالَمِيٍّ من غيرِ المسلمين مع القضيةِ الفلسطينيةِ، سواء كانوا حكوماتٍ أو منظماتٍ أو أفرادًا.

5- جمعُ شتاتِ الفصائلِ الفلسطينيةِ المقاوِمَةِ بعد طولِ تفرّقٍ، وتذكيرُهَا بأنَّ عدوَّهَا الحقيقيَّ واحدٌ، وهو الكيانُ اليهوديُّ.

---

[1]- رغمَ هذه المنحِ الكثيرةِ التي سنعدِّدُها، إلا أنَّ هذا لا يَعْنِي أَنَّنَا نتمنَّى استمرارَ هذا الوضعِ أو تكرارَهُ، بل إنَّنَا ندعُو اللهَ دائمًا وأبدًا أن يعافيَنَا من تسلُّطِ العدوِّ علينا، وهذا ما قرَّرَهُ حديثُ عبدِ اللهِ بنِ أبي أَوْفَى ﵁، عندما ذكرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ في بعضِ أيامِهِ التي لَقِيَ فيها العدوَّ، انتظرَ حتى مَالَتِ الشمسُ، ثم قامَ في الناسِ فقالَ: ﴿يا أيها الناسُ، لا تَتَمَنَّوْا لقاءَ العدوِّ، واسألُوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيتُمْ فاصبرُوا، واعْلَمُوا أنَّ الجنةَ تحت ظلالِ السيوفِ﴾، ثم قال: ﴿اللهمَّ مُنْزِلَ الكتابِ، ومُجْرِيَ السحابِ، وهازمَ الأحزابِ، واهْزِمْهُمْ وانصرْنَا عليهم﴾ [متفق عليه].

6- التأكيـدُ علـى أنَّ خيـارِ المفاوضـاتِ والسـلامِ مـع اليهـودِ فاشـلٌ، ويَمْضِي دائمًا إلى طريقٍ مسدودٍ؛ لأنهم قومٌ لا عهدَ لهم.

7- ارتقاءُ بعضٍ من الفلسطينيّين إلى اللهِ تعالى، بعد أنِ اختارَهم لنيلِ الشهادةِ في سبيلهِ.

8- إحياءُ روحِ الاتحادِ والتضامنِ بين الشعوبِ الإسلاميةِ، وتذكيرُهم بأنهم أمةٌ واحدةٌ.

9- تفعيلُ القضيةِ الفلسطينيةِ التي تَنَاسَاهَا عددٌ مُعْتَبَرٌ من المسلمين حُكَّامًا ومحكومين.

10- تـذكيرُ الأمـةِ بضـرورةِ الرجـوعِ إلـى ربِّهـا، والعمـلُ علـى تحقيـقِ عواملِ وأسبابِ النصرِ والتمكينِ.

11- إظهارُ عظمةِ الشعبِ الفلسطينيّ من خلالِ صمودِهِ الأسطوريّ، وكذا عدمِ وجودِ الْفَلَتَانِ الأمنيّ أثناء المحنةِ.

فمِنْ خلالِ هذه المنحِ الملحوظةِ وغيرِهَا أَكَادُ أجزمُ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:216]، أَكَادُ أجزمُ أَنَّهُ ينطبقُ على أحداثِ غزةَ.

أسألُ اللهَ العليَّ القديرَ أن ينصرَ الإسلامَ ويُعِزَّ المسلمين، وأن يرفعَ الضرَّ عن جميعِ إخوانِنَا الْمَكْرُوبِينَ، وأن يعيدَ الْمُغْتَصَبَاتِ والمقدَّساتِ إلى ممتلكاتِ المسلمين، والحمدُ لله على كلِّ حالٍ.

المحاضرة الرابعة عشرة

برنامج مقترح لليوم الرمضاني[1]

مِنْ بابِ مناصحةِ إخواني وأخواتي في اللهِ تعالى؛ تطبيقًا لقولِ النبيِّ ﷺ: ﴿الدينُ النصيحةُ﴾. فقال الصحابةُ ﷺ: "لِمَنْ يا رسولَ اللهِ؟" فقال: ﴿للهِ ولكتابِهِ ولرسولِهِ ولأئمةِ المسلمين وعامتِهِمْ﴾[رواه مسلم]، أحاولُ أن أَعْرِضَ بين أَيْدِيهِمْ برنامجًا عمليًّا، فيه عناصرُ في مُتَنَاوَلِ أغلبِ الناسِ[2] بإذنِ اللهِ جلَّ وعلاَ، بحيثُ إذا ما رَعَاهَا أحدُهم، وسارَ

[1]- هذه المحاضرةُ يُحَبَّذُ أن تُلْقَى أو أن تُقْرَأَ قُبَيْلَ الدخولِ في شهرِ رمضانَ الفضيلِ؛ حتى يستعدَّ ويستقبلَ بها المسلمُ الشهرَ الكريمَ بما يَلِيقُ بمكانتِهِ، ويستثمرَ فرصتَهُ الذهبيةَ على أحسنِ وَجْهٍ. كما يُمْكِنُ أن يُقَدِّمَهَا الأخُ الإمامُ أو المدرِّسُ مُجَزَّأَةً في جمهورِ المصلين ضِمْنَ الكلماتِ الرمضانيةِ التي عادةً ما تُلْقَى في جميعِ ليالي رمضانَ في الفترةِ الممتدَّةِ من أذانِ العشاءِ إلى غايةِ القيامِ لصلاتِها، على أن لا يتجاوَزَ بهذه الأجزاءِ الأسبوعَ الأولَ من رمضانَ.

[2]- قلت: "في متناولِ أغلبِ الناسِ"، أي: مِنْ أصحابِ الهمةِ المتوسطةِ؛ لأنَّ صاحبَ الهمةِ العاليةِ لا تكفيه عناصرُ هذا البرنامجِ، فيتطلَّعُ لِمَا هو أكثرُ وأحسنُ. كما أنَّ صاحبَ الهمةِ الْمُتَدَنِّيَةِ قد يستثقِلُهَا، فيَقْصُرُ عن الإتيانِ بها. إضافةً إلى أنَّ بعضَ الناسِ بحُكْمِ طبيعةِ عملِهم، والمهامِ الْمُسْنَدَةِ إليهم قد لا يستطيعون التَّكَيُّفَ مع هذا البرنامجِ الْمُقْتَرَحِ. فهؤلاء عليهم أن يَضَعُوا لأنفسِهم برنامجًا على نَسَقِهِ، يَتَنَاسَبُ مع حالتِهم الخاصةِ. إلا أنَّ الذي نَتَوَاصَى به هو: أنْ لا=

على نَسَقِهَا في جميعِ أيامِ شهرِ رمضانَ، كانَ مِمَّنْ وُفِّقَ إلى حَدٍّ مُعْتَبَرٍ إلى اغتنامِ خيراتِهِ ونفحاتِهِ. وهذه العناصرُ كالآتي:

1- الاستيقاظُ من النومِ قبلَ طلوعِ الفجرِ بمقدارِ ساعةٍ تقريبًا، مع الإتيانِ بذكرِ الاسيقاظِ[1].

2- تناولُ السَّحُورِ مستحضِرًا فيه نيةَ الاقتداءِ والائتمارِ بأمرِ النبيِّ ﷺ. قال عليه الصلاةُ والسلامُ: ﴿تَسَحَّرُوا؛ فإنَّ في السَّحُورِ بَرَكَةً﴾[رواه الشيخان].

3- التهجُّدُ[2] ولو بركعتيْنِ حَسْنَاوَيْنِ، يُطِيلُ فيهما القراءةَ بعد الفاتحةِ، ويُكْثِرُ من التسبيحِ في الركوعِ، والدعاءِ في السجودِ. ثم يَشْتَغِلُ بالاستغفارِ والدعاءِ إلى غايةِ طلوعِ الفجرِ. قال النبيُّ ﷺ: ﴿ينزلُ رَبُّنَا كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا حين يبقى ثلثُ الليلِ الْآخِرِ فيقولُ: مَنْ يَدْعُونِي فأستجيبُ له، مَنْ يَسْأَلُنِي فأُعْطِيهِ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ له﴾[رواه الشيخان].

4- صلاةُ رَغِيبَةِ الفجرِ في البيتِ، ثم الذهابُ إلى المسجدِ، مع مراعاةِ ذكرِ الخروجِ من البيتِ والذهابِ إلى المسجدِ والدخولِ إليه.

=يكونَ هناك تفريطٌ كُلِّيٌ في الإتيانِ بالطاعةِ في رمضانَ، فالمسلمُ الحريصُ على الخيرِ يُسَدِّدُ ويُقَارِبُ، وما لا يُدْرَكُ كُلُّهُ لا يُتْرَكُ جُلُّهُ أو بَعْضُهُ.

[1]- يُمْكِنُ أن يستعينَ المسلمُ لمعرفةِ الأذكارِ الثابتةِ عن النبيِّ ﷺ في سائرِ أحوالِهِ بكُتَيِّبِ: "حصنِ المسلمِ"، للشيخ: "سعيد بن علي بن وَهْف القحطاني".

[2]- التهجُّدُ هو الصلاةُ بالليلِ بعد النومِ.

5- قَصْدُ الصفِّ الأولِ فالذي يَلِيهِ، ثم الإتيانُ بتحيةِ المسجدِ.
6- الاشتغالُ بالدعاءِ إلى غايةِ إقامةِ صلاةِ الصبحِ، وبعد الفراغِ منها يأتي بأذكارِ أدبارِ الصلواتِ المكتوبةِ.
7- المكوثُ بالمسجدِ[1] للإتيانِ بأذكارِ الصباحِ، وتلاوةِ جزءٍ -حزبيْنِ- من القرآنِ الكريمِ، ثم يُصَلِّي ركعتَي الضحى بعد طلوعِ الشمسِ في الأفقِ قَدْرَ رُمْحٍ[2]. قال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿مَنْ صَلَّى الْغَدَاةَ في جماعةٍ، ثم قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَ حتى تَطْلُعَ الشمسُ، ثم صَلَّى ركعتيْنِ، كانت له كأجرِ حَجَّةٍ وعُمْرَةٍ: تَامَّة، تَامَّة، تَامَّة﴾[رواه الترمذي].
8- مغادرةُ المسجدِ، مع مراعاةِ ذكرِ الخروجِ منه، ثم العودةُ إلى البيتِ؛ لِأَخْذِ قسطٍ من النومِ إنْ أَمْكَنَ وكان محتاجًا إليه، على أن لا يَنْسَى ذِكْرَ الدخولِ إليه.
9- تجديدُ الطهارةِ وصلاةُ ركعتيْنِ، ثم الانصرافُ إلى العملِ أو الدراسةِ أو قضاءِ المصالحِ المختلفةِ، مع استحضارِ نيةِ العبادةِ في ذلك؛ إذ إنَّ النيةَ الحسنةَ تُحَوِّلُ العادةَ إلى عبادةٍ.

---

[1]- هذا إنْ أَمْكَنَ، وإلا فإنه يأتي به في البيتِ.
[2]- هذا الوقتُ يُقَدَّرُ تقريبًا بعشرين دقيقةً من بدايةِ ظهورِ قرصِ الشمسِ في الأفقِ.

10- استدامةُ الذكرِ، سواء ما كان منه مُقَيَّدًا بمناسباتٍ معينةٍ أو مطلَقًا[1]، خاصةً: "إني صائمٌ، إني صائمٌ" إذا ما أُوذِيَ. قال اللهُ ﷻ في الحديثِ القدسيّ الجليلِ: ﴿كُلُّ عملِ ابنِ آدمَ له إلا الصيامُ فإنه لي وأنا أَجْزِي به. والصيامُ جُنَّةٌ. فإذا كان يومُ صومِ أحدِكم، فلاَ يَرْفُثْ ولاَ يَصْخَبُ[2]، فإنْ سَابَّهُ أحدٌ أو قَاتَلَهُ فلْيَقُلْ: إنِّي صائمٌ، إنِّي صائمٌ﴾[رواه الشيخان].

11- كلما وَجَدَ فرصةً للصدقةِ، أو تقديمِ العونِ للآخَرين، أو عيادةِ المريضِ، أو اتباعِ الجنازةِ، إلا وكان من السَّبَّاقِينَ إلى الخيرِ. نقول هذا؛ حتى تَجْتَمِعَ فيه هذه الخصالُ مع الصيامِ، فيكونَ من أهلِ الجنةِ بإذنه ﷻ. رَوَى أبو هريرةَ ؓ أنَّ النبيَّ ﷺ قال يومًا: ﴿مَنْ أصبحَ منكم اليومَ صائمًا؟﴾. قال أبو بكرٍ ؓ: "أنا". قال: ﴿فمَنْ تَبِعَ منكم اليومَ جنازةً؟﴾. قال أبو بكرٍ: "أنا". قال: ﴿فَمَنْ أطعمَ منكم اليومَ مسكينًا؟﴾. قال أبو بكرٍ: "أنا". قال: ﴿فَمَنْ عَادَ منكم اليومَ مريضًا؟﴾. قال أبو بكرٍ: "أنا". فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿مَا اجْتَمَعْنَ في امرئٍ إلا دَخَلَ الجنةَ﴾[رواه مسلم].

---

[1]- مثالُ الذكرِ المقيَّدِ بمناسباتٍ معينةٍ ما يُقَالُ عند: الدخولِ إلى الخلاءِ أو الخروجِ منه، وعند ركوبِ الدابةِ أو السيارةِ، وعند الدخولِ إلى السوقِ. ومثالُ الذكرِ المطلَقِ: التسبيحُ والتهليلُ والتحميدُ والتكبيرُ والاستغفارُ والصلاةُ على النبيِّ ﷺ.

[2]- لاَ يَرْفُثُ ولاَ يَصْخَبُ: أي لا يقولُ كلامًا بذيئًا ولا يُحْدِثُ ضجيجًا.

12- أداءُ صلاةِ الظهرِ في جماعةٍ، مع الإتيانِ بسُنَّتَيْهِ القبليةِ -ركعتيْنِ أو أربعِ ركعاتٍ- والبعديَّةِ -ركعتيْنِ- والذكرِ دُبُرَهُ.

13- القَيْلُولَـةُ؛ ائتمـارًا بـأمرِ النبـيِّ ﷺ القائـلِ فـي الحـديثِ الحسـنِ: ﴿قِيلُوا؛ فإنَّ الشياطينَ لا تَقِيلُ﴾[أَوْرَدَهُ السيوطيُّ في الجامعِ الصغيرِ]، وللتَّقَوِّي بها على أنشطةِ المساءِ والليلِ.

14- أداءُ صلاةِ العصرِ في جماعةٍ، مع الحرصِ على الإتيانِ بأربعِ ركعاتٍ قَبْلَهُ، والأذكارِ بعده.

15- المكـوثُ بالمسـجدِ إنْ أَمْكَـنَ للإتيـانِ بأذكـارِ المسـاءِ، وسـماعِ موعظةٍ إنْ كانت، وتلاوةِ جزءٍ من القرآنِ الكريمِ.

16- التبكيرُ بالإفطارِ عند تَحَقُّقِ غروبِ الشمسِ، على أن يكونَ وترًا من الرُّطَبِ أو التمرِ أو شيءٍ حُلْوٍ، أو على حَسْوَاتٍ من الماءِ، مع الإتيـانِ بالـذكرِ المـأثورِ وشـيءٍ مـن الـدعاءِ. قـال النبـيُّ ﷺ: ﴿لا يـزالُ الناسُ بخيرٍ ما عَجَّلُوا الفطرَ﴾[رواه الشيخان]. وقـال أنسُ بـنُ مالـكٍ رضي الله عنه: "كان رسولُ اللهِ ﷺ يُفْطِرُ قبلَ أن يُصَلِّيَ على رُطَبَاتٍ، فإنْ لـم تكـن رُطَبَات فتَمْرَاتٍ، فإنْ لـم تكـن حَسَـا حَسْوَاتٍ من ماءٍ"[رواه أبو داود والترمذي]. وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: "كان النبيُّ ﷺ إذا أَفْطَرَ قـال: ﴿ذَهَـبَ الظَّمَأُ، وابْتَلَّتِ العروقُ، وثَبَتَ الأجرُ إنْ شـاءَ اللهُ﴾[رواه أبو داود].

17- أداءُ صلاةِ المغربِ في جماعةٍ، مع الإتيانِ بالأذكارِ عَقِبَهُ، وكذا السنةِ البعديَّةِ -ركعتيْنِ-.

18- الاجتماعُ مع الأهلِ لتناولِ وجبةٍ خفيفةٍ[1]، تَعْقُبُهَا مؤانسةٌ لهم وملاطفةٌ.

19- التبكيرُ إلى المسجدِ لأداءِ صلاةِ العشاءِ في جماعةٍ، وسماعِ الموعظةِ التي تُلْقَى قَبْلَهَا، ثم الذكرُ بعدها.

20- أداءُ صلاةِ التراويحِ كاملةً مع الإمامِ بما في ذلك الشَّفْعُ والوترُ، مع مجاهدةِ النفسِ في التدبرِ فيما يُتْلاَ من كتابِ اللهِ تعالى. قال النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبِهِ﴾[رواه الشيخان]. وقال أيضًا: ﴿إنَّ الرجلَ إذا صَلَّى مع الإمامِ حتى يَنْصَرِفَ حُسِبَ له قيامُ الليلةِ﴾[رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة].

21- نشاطٌ مفتوحٌ ك: زيارةِ قريبٍ أو صديقٍ، أو مطالعةٍ في مكتوباتٍ مفيدةٍ، أو مشاهدةِ برنامجٍ مُتَلْفَزٍ نافعٍ، أو حلقةِ علمٍ شرعيٍّ عائليةٍ، أو نحوِ ذلك من الأنشطةِ المفيدةِ النافعةِ.

22- النومُ قبل منتصفِ الليلِ[2]، على أن يكونَ ذلك على طهارةٍ، مع الإتيانِ بالأذكارِ.

---

[1]- قلنا: "تناول وجبةٍ خفيفةٍ"؛ لأنَّ الصائمَ إذا أكثرَ من الأكلِ في فطورِهِ -كما يفعلُ عددٌ معتبَرٌ من الناسِ-، أثقلَهُ ذلك عن صلاةِ التراويحِ، إضافةً إلى أنَّ ذلك فيه مخالفةٌ للقواعدِ الصحيةِ.

[2]- وهنا نُنَبِّهُ إلى خطأِ أولئك الذين يَسْهَرُونَ إلى ساعاتٍ متأخرةٍ من الليلِ؛ فإنهم بذلك يخالفون هديَ النبيِّ ﷺ الذي ما كان يسهرُ بعد صلاةِ العشاءِ، كما أنهم=

ومع ما سبق ينبغي أن يَتَحَفَّظَ الصائمُ من الوقوعِ في سائرِ المعاصي، فإنه مِنْ شأنِهَا أن تُنْقِصَ من أجرِ الصائمِ، وأن تُعِيقَهُ عن الطاعةِ. ولذا قال صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ: ﴿رُبَّ صائمٍ حَظُّهُ من صيامِهِ الجوعُ والعطشُ، ورُبَّ قائمٍ حَظُّهُ من قيامِهِ السهرُ﴾[رواه الطبراني في الكبير]. وقال أيضًا: ﴿مَنْ لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعملَ به، فليس للهِ حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَهُ وشرابَهُ﴾[رواه البخاري]. وإذا حَدَّثَتْهُ نفسُهُ الأمارةُ بالسوءِ وهو يجتهدُ في الطاعةِ، ويُطَبِّقُ هذا البرنامجَ، بأنَّ فيه كثافةً وثِقَلاً، فعليهِ أن يُسَلِّيَ نفسَهُ بأنَّ رمضانَ ما هو إلا مُجَرَّدُ أيامٍ معدوداتٍ سرعانَ ما تَنْقَضِي، وأنَّ أجرَ الطاعةِ فيه مُضَاعَفٌ، وعلى ذلك فلا مَنَاصَ من اغتنامِهِ بالاجتهادِ في الطاعةِ والإكثارِ منها. وهذا المعنى أشارَ إليه القرآنُ الكريمُ لَمَّا أَوْجَبَ الصيامَ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾[البقرة:182-183].

كما أنَّ المسلمَ ينبغي أن لا يُفَوِّتَ فرصةَ تفطيرِ الصائمين كلما أُتِيحَتْ، بل عليه أن يبحثَ عن هذه الفرصةَ؛ حتى يَظْفَرَ بأجرِهَا العظيمِ الذي قال عنه النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ فَطَّرَ صائمًا، كان له مثلُ أجرِهِ، غيرَ أنه لا يُنْقِصُ مِنْ أجرِ الصائمِ شيئًا﴾[رواه الترمذي وابن ماجة].

=من خلالِ سهرِهم الطويلِ تضعفُ أجسادُهُمْ، ومِنْ ثَمَّةَ لا تَقْوَى على الإتيانِ بهذا البرنامجِ المقترَحِ، فنجدُهم لاَهِينَ عابثين بالليلِ، نائمين مُتَثَائِبِينَ بالنهارِ.

والمرأةُ المسلمةُ ينبغي أن تستحضِرَ معنى العبادةِ وهي تُعِدُّ الطعامَ للصائمين، وأن تَقْتَصِدَ في وقتِ الإعدادِ؛ حتى لا يكونَ على حسابِ علاقتِهَا بربِّهَا.

ولَعَلَّنِي في الختامِ لا أَجِدُ أفضلَ من التذكيرِ بنصيحةِ جابرٍ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما. تلك النصيحةُ التي لَخَّصَ فيها عناصرَ هذا البرنامجِ فقالَ: "إذا صُمْتَ فلْيَصُمْ سمعُكَ وبصرُكَ ولسانُكَ عن الكذبِ والمحارمِ، ودَعْ أذى الجارِ، ولْيَكُنْ عليك سكينةٌ ووَقَارٌ، ولا تجعلْ يومَ صومِكَ ويومَ فطرِكَ سواءً".

نسألُ اللهَ جلَّ وعلاَ أن يوفقَنَا إلى اغتنامِ رمضانَ فيما يُحِبُّهُ ويرضاه، وأن يُعِينَنَا على ذكرِهِ وشكرِهِ وحُسْنِ عبادتِهِ. وصَلِّ اللهمَّ وسَلِّمْ على محمدٍ ﷺ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

المحاضرة الخامسة عشرة

دروسٌ وعِبَرٌ من غزوةِ بَـدْرٍ الكُبرى [1]

فإنَّهُ من الأحداثِ العظيمةِ التي وقعتْ في شهرِ رمضانَ الفضيلِ: غزوة بدر الكبرى. لذا أَرَدْتُ أن أتذاكَرَ مع إخواني وأخواتي في اللهِ تعالى شيئًا مما حصلَ فيها من وقائعَ، مع استلهامِ بعضٍ من الدروسِ والعبرِ من تلك الوقائعِ؛ حتى تنيرَ علينا دربَ حياتِنَا المعاصرةِ. كلُّ ذلك أعرضُهُ ضمنَ العناصرِ الأساسيةِ الثلاثةِ الآتيةِ:

1- ملخصُ الغزوةِ: وقعتْ في السابعِ عشرَ من شهرِ رمضانَ من السنةِ الثانيةِ للهجرةِ النبويةِ، بسببِ اعتراضِ المسلمين قافلةً تجاريةً لقريشٍ؛ لاسترجاعِ بعضٍ من أموالِهم التي تركوها وأُخِذَتْ منهم بمكةَ.

كان عددُ المسلمين فيها ثلاثمائةٍ وبضعةَ عشرَ صحابيًّا. بينما كان عددُ المشركين نَحْوَ ألفِ مقاتلٍ، بقيادةِ كبارِ زعماءِ قريشٍ.

انتصرَ فيها المسلمون انتصارًا باهرًا؛ لَمَّا أيَّدهم اللهُ تعالى بجنودٍ من الملائكةِ تُقَاتِلُ معهم. قُتِلَ فيها من الكفار سَبْعُونَ، وأُسِرَ منهم فيها سَبْعُونَ، وعامتُهم من القادةِ والزعماءِ. بينما اسْتُشْهِدَ من المسلمين أربعةَ عشرَ صحابيًّا.

---

[1]- بما أنَّ غزوةَ بدرٍ وقعتْ في السابعِ عشرَ من شهرِ رمضانَ، فإنَّهُ من المناسبِ أن تُلْقَى هذه المحاضرةُ في مثلِ هذا التاريخِ.

2- القرآنُ الكريمُ يتحدثُ عن الغزوةِ: قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ[1] هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ[2] وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفاً[3] مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ[4] فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾[آل عمران:123-127].

كما أنَّ أكثرَ آياتِ سورةِ الأنفالِ تحدثتْ عن هذه الغزوةِ، وسَمَّتْ يومَ وقوعِهَا بيومِ الفرقانَ؛ لأنه فَرَّقَ بين الحقِّ الذي عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُهُ، والباطلِ الذي عليه مُشْرِكُو مكةَ وأمثالُهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا[5] يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الأنفال:41].

---

[1]- مِّن فَوْرِهِمْ: مِنْ ساعتِهم.

[2]- مُسَوِّمِينَ: مُعَلِّمِينَ أنفسَهم أو خيلَهم بعلاماتٍ.

[3]- لِيَقْطَعَ طَرَفاً: لِيُهْلِكَ طائفةً.

[4]- يَكْبِتَهُمْ: يُخْزِيهِمْ بالهزيمةِ

[5]- وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا: أي من الملائكةِ التي تُقَاتِلُ معه، وكذا الآياتِ والمعجزاتِ التي كانت في هذه الغزوةِ.

3- أهمُّ الدروسِ الْمُسْتَقَاةِ من الغزوةِ:

أ- النصرُ لا يكونُ بالعددِ والعدةِ فقط، بل يكونُ بتحقيقِ سائرِ شروطِهِ:

ذلك أنَّ عددَ المسلمين وعُدَّتَهم في هذه الغزوةِ أقلُّ وأضعفُ بكثيرٍ من عددِ وعُدَّةِ المشركين، لكن لَمَّا رأى اللهُ تعالى منهم إيمانًا راسخًا، وعملاً صالحًا، وصبرًا وثباتًا، وتضرعًا إليه بالدعاء، واتحادًا فيما بينهم، وقد أعدُّوا مع ذلك ما استطاعوا من قوةٍ، نَصَرَهم على أعدائِهم رغم عدمِ التكافؤِ في القوةِ الماديةِ.

فالعبرة في النصرِ ليست بكثرةِ العددِ وقوةِ العدةِ، قال اللهُ تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:249]، ولكن العبرةُ بتحقيقِ شروطِ النصرِ التي على رأسِهَا العقيدةُ الصحيحةُ الراسخةُ، والتقوى والعملُ الصالحُ، يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور:55].

وكذا اتحادُ المسلمين وعدمُ تفرقِهم، يقول تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال:46].

ثم يأتي بعد ذلك الإعدادُ الماديُّ الذي قال عنه ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا[1] لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ[2] وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ[3] لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال:60].

وينبغي أن يُصَاحِبَ هذه الأمورَ صبرٌ وثباتٌ، والتجاءٌ إلى الله تعالى بالدعاءِ وطلبِ النصرِ على الأعداءِ، ولذا ثبت عن رسولِ اللهِ ﷺ في هذه الغزوةِ أنه لَمَّا كان يستعد للدخول فيها نَاشَدَ ربَّهُ ما وعده من النصرِ قائلاً: ﴿اللهمَّ أَنْجِزْ لي ما وعدتَّني، اللهمَّ إني أُنْشِدُكَ عهدَكَ ووعدَكَ﴾، حتى إذا حَمِيَ الوَطِيسُ، واستدارت رَحَى الحربِ بشدةٍ، واحتدمَ القتالُ، وبلغت المعركةُ قمتَهَا، قال: ﴿اللهمَّ إن تَهْلَكْ هذه العصابةُ[4] اليومَ لا تُعْبَدُ، اللهمَّ إن شئتَ لم تُعْبَدْ بعد اليومِ أبدًا﴾، وبالغ في الابتهالِ حتى سقطَ رداؤُه عن مِنْكَبَيْهِ، فردَّهُ عليه الصديقُ رضي الله عنه، وقال: "حسبُكَ يا رسولَ اللهِ، أَلْحَحْتَ على ربّكَ".

---

[1]- أَعِدُّوا: هَيِّئُوا وأَحْضِرُوا.

[2]- يُقْصَدُ بالقُوَّةِ كلُّ ما مِنْ شأنِهِ أن يُعَظِّمَ مِنْ أمرِ المسلمين في أعينِ أعدائِهم، ولذا قلتُ في عنوانِ هذا العنصرِ: "جميعُ النواحي العلميةِ والاقتصاديةِ والاجتماعيةِ والسياسيةِ والعسكريةِ".

[3]- آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ: أقوامٍ غيرِ كفارِ قريشٍ.

[4]- العصابةُ: هي الجماعةُ من الناسِ، ويُقْصَدُ بها هنا الصحابةُ رضي الله عنهم الذين شَارَكُوا في غزوةِ بدرٍ.

ب- وجوبُ الوفاءِ بالعهودِ: إذ إن النبيَّ ﷺ في هذه الغزوةِ لم يُجْبِرِ الأنصارَ على الخروجِ معه؛ لأن بنودَ بيعةِ العقبةِ تُلْزِمُهُمْ بالقتال معه إذا جاءه عدوُّهُ في المدينة، بينما في غزوة بدر كان هو ﷺ المبادِرُ إلى ملاقاة قافلةِ قريشٍ خارجَ المدينةِ. فلما تَحَوَّلَ الأمرُ من ملاقاةِ العيرِ إلى النفيرِ، عَقَدَ رسولُ اللهِ ﷺ مجلسًا عسكريًّا استشاريًّا أعلى، أشار فيه إلى الوضع الراهن، وتبادل فيه الرأيَ مع عامة جيشِهِ وقادتِهِ.

وحينئذٍ تزعزعت قلوبُ فريقٍ من الناس، وخافوا اللقاءَ الداميَ، وهؤلاء هم الذين قال اللهُ فيهم: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[الأنفال:5-6].

وأما قادةُ الجيشِ فقام منهم أبو بكرٍ الصديقُ ﷺ فقالَ وأحسنَ، ثم قام عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ فقالَ وأحسنَ، ثم قام الْمُقْدَادُ بنُ عَمْرٍو ﷺ فقالَ: "يا رسولَ اللهِ، امْضِ لِمَا أراك اللهُ، فنحن معك، واللهِ لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[المائدة:24]، ولكن اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنا معكما مقاتِلون". فقال رسولُ اللهِ ﷺ خيرًا ودعا له.

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين، وهم أقليةٌ في الجيش، فأحبَّ رسولُ اللهِ ﷺ أن يعرفَ رأيَ قادةِ الأنصارِ؛ لأنهم كانوا يُمَثِّلُونَ أغلبيةَ الجيشِ، ولأن ثِقَلَ المعركةِ سيدورُ على كَوَاهِلِهِمْ، مع أن نصوصَ العقبةِ لم تكن تُلْزِمُهُمْ بالقتال خارجَ ديارهم -وهنا مَحَلُّ

الشاهدِ-، فقال بعد سماعِ كلامِ هؤلاء القادةِ الثلاثةِ: ﴿أشيروا عليَّ أيها الناسُ﴾، وإنما يريد الأنصارَ، وفَطِنَ إلى ذلك قائدُهم وحاملُ لوائِهم سعدُ بنُ معاذٍ ﷺ، فقال: "واللهِ، ولَكَأَنَّكَ تريدُنا يا رسولَ اللهِ؟" قال: ﴿أَجَلْ﴾. قال: "فقد آمَنَّا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحقُّ، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا على السمع والطاعة، فامْضِ يا رسولَ اللهِ لِمَا أردتَّ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضتَهُ لخضناه معك، ما تخلَّف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، ولعل اللهَ يُرِيكَ منا ما تَقَرُّ به عينُك، فسِرْ بنا على بركة الله".

فَسُرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بقولِ سعدٍ، ونَشَّطَهُ ذلك، ثم قال: ﴿سِيرُوا وأبشِرُوا، فإن اللهَ تعالى قد وعدني إحدى الطائفتيْنِ، واللهِ لَكَأَنِّي الآنَ أنظرُ إلى مصارع القومِ﴾.

ج- التأكيدُ على أهميةِ الْأَخْذِ بالمشورةِ: لقد أعطى النبيُّ ﷺ في هذه الغزوةِ -وهو القائدُ- النموذجَ الرائعَ في حُسْنِ التعاملِ مع رعيتِهِ، وإشراكِهِمْ في تدبير شؤونِ البلادِ والعبادِ، وعدمِ الاستبدادِ والانفرادِ بالسياسة والتسييرِ. يُلاَحَظُ هذا من خلال صنيعِهِ لَمَّا تحرَّكَ بجيشه لِيَسْبِقَ المشركين إلى ماء بدرٍ، ويَحُولَ بينهم وبين الاستيلاءِ عليه، فنزلَ عشاءً أدنى ماءٍ من مياه بدرٍ. وهنا قام الْحُبَابُ بنُ المنذرِ ﷺ كخبيرٍ عسكريٍّ وقال: "يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ هذا المنزلَ، أَمَنْزِلًا أَنْزَلَكَهُ اللهُ، ليس لنا أنْ نتقدَّمَهُ ولا نتأخَّرَ عنه؟ أم هو الرأيُ والحربُ

والمكيدةُ؟" فقال له: ﴿بلْ هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ﴾. قال: "يا رسولَ اللهِ، إنَّ هذا ليس بمنـزلٍ، فانْهَضْ بالناس حتى نأتِيَ أدنى ماءٍ من القوم -أي: قريش- فنَنْزِلَهُ ونُغَوِّرَ -أي: نُخَرِّب- ما وراءَهُ من الْقُلُبِ -أي: الآبار القديمة-. ثم نَبْنِي عليه حوضًا، فنملأُهُ ماءً، ثم نُقَاتِلُ القومَ، فنشربُ ولا يشربون". فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿لقد أَشَرْتَ بالرأيِ﴾. فنهض رسولُ اللهِ ﷺ بالجيش حتى أَتَى أقربَ ماءٍ من العدو، فنزلَ عليه شطرَ الليلِ، ثم صنعوا الحياضَ وغَوَّرُوا ما عَدَاهَا من الْقُلُبِ. وكان الْأَخْذُ بهذا الرأيِ الصائبِ الذي أشارَ به أحدُ الجنودِ سببًا من أسباب الانتصارِ الباهرِ في هذه الغزوةِ المباركةِ.

فهاهنا رسولُ اللهِ ﷺ يُؤَصِّلُ لطبيعة العلاقةِ التي ينبغي أن تكونَ بين الحاكم والرعيةِ، بين القائدِ والجنودِ، هذه العلاقةُ ينبغي أن تُؤَسَّسَ على الشورى التي من خلالها تَتَلاَقَحُ الأفكارُ، وتَتَفَتَّقُ المواهبُ، وتُنَاقَشُ المواضيعُ من زوايا مختلفةٍ، الأمرُ الذي يجعل القراراتِ التي تُتَّخَذُ بعد ذلك صائبةً سديدةً. فإذا كان الرسولُ ﷺ الْمُؤَيَّدُ بالوحي يقول له ربُّهُ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران:159]، فما بَالُكَ بِمَنْ هو دُونَهُ مِمَّنْ لا يُوحَى إليه، فهو مُطَالَبٌ بفتحِ بابِ الشورى من باب أَوْلَى.

د- **إثباتٌ لصدقِ نبوةِ الرسولِ ﷺ:** وهذا يظهر جليًا من خلال خروجه ﷺ من باب العريشِ وهو يَثِبُ في الدرعِ ويقولُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[القمر:45]، ثم أخذ حَفْنَةً من الْحَصْبَاء، فاستقبلَ بها

قريشًا وقال: ﴿شاهتِ الوجوهُ﴾، ورَمَى بها في وجوههم، فما مِنَ المشركين مِنْ أحدٍ إلا أصابَ عينيْهِ ومِنْخَرَيْهِ وفمَهُ من تلك القبضةِ. وفي ذلك أنزل اللهُ قولَهُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[الأنفال:17].

وكذا ما وقع لعُكَّاشَةَ بنِ مِحْصَنٍ الأسديِّ رضي الله عنه، حين انقطع يومُ بدرٍ سيفُهُ، فأتى رسولَ اللهِ ﷺ، فأعطاه جذْلًا من حطبٍ -وفي رواية: عرجونًا من نخلٍ-، فقال: ﴿قاتِلْ بهذا يا عُكَّاشَةَ﴾. فلما أخذه من رسول الله ﷺ هَزَّهُ، فعاد سيفًا في يده طويلَ القامةِ، شديدَ المتنِ، أبيضَ الحديدةِ، فقاتَلَ به حتى فتح الله تعالى للمسلمين. وكان ذلك السيفُ يُسَمَّى الْعَوْن. ثم لم يَزَلْ عنده يشهدُ به المشاهدَ، حتى قُتِلَ في حروب الردةِ وهو عنده.

نُذَكِّرُ بهذه المعجزاتِ التي تُثْبِتُ صدقَ نبوتِهِ ﷺ؛ لأن بعضًا من المسلمين يتصوَّرُ أنه صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ ما أُيِّدَ بمعجزاتٍ حسيةٍ، كما أُيِّدَ إبراهيمُ وموسى وعيسى وسائرُ الأنبياءِ والمرسلين عليهم الصلاةُ والسلامُ.

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يجعلَنَا من الذين يُعْنَوْنَ بسيرة نبيِّهم العنايةَ اللاَّزمةَ، وأنْ يجعلَهُ ﷺ نِبْرَاسًا لنا في الحياة، وأنْ يجمعَنَا به في الفردوسِ الأعلى مع سائر الأنبياءِ والصدِّيقين والشهداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا؛ إنه تعالى وَلِيُّ ذلك والقادرُ عليه، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

المحاضرة السادسة عشرة

ما ينبغي أن يفعلَهُ المسلمُ في العشرِ الأواخرِ من رمضانَ

إننا الآنَ على مشارفِ العشرِ الأواخرِ الفاضلةِ من شهر رمضانَ الكريمِ. هذه العشرُ التي أقسم الله تعالى بها في القرآن الكريم؛ للتأكيد على عظيم مكانتِهَا عنده جلَّ وعلاَ. قال سبحانه: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ[1]﴾[الفجر:1-2]. لذا أريد أن أغتنمَ هذه الفرصةَ المباركةَ لِأُنَاصِحَ نفسي وإخواني وأخواتي في الله تعالى بما ينبغي أن نفعلَهُ فيها من أعمالٍ تليقُ بعظمتِهَا ومكانتِهَا عند اللهِ عز وجل.

1- الاجتهادُ في الإتيانِ بسائرِ الطاعاتِ: فالمسلمُ مُطَالَبٌ شرعًا بالاستكثار من الصالحات في هذه العشرِ، كأَنْ يُضِيفَ صلاةَ التهجدِ إلى ما عَهِدَهُ سابقًا في العشرين الأولى من رمضانَ من أداء الصلواتِ المفروضةِ والتراويحِ والضحى والرواتبِ، وأن يزيدَ في وِرْدِهِ من القرآن الكريم، وأن يُكَثِّفَ من الذكر والدعاء، وأن يُعْنَى بالصدقة التطوعيَّةِ، وأن يَعْتَكِفَ في المسجد ما أَمْكَنَهُ ذلك، ولو لِأَجْزَاءَ من اليوم أو الليلة. وكلُّ هذا الاجتهادِ في الطاعة من باب الاقتداءِ بالنبيِّ ﷺ الذي قال لنا عنه ربُّهُ جلَّ وعلاَ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

[1]- وقيلَ: إنَّ المقصودَ بها الليالي الأولى من شهرِ ذي الحجةِ.

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[الأحزاب:21]. فقد قالت عنه أُمُّنَا عائشةُ رضي الله عنها: "كان رسولُ اللهِ ﷺ يجتهدُ في العشرِ الأواخرِ ما لا يجتهدُ في غيرها"[رواه مسلم]. وقالت أيضًا: "كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا دخلَ العشرُ: شَدَّ مئزرَهُ[1]، وأَحْيَا ليلَهُ، وأَيْقَظَ أهلَهُ"[متفق عليه]. فمِنْ خلالِ هذيْنِ الحديثيْنِ نَتَبَيَّنُ أنه صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ كان يَخُصُّ العشرَ الأواخرَ من رمضان بنشاطٍ زائدٍ في الطاعة، بحيث يُشَمِّرُ على ساعدِ الْجِدِّ، ورُبَّمَا تركَ فراشَ الزوجيةِ، وتَفَرَّغَ لإحياءِ هذه الليالي بالعبادة، ومِنْ حُسْنِ عشرتِهِ لأهلِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ لم يكن يَقْصُرُ هذا النشاطَ عن نفسه، بل كان حريصًا على أن يَنَالَ أهلُهُ الخيرَ أيضًا، فكان يُوقِظُهُمْ؛ للظَّفَرِ بالأجر الوفير، والبركاتِ الكثيرةِ.

ولقد كان سلفُنَا الصالحون رضي الله عنهم يفهمون هذه المعانِيَ عن نبيِّهم ﷺ حقَّ الفهمِ؛ حتى إنه يُؤْثَرُ عن قتادةَ رحمه اللهُ أنه كان يَخْتِمُ القرآنَ في غير رمضانَ في كلِّ سبعِ ليالٍ، وفي العشرين الأولى من رمضانَ يختمه في كلِّ ثلاثٍ، وفي العشر الأواخر في كلِّ ليلةٍ.

وعلى هذا، فمَنْ كان مُقَصِّرًا في الأيام الفارطة من رمضانَ، ولم يُقَدِّرْهُ فيما مَضَى حقَّ قدرِهِ، عليه أن يَنْتَبِهَ إلى نفسِهِ الآنَ، وأن يعزمَ على استدراك شيءٍ مِمَّا فَاتَهُ في هذه العشرِ. ومَنْ وُفِّقَ إلى اغتنام

[1]– قيل: إنَّ في هذا كنايةً على تَرْكِ الجماعِ، أو على التشميرِ على ساعدِ الْجِدِّ والاجتهادِ في الطاعةِ.

الأيامِ السابقةِ من رمضانَ في الاجتهاد في الطاعة، عليه أن يَحْمَدَ اللهَ تعالى ويشكرَهُ على تلك النعمةِ؛ حتى يزيدَهُ توفيقًا إلى توفيقه، وأن يُضَاعِفَ من اجتهاده في هذه العشر؛ لأنها هي الأهمُّ.

2- تَحَرِّي ليلةِ القدرِ المباركةِ: وهي على الأرجحِ من أقوالِ أهلِ العلمِ في الوترِ من العشرِ الأواخِرِ. يقول اللهُ تبارك وتعالى عنها: ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِّنْ عِندِنَا﴾[الدخان:1-5]. أي أنها ليلةٌ كثيرةُ الخيرِ، تُفَصَّلُ فيها مقاديرُ الخلقِ في السنةِ التي تَلِيهَا من الآجالِ والأرزاقِ وسائرِ الأحداثِ؛ ذلك أنَّ ما قَضَاهُ اللهُ تعالى وحَكَمَ به قد كُتِبَ في اللوح المحفوظ، وفي ليلة القدرِ تُؤْخَذُ نسخةٌ من أحداثِ السنةِ، فتُعْطَى إلى الملائكةِ لِتُنَفِّذَهَا حَرْفِيًّا في تلك السنةِ.

ويقول عنها جلَّ وعلاَ أيضًا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[القدر:1-5]. أي أنَّ ابتداءَ إنزالِ القرآنِ على النبيِّ ﷺ كان في ليلة القدرِ الشريفةِ العظيمةِ ذاتِ المكانةِ الرفيعةِ عند الله تعالى. ومن صُوَرِ شرفِهَا وعظمتِهَا ورِفْعَةِ مكانتِهَا:

- العملُ الصالِحُ فيها من صلاةٍ وتلاوةِ قرآنٍ وذكرٍ ودعاءٍ، خيرٌ من عبادة ألفِ شهرٍ ليس فيها ليلةُ القدرِ، وهو ما يُعَادِلُ ثلاثًا وثمانين سنةً وأربعةَ أشهرٍ.

- كثرةُ تَنَزُّلِ الملائكةِ فيها إلى الأرض، وفيهم روحُ القدسِ جبريلُ عليه السلامُ؛ للسلامِ على القائمين، والاستغفارِ لهم، والتأمينِ على دعائِهم.

- أنها سَالِمَةٌ من الشرور والآفات من بدايتها -وهي غروبُ شمسِ النهارِ الذي قبلَهَا-، إلى نهايتها -وهي طلوعُ فجرِ النهارِ الذي بعدها-؛ وذلك لكثرةِ خيرِهَا.

ويقول النبيُّ ﷺ في بيان وجهٍ آخَرَ من أَوْجُهِ فضائِلِهَا وخيراتِهَا وبركاتِهَا: ﴿مَنْ قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا[1]، غُفِرَ له ما تقدمَ من ذنبِهِ﴾[متفق عليه].

ومِنْ أهمِّ ما ينبغي أن يَتَحَرَّى به المسلمُ ليلةَ القدرِ الإتيانُ بالدعاء المأثور عن النبيِّ ﷺ، فقد ثَبَتَ عن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت: "قلتُ يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ إنْ علمتُ ليلةَ القدرِ ما أقولُ فيها؟" قال: ﴿قولي: اللهمَّ إنك عَفُوٌّ تُحِبُّ العفوَ، فاعْفُ عَنِّي﴾[رواه الترمذي وابن ماجة].

3- إخراجُ زكاةِ الفطرِ: وهذه الشعيرةُ العظيمةُ من شعائرِ الإسلامِ أَوْجَبَهَا النبيُّ ﷺ على كلِّ مسلمٍ بالغٍ عاقلٍ قادرٍ على إخراجها، بحيث يُخْرِجُهَا عن نفسه وعَمَّنْ تجبُ عليه نفقتُهم. ودليلُ وجوبِهَا حديثُ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما الذي قال فيه: "فَرَضَ رسولُ اللهِ ﷺ زكاةَ

---

[1]- إيمانًا واحتسابًا: أي تصديقًا جازمًا بما فيها خيراتٍ وبركاتٍ، ومُخْلِصًا في طاعاتِهِ فيها، مُدَّخِرًا الأجرَ عند اللهِ تعالى؛ حتى يَجِدَهُ ذُخْرًا له يومَ القيامةِ.

الفطرِ من رمضانَ صاعًا من تَمْرٍ، أو صاعًا من شعيرٍ، على العبدِ والْحُرِّ، والذكرِ والأنثى، والصغيرِ والكبيرِ من المسلمين"[رواه الجماعة].

والحكمةُ الْمُتَوَخَّاةُ من إيجابِهَا جاء التصريحُ بها في حديثِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما عندما قال: "فَرَضَ رسولُ اللهِ ﷺ صدقةَ الفطرِ؛ طُهْرَةً للصائمِ من اللَّغْوِ والرَّفَثِ[1]، وطُعْمَةً للمساكينِ. فمَنْ أَدَّاهَا قبل الصلاةِ فهي زكاةٌ مقبولةٌ، ومَنْ أَدَّاهَا بعد الصلاةِ فهي صدقةٌ من الصدقاتِ"[رواه أبو داود وابن ماجة].

ولْيَعْلَمِ المسلمُ المعاصِرُ أنَّ زكاةَ الفطرِ وإنْ كانت النصوصُ الشرعيةُ قد قَدَّرَتْهَا بالصاعِ[2] من الطعامِ الذي يَشِيعُ أكلُهُ في البلدِ، إلا أنَّ الأفضلَ في زمانِنَا هذا هو إخراجُ قيمتِهِ نقدًا؛ لأنَّ النقدَ أنفعُ للفقيرِ الذي تُعْطَى إليه.

نسألُ اللهَ جلَّ وعلاَ أن يتقبَّلَ مِنَّا ما تقرَّبْنَا به إليه في العشرين الأولى من رمضانَ، وأن يُوَفِّقَنَا إلى الاجتهاد في الطاعة في العشرِ الباقيةِ منه، وأن يجعلَنَا من الذين يُدْرِكُونَ فضلَ ليلةِ القدرِ؛ إنه وَلِيُّ ذلك والقادرُ

---

[1]- تُعَدُّ زكاةُ الفطرِ بالنسبةِ لصيامِ شهرِ رمضانَ وما يُمْكِنُ أن يَقَعَ فيه مِمَّا يُنْقِصُ من أجرِهِ، بِمَثَابَةِ ركعتَيِ السهوِ بالنسبةِ للصلاةِ التي حَدَثَ فيها خَلَلٌ بزيادةٍ أو نقصانٍ.

[2]- الصاع: هو أربعُ حفناتٍ بِمِلْءِ اليديْنِ المتوسطتيْنِ، وهي تساوي تقريبًا 2كلغ.

عليه، وصَلِّ اللهمَّ وسَلِّمْ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدينِ، وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

المحاضرة السابعة عشرة

ما الذي ينبغي أن يفعلَهُ المسلمُ في العشرِ الأوائلِ من ذي الحجةِ

إننا نستقبلُ في الثلثِ الأولِ من شهرِ ذي الحجةِ أيامًا فاضلةً، أقسمَ اللهُ تعالى بها في صدرِ سورةِ الفجرِ عندما قال: ﴿والْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[الفجر:01-02]. وحتى يغتنمَ المسلمُ هذه الفرصةَ الربانيةَ، ويتعرَّضَ لنفحاتِ اللهِ تعالى فيها، أريدُ أن أُذَكِّرَ بالأعمالِ المشروعةِ التي ينبغي أنْ يقومَ بها فيها، ويُمْكِنُ عرضُهَا في النقاطِ الآتيةِ:

1- شكرُ اللهِ تعالى على نعمةِ إبقائِهِ لها على قَيْدِ الحياةِ إلى أن أدركَها؛ ذلك أنَّ إخوانًا لنا نعرفُهم من الذكورِ والإناثِ، ومن الشبابِ والكهولِ والشيوخِ، قد بَاغَتَتْهُمُ الْمَنِيَّةُ، فلَمْ يَشْهَدُوا هذا الفضلَ الذي نَشْهَدُهُ نحن في هذه الأيام.

ولذا ينبغي أن يَسْتَشْعِرَ المسلمُ قلبيًّا هذه النعمةَ العظيمةَ التي ظَفَرَ بها، وأن يَلْهَجَ لسانُهُ بحمدِ اللهِ تعالى على ذلك، وأن يُوَظِّفَ هذه الفرصةَ الربانيَّةَ فيما يُرْضِيهِ عنه جلَّ وعلاَ. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم:07].

2- التوبةُ من المعاصي التي كان واقعًا فيها، يقول اللهُ تعالى آمرًا عبادَهُ المؤمنين بالتوبة النصوح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً

نَّصُوحاً﴾[التحريم:08]. والتوبةُ النصوحُ هي ما اجتمعت فيها ثلاثةُ شروطٍ: الندمُ على فعل المعصيةِ، والإقلاعُ عن فعلها، والعزمُ على عدم الرجوعِ إليها. وإذا كانتِ المعصيةُ متعلقةً بالعباد، فلا بُدَّ من شرطٍ رابعٍ، وهو إرجاعُ الحقوقِ إلى أصحابها. فهذه التوبةُ مطلوبةٌ من المؤمن في كلِّ وقتٍ وحينٍ، إلا أنَّهَا تتأكَّدُ في مواسم الخيرِ، كما هو الحالُ بالنسبة لهذه العشرِ؛ ذلك أنَّ مواسمَ الخيرِ محطةٌ يُهَيِّئُهَا اللهُ تعالى لعباده لتطهير أنفسِهم من دَنَسِ المعاصي، وتجديدِ العهدِ معه ﷻ.

وإذا كان الضيفُ من الأشخاص نَسْتَعِدُّ لاستقباله بكلِّ ما أُوتِينَا من الوسائلِ التي يُمْكِنُ أن تُسْعِدَهُ، فمِنْ بابِ أَوْلَى أن نَسْتَعِدَّ لاستقبال هذه العشر الفاضلةِ، فنَتَطَهَّرُ من ذنوبنا، ونَتَحَلَّلُ من مظالمِ الناسِ التي علينا، حتى نُوَفَّقَ إلى اغتنامِهَا فيما يُقَرِّبُنَا من رَبِّنَا.

أما إنْ أَبَى العاصي إلا أن يَبْقَى على معصيته، فإنه ما قَدَّرَ هذه العشرَ حقَّ قَدْرِهَا، وأساءَ في حَقِّ ضيفِهِ الكريمِ أَيَّمَا إساءةٍ. ومِنْ شُؤْمِ المعصيةِ أنها تكون حائلاً بين صاحبِهَا الذي تَلَبَّسَ بها وسائرِ الطاعاتِ.

3- **كثرةُ الأعمالِ الصالحةِ** من نوافلِ العباداتِ كالصلاةِ والصدقةِ وتلاوةِ القرآنِ الكريمِ والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ ونحوِ ذلك من الأعمال التي تُضَاعَفُ من حيث الأجرُ في هذه الأيامِ؛ فالعملُ فيها

وإن كان مفضولاً، فإنه أفضلُ وأحبُّ إلى اللهِ من العملِ في غيرِهَا وإن كان فاضلاً.

روى البخاري عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: ﴿ما مِنْ أيامٍ العملُ الصالِحُ فيها أحـــبُّ إلى الله من هذه الأيامِ –يعني: أيام العشر-. قالوا: يا رسولَ اللهِ، ولا الجهادُ في سبيل اللهِ؟ قال: ولا الجهادُ في سبيل اللهِ، إلا رجلٌ خرج بنفسِهِ ومالِهِ، ثم لم يرجعْ من ذلك بشيءٍ﴾.

ولذا فإنَّ سلفَنَا الصالحين كانوا يُعْنَوْنَ بالإكثارِ من الطاعاتِ في هذه العشرِ أَيَّمَا عنايةٍ، حتى إنه مِمَّا يُؤْثَرُ عن التابعيِّ الجليلِ سعيدٍ بنِ جُبَيْرٍ رحمه الله تعالى أنه إذا دخلَ أيامَ العشرِ اجتهدَ اجتهادًا شديدًا حتى ما يَكَادُ يُقْدَرُ عليه.

4- أداءُ الحجِّ والعمرةِ، وهو أفضلُ ما يُعْمَلُ، ويدلُّ على فضلِهِ عدةُ أحاديثَ منها قولُهُ ﷺ: ﴿العمرةُ إلى العمرةِ كفارةٌ لِمَا بينهما. والحجُّ الْمَبْرُورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنةَ﴾[رواه الشيخان]. مع العلمِ أنَّ هذه الأيامَ تَفَرَّدَتْ بفضل أداءِ الحجِّ فيها؛ ذلك أن سائرَ العباداتِ يُمْكِنُ أن تُؤَدَّى في جميعِ أيامِ السنةِ، إلا الحجَّ، فإنه لا يُؤَدَّى إلا في هذه العشرِ.

5- صيامُ هذه الأيامِ أو ما تَيَسَّرَ منها، وبالأخصِّ يومِ عرفةَ، ولاشكَّ أن جنسَ الصيامِ من أفضلِ الأعمالِ، وهو مِمَّا اصطفاه اللهُ لنفسِهِ كما في الحديثِ القدسيّ: ﴿كُلُّ عملِ ابنِ آدمَ له، إلا الصيامُ، فإنه لي وأنا أَجْزِي به﴾[رواه الشيخان]. وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال: قال

رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿ما مِنْ عبدٍ يصومُ يومًا في سبيل اللهِ، إلا بَاعَدَ اللهُ بذلك اليومِ وجهَهُ عن النار سبعين خريفًا﴾[متفق عليه]. وروى مسلمٌ عن أبي قَتَادَةَ عن النبيِّ ﷺ قال: ﴿صيامُ يومِ عرفةَ أَحْتَسِبُ على اللهِ أن يُكَفِّرَ السنةَ التي قبلَهُ والتي بعدَهُ[1]﴾.

6- التكبيرُ وسائرُ الأذكارِ والأدعيةِ المشروعةِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾[الحج:28]، وقد فُسِّرَتْ بأنها أيامُ العشرِ. وروى أحمد عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: ﴿ما مِنْ أيامٍ أعظمُ ولا أحبُّ إلى الله العملُ فيهنَّ من هذه الأيامِ العشرِ، فأكثروا فيهنَّ من التهليلِ والتكبيرِ والتحميدِ﴾.

وذكر البخاري عن ابنِ عمرَ وأبي هريرة رضي الله عنه أنهما كانا يخرجان إلى السوقِ في العشرِ، فيُكَبِّرُونَ ويُكَبِّرُ الناسُ بتكبيرِهِمَا.

7- الأضحيةُ في يومِ النحرِ وأيامِ التشريقِ، وهي سنةُ أبينا إبراهيمَ عليه السلام حين فَدَى اللهُ ولدَهُ إسماعيلَ بذِبْحٍ عظيمٍ، وقد ثبتَ "أَنَّ النبيَّ ﷺ

---

[1]- هذا فضلٌ عظيمٌ لا يُفَرِّطُ في الحصولِ عليه لا محرومٌ -نسألُ اللهَ العافيةَ للجميعِ-؛ ذلك أن ذنوبَنَا من الصغائرِ متكاثرةٌ علينا، ولو لم تُمْحَ بمثلِ هذه الأعمالِ الصالحةِ لاَجْتَمَعَتْ علينا يومَ القيامةِ فأهلكتْنَا. وعلى فَرَضِ أَنَّ المسلمَ سَلِمَ من أكثرِ الصغائرِ، فإنَّ هذا لا يُسَوِّغُ له التفريطَ في فضلِ صيامِ يومِ عرفةَ؛ ذلك أنَّ مَنْ لم تكن له ذنوبٌ تُمْحَى، قَلَبَهَا اللهُ تعالى له بفضلِهِ وكرمِهِ حسناتٍ؛ فإنه عز وجل لا يضيعُ أجرَ المحسنين.

ضحَّى بكبشيْنِ أملحيْنِ[1] أقرنيْنِ[2]، ذبحَهما بيدِهِ وسَمَّى وكَبَّرَ، ووضعَ رجلَهُ على صِفَاحِهِمَا[3]"[متفق عليه].

ومن عزم على الأضحيةِ فعليه أن لا يأخذَ من شعره وأظفاره شيئًا إلى أن يضحِّي، فقد روى مسلمٌ عن أمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال: ﴿إذا رأيتُمْ هلالَ ذي الحجةِ وأراد أحدُكم أن يضحِّي، فلْيُمْسِكْ عن شعرِهِ وأظفارِهِ[4]﴾؛ ولعلَّ ذلك تشبهًا بِمَنْ يسوقُ الهديَ[5]، فقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلاَ تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾[البقرة:196].

وهذا النهيُ بَخُصُّ صاحبَ الأضحيةِ، ولا يَعُمُّ الزوجةَ ولا الأولادَ، إلا إذا كان لأحدِهم أضحيةٌ تَخُصُّهُ، ولا بأسَ بغسلِ الرأسِ ودَلْكِهِ ولو سَقَطَ منه شيءٌ من الشعرِ.

8- أداءُ صلاةِ العيدِ، وحضورُ خطبتِهِ، والاستفادةُ منها، مع استحضارِ الحكمةِ التي لأجلها شُرِعَ العيدُ، فهو فرصةٌ للشكرِ والعملِ الصالِحِ.

---

[1]- أملحيْنِ: الأملحُ من الكباشِ هو الذي فيه بياضٌ وسوادٌ، وبياضُهُ أكثرُ من سوادِهِ.

[2]- أقرنيْنِ: الأقرنُ من الكباشِ هو الذي له قَرْنَانِ.

[3]- صِفَاحِهِمَا: صفحةُ كلِّ شيءٍ وجهُهُ وجانبُهُ، والمرادُ هنا صِفَاحُ أعناقِهما.

[4]- مِنَ الأخطاءِ اللغويةِ الشائعةِ قولُهم: "أَظَافِرُ"، مع أنَّ الصوابَ هو: "أَظْفَارُ"، وهذا هو الذي نطقَ به أفصحُ العربِ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ.

[5]- الهديُ: هو ما يُهْدَى إلى البيتِ المعظَّمِ من الأنعامِ.

نقـولُ هـذا؛ حتـى لا يجعلَـهُ المسـلمُ موسـمًا للمعصـيةِ والتوسـعِ فـي المحرماتِ كالأغاني والملاهي والتبرجِ ونحوِهَا، مِمَّا قد يكون سببًا لِحُبُوطِ الأعمالِ الصالحةِ التي عَمِلَهَا في أيامِ العشرِ.

وفـي الختـامِ، نسـألُهُ جـلَّ وعـلاَ أن يُوَفِّقَنَـا إلـى اغتنـامِ مواسـمِ الخيـرِ وسائرِ أيامِ العمرِ فيما يُحِبُّهُ ويرضاهُ، وأن يتقبَّلَ مِنَّا صالحَ أعمالِنَا؛ إنه على ذلك قديرٌ، وبالإجابةِ جديرٌ؛ إنه نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصيرُ، وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

المحاضرة الثامنة عشرة

مِنْ فضائلِ وصُوَرِ بِرِّ الوالدَيْنِ

إنَّ أعظمَ الناسِ فضلاً على الإنسانِ وَالِدَاهُ؛ ذلك أنَّهما كانا سببًا في وجودِهِ في هذه الدنيا، وأنَّهما قَدَّمَا له خدماتٍ كثيرةً منذ عُلُوقِهِ نطفةً في رحمِ أمِّهِ، إلى أن أصبحَ بشرًا سويًّا يصولُ ويجولُ. ولذا كان لِزَامًا على الولدِ أن يَرُدَّ لوالديْهِ شيئًا من الجميلِ[1] الذي قَدَّمَاهُ له، وذلك من خلالِ بِرِّهِمَا. ولو أنَّ الولدَ المسلمَ وُفِّقَ إلى ذلك، فإنَّهُ سيحصِّلُ فضائلَ كثيرةً، نذكُرُ أهمَّهَا فيما يأتي:

1- اكتسابُ الأجرِ والثوابِ؛ لأنَّ بِرَّهُمَا عبادةٌ: يقول الله ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ[2] حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ[3] وَفِصَالُهُ[4] فِي عَامَيْنِ أَنِ

---

[1]- قلتُ: "شيئًا من الجميلِ"؛ لأنَّ الولدَ لن يستطيعَ أن يردَّ الجميلَ كلَّهُ لوالديْهِ مهما قدَّمَ لهما من خيرٍ، ذلك أنَّ لهما فضلَ السَّبْقِ، وأنَّهما كَانَا يُقَدِّمَانِ له الجميلَ ويتمنَّيَانِ له البقاءَ، وهو -شاءَ أم أَبَى- يُقَدِّمُ لهما الجميلَ وينتظرُ لهما الفناءَ.

[2]- وَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ: أي أَمَرْنَاهُ وأَوْجَبْنَا عليه بِرَّهُمَا.

[3]- وَهْناً عَلَى وَهْنٍ: ضعفًا على ضعفٍ، وتَعَبًا على تَعَبٍ. ويُقْصَدُ بذلك مشقةُ الحملِ والولادةِ والرضاعِ والحضانةِ.

[4]- فِصَالُهُ: فِطَامُهُ.

اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِن جَاهَدَاكَ[1] عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ[2] ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[لقمان:14-15].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ﷺ قال: سألتُ النبيَّ ﷺ: "أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى اللهِ؟" قال: ﴿الصلاةُ لوقتِهَا﴾. قلت: ثم أيٌّ؟ قال: ﴿برُّ الوالدينِ﴾. قلتُ: "ثم أيٌّ؟" قال: ﴿الجهادُ في سبيلِ اللهِ﴾. قال: "حَدَّثَنِي بهنَّ، ولو استزدتُّهُ[3] لَزَادَنِي".[متفق عليه].

2- تفريجُ الكرباتِ: ودليلُ ذلك حديثُ ثلاثةِ الغارِ الذي رواه عبدُ اللهِ بنُ عمرَ ﷺ عندما قال سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ﴿انطلقَ ثلاثةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كان قبلَكم، حتى آوَاهُمُ الْمَبِيتُ إلى غارٍ فدخلُوا، فانحدرتْ صخرةٌ من الجبلِ فسدَّتْ عليهم الغارَ، فقالُوا: إنَّهُ لا يُنْجِيكُمْ من هذه الصخرةِ إلاَّ أن تَدْعُوا اللهَ بصالحِ أعمالِكم[4]. فقال رجلٌ منهم: اللهمَّ كان لي أبوانِ شيخَانِ كبيرانِ، وكنتُ لا أَغْبِقُ[5] قبلَهما أهلاً ولا

---

[1]- جَاهَدَاكَ: بَذَلاَ جُهْدَهُمَا.

[2]- مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ: مَنْ رجعَ إليَّ بالتوحيدِ والطاعةِ.

[3]- استزدتُّهُ: طلبتُ الزيادةَ.

[4]- وهذه من الوسائلِ المشروعةِ التي يُمْكِنُ أن يتوسَّلَ بها المسلمُ إلى ربِّهِ جلَّ في عُلاَهُ عند النوائبِ؛ حتى يُنَفِّسَهَا عنه.

[5]- أَغْبِقُ: أَسْقِي وأُشْرِبُ غَيْرِيَ الْغَبُوقَ، وهو شرابُ آخرِ النهارِ.

مالاً[1]، فنَأَى بي طلبُ شجرٍ يومًا[2]، فلم أَرُحْ عليهما حتى نَامَا، فحلبْتُ لهما غَبُوقَهُمَا، فوجدتُّهما نائميْنِ، فكرهْتُ أن أَغْبِقَ قبلَهما أهلاً أو مالاً، فلبثْتُ والقدحُ على يديَّ أنتظرُ استيقاظَهما، حتى بَرَقَ الفجرُ، فاستيقظَا فشَرِبَا غَبُوقَهُمَا. اللهمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهِكَ، ففَرِّجْ عَنَّا ما نحن فيه من هذه الصخرةِ، فانفرجتْ شيئًا لا يستطيعُون الخروجَ منها[3]﴾[رواه الشيخان].

---

[1]- يُقْصَدُ بالمالِ في هذا السياقِ العبيدُ؛ لأنَّهم مِمَّا يُقْتَنَى ويُمْتَلَكُ.

[2]- نَأَى بي طلبُ شجرٍ: أَبْعَدَنِي الاحتطابُ فتأخرْتُ.

[3]- وتمامُ الحديثِ: ﴿وقال الآخَرُ: اللهمَّ كانت لي ابنةُ عمٍّ كانت أحبَّ الناسِ إليَّ، فأردتُّهَا عن نفسِهَا فامتنعتْ منِّي، حتى أَلَمَّتْ بها سَنَةٌ من السِّنِينَ، فجاءتْنِي، فأعطيتُهَا عشرين ومائةَ دينارٍ، على أن تُخَلِّي بيني وبين نفسِهَا، ففعلتْ، حتى إذا قَدِرْتُ عليها، قالتْ: لا يَحِلُّ لك أن تَفُضَّ الخاتَمَ إلاَّ بحقِّهِ، فتحرَّجْتُ من الوقوعِ عليها، فانصرفتُ عنها وهي أحبُّ الناسِ إليَّ، وتركتُ الذهبَ الذي أعطيتُهَا. اللهمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهِكَ، فافْرُجْ عنَّا ما نحن فيه، فانفرجتْ الصخرةُ، غيرَ أنَّهم لا يستطيعُون الخروجَ منها. وقال الثالثُ: اللهمَّ إنِّي استأجرتُ أجراءَ، وأعطيتُهم أجرتَهم، غيرَ رجلٍ واحدٍ، تركَ الذي له وذهبَ، فثَمَّرْتُ أجرَهُ، حتى كَثُرَتْ منه الأموالُ، فجاءني بعد حينٍ فقال لي: يا عبدَ اللهِ أَدِّ إليَّ أجري. فقلتُ: كلُّ ما تَرَى من أجرِكَ من الإبلِ والبقرِ والغنمِ والرقيقِ. فقال: يا عبدَ اللهِ لا تَسْتَهْزِئْ بي. فقلتُ: إنِّي لا أستهزِئُ بِكَ. فأخذَهُ كلَّهُ، فسَاقَهُ، فلم يترُكْ منه شيئًا. اللهمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهِكَ، فافْرُجْ عنَّا ما نحن فيه، فانفرجتِ الصخرةُ، فخرجُوا يَمْشُونَ﴾[رواه الشيخان].

3- تكفيـــرُ الـــذنوبِ: يقـــول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْحَسَـــنَاتِ يُـــذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[هود:114]. والشاهدُ من هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ برَّ الوالديْنِ عبادةٌ جليلةٌ، يحصِّلُ المسلمُ من خلالِهَا حسناتٍ كثيرةً، تكونُ كفيلـةً -بإذنِهِ جلَّ وعلاَ- بمَحْوِ آثارِ صغائرِ ذنوبِهِ.

وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنه أن رجلاً أَتَى النبيَّ ﷺ فقال: "يا رسولَ اللهِ، إني أصبتُ ذنبًا عظيمًا، فهل لي من توبةٍ؟" قال: ﴿هل لَكَ من أمٍّ؟﴾ قال: "لا". قال: ﴿وهل لَكَ من خالةٍ؟﴾ قال: "نعم". ﴿قال: فبُرَّهَا﴾[1][رواه الترمذي].

4- التوسعةُ في الرزقِ، والبركةُ في العمرِ: عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: ﴿مَنْ أحبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقِهِ، ويُنْسَأَ له في أَثَـرِهِ[2]، فلْيَصِـلْ رَحِمَـهُ﴾[رواه الشيخان]. ومعلومٌ أنَّ الأبـويْنِ -مع الأولادِ الصِّلْبِيِّينَ- أقربُ أرحامِ الشخصِ إليه، ولذا فهُمَا على رأسِ الأرحامِ التي يجبُ أن تُوصَلَ، وبِصِلَتِهِمَا يحصلُ الفضلُ الواردُ في الحديثِ.

---

[1]- هناك تعليقٌ مهمٌّ على هذا الحديثِ، أرجُو أن يُرْجَعَ إليه في المحاضرةِ السابعةِ التي موضُوعُهَا: "بعضٌ مِنْ مُكَفِّرَاتِ الذنوبِ من خلالِ السنةِ النبويةِ".

[2]- يُنْسَأَ له في أَثَرِهِ: يُؤَخَّرَ له في أجلِهِ، وهو كنايةٌ عن البركةِ في العمرِ.

5- قبولُ الأعمالِ الصالحةِ[1]: يقول الله ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً[2] وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ[3] وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ[4] رَبِّ أَوْزِعْنِي[5] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا[6] وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ[7] فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[الأحقاف:15-16].

6- استجابةُ الدعوةِ: عن عمرَ بنِ الخطابِ ؓ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ خيرَ التابعين رجلٌ يُقَالُ له أُوَيْسٌ[8]، وله والدةٌ هو بها بَرٌّ،

---

[1]- ما أحوجَ الإنسانَ إلى أن تُقْبَلَ منه صَالِحَاتُهُ؛ ذلك أنَّهُ يَكِدُّ ويَجِدُّ، ويأتي بسائرِ الطاعاتِ، ولكن لا يَعْلَمُ هل قُبِلَتْ منه أم لا، فتأتي بركةُ برِّ الوالدَيْنِ، لِتُبَشِّرِ المسلمَ البارَّ بأنَّ طاعاتِهِ قد قُبِلَتْ منه بإذنهِ جلَّ وعلاَ.

[2]- كُرْهاً: على مشقةٍ.

[3]- بَلَغَ أَشُدَّهُ: وصلَ كمالَ قوتِهِ الجسديةِ والعقليةِ.

[4]- أي: الشخصُ الذي عَرَفَ حقَّ والديْهِ، فكان بَارًّا بهما؛ عملاً بوصيةِ ربِّهِ، وائتمارًا بأمرِهِ.

[5]- أَوْزِعْنِي: أَلْهِمْنِي ووَفِّقْنِي.

[6]- وهذا هو مَحَلُّ الشاهدِ من هذا السياقِ القرآنيِّ.

[7]- نَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ: لا نؤاخذُهم بها، بل نَغْفِرُهَا. وفي هذا تأكيدٌ على فضلٍ سابقٍ وهو: تكفيرُ الذنوبِ.

[8]- هو أويسُ بنُ عامرٍ القرنيُّ من أهلِ اليمنِ.

بَـرٌّ، لـو أَقْسَـمَ علـى اللهِ لَأَبَـرَّهُ، وكـان بـه بيـاضٌ[1]، فمُـرُوهُ فلْيَسْـتَغْفِرْ لكم﴾[رواه مسلم]. فهذا العبدُ الصالحُ ما جعلَهُ المولَى ﷻ مستجابَ الدعوةِ، إلا بسببِ بِرِّهِ بوالدتِهِ.

7- الظفـرُ ببِـرِّ الأولادِ: جاء في الأثـرِ: "اعمـلْ مـا شِـئْتَ، كمـا تَـدِينُ تُدَانُ[2]"، وهذا يعني أن الذي يريدُ أن يَظْفَرَ ببرِّ أولادِهِ وطاعتِهم له، عليه عليه أن يُبَادِرَ هو إلى البرِّ بوالديْهِ. أما إذا عَقَّهُمَا وأساءَ إليهما -لا قَدَّرَ اللهُ-، فعليه أن ينتظرَ من أولادِهِ مستقبلاً الصنيعَ نفسَهُ.

وزوجةُ الابنِ مطالبةٌ ببرِّ والديْ زوجِهَا؛ إعانةً لزوجِهَا على بِرِّهِـمَا -وهـذا مـن حُسْـنِ عشـرتِهَا لـه-، وكـذا حتـى تَحْظَـى ببِـرِّ زوجـةِ ابنِهَـا مسـتقبلاً. أُذَكِّـرُ بهـذا؛ لأنَّ عـددًا مُعْتَبَـرًا مـن زوجـاتِ الأبنـاءِ فـي هـذا الزمـانِ -إلا مَنْ رَحِـمَ ربِّـي- لا تُعْنَـى ببِـرِّ والـديْ زوجِهـا، بـل بعضُـهن يُسِئْنَ إليهما، وربُّما حَرَّضْنَ الابنَ عليهما. فلْيَتَّقِ اللهَ هذا الصنفُ من النساءِ في آبائِهن، ولْيَسْتَعِنَّ على شياطينِهِنَّ بتذكيرِ أنفسِهن بأنَّ الجزاءَ في الدنيا -قبل الآخرةِ- من جنسِ العملِ.

8- الذِّكْرُ الْحَسَنُ في الدنيا: فمَنْ أرادَ أن يَذْكُرَهُ الناسُ بخيرٍ في حياتِهِ وبعدَ مماتِهِ، فلْيُبَادِرْ إلى بِرِّ الوالديْن؛ ذلك أنَّ أصحابَ الْفِطَرِ النقيَّةِ، والأذواقِ السليمةِ، من عادتِهم أن يَمْتَدِحُوا مَنْ كان بَارًّا بوالديْهِ.

---

[1]- بياضٌ: بَرَصٌ.

[2]- تُنْسَبُ هذه المقالةُ للنبيِّ ﷺ، ولكنَّها لم تثبتْ عنه.

بل إنَّنا نجدُ القرآنَ الكريمَ نفسَهُ، لَمَّا أرادَ أن يُخَلِّدَ ذِكْرَ يحيى عليه السلام، ذَكَرَ له أوصافًا مِنْ بينِهَا بِرُّهُ بوالديْهِ. قال الله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ[1] صَبِيّاً وَحَنَاناً[2] مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً[3] وَكَانَ تَقِيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً[4] وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾[مريم:12-15].

9- دخولُ الجنةِ في الآخرةِ: رُوِيَ عن معاويةَ بنِ جَاهِمَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قال: أتيتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إِنِّي كنتُ أردتُّ الجهادَ معك؛ أبتغي بذلك وجهَ اللهِ والدارَ الآخرةَ. قالَ: «وَيْحَكَ، أَحَيَّةٌ أُمُّكَ؟!». قلتُ: نعم. قال: «ارْجِعْ فَبُرَّهَا». ثم أتيتُهُ من الجانبِ الآخَرِ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إِنِّي كنتُ أردتُّ الجهادَ معك؛ أبتغي بذلك وجهَ اللهِ والدارَ الآخرةَ. قال: «وَيْحَكَ، أَحَيَّةٌ أُمُّكَ؟!». قلتُ: نعم يا رسولَ اللهِ. قال: «فَارْجِعْ إليها فَبُرَّهَا». ثم أتيتُهُ من أمامِهِ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إِنِّي كنتُ أردتُّ الجهادَ معك؛ أبتغي بذلك وجهَ اللهِ

---

[1]- الْحُكْمَ: الفقهَ في الدينِ، ومعرفةَ أسرارِ التشريعِ.

[2]- حَنَاناً: عطفًا على الناس.

[3]- زَكَاةً: طهارةً من الذنوبِ والآثامِ.

[4]- الجَبَّارُ هو الْمُتَعَالِي الذي لا يقبلُ الحقَّ، والعصيُّ مَنْ لا يطيعُ ربَّهُ ووالديْهِ.

والدارَ الآخرةَ. قال: ﴿وَيْحَكَ، أَحَيَّةٌ أُمُّكَ؟!﴾. قلتُ: نعم يا رسولَ اللهِ. قال: ﴿وَيْحَكَ، الْزَمْ رِجْلَهَا[1]؛ فَثَمَّ الجنةُ﴾[رواه ابن ماجة].

هذه أهمُّ الفضائلِ التي يُمْكِنُ أن يحصِّلَهَا مَنْ أكرمَهُ اللهُ ببِرِّ والديْهِ. وحتى نكونَ عَمَلِيِّينَ، ينبغي أن نعرفَ في هذا المقامِ صورَ البرِّ بهما؛ حتى نُجَسِّدَهَا في علاقتِنَا مع وَالِدِينَا. فمِنْ بين صورِ البرِّ:

1- النفقةُ عليهما إنْ كَانَا محتاجيْنِ: اتفقَ الفقهاءُ على أنَّ نفقةَ الولدِ على والديْهِ واجبةٌ إذا كَانَا فقيريْنِ، أمَّا إذا أَغْنَاهُمَا اللهُ عنه بمالٍ آخَرَ، فلا تجبُ عليه، إلاَّ أن يتطوَّعَ بها.

2- الهديةُ لهما وخاصةً في المناسباتِ: إذا كانت الهديةُ مستحبةً في حقِّ سائرِ الناسِ، فهي تتأكَّدُ في حقِّ الوالديْنِ؛ إذ إنَّ الأقربين أَوْلَى بالمعروفِ.

3- التصدقُ عليهما بعدَ وفاتِهما: سألَ سعدُ بنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه فقال: "يا رسولَ اللهِ، إنَّ أمِّي مَاتَتْ، أَفَأَتَصَدَّقُ عنها". قال: ﴿نَعَمْ﴾. قلتُ: "فأيُّ الصدقةِ أفضلُ؟" قال: ﴿سَقْيُ الماءِ﴾[رواه النسائي].

4- إعانتُهما على إقامةِ الشعائرِ الدينيةِ: وذلك كأداءِ الحجِّ والعمرةِ والأضحيةِ. رَوَى البخاريُّ في الأدبِ المفردِ أنَّ رجلاً يَمَانِيًّا كان

---

[1]- ينبغي أن يُعْلَمَ بأنَّ حديثَ: "الجنةُ تحت أقدامِ الأمهاتِ" لم يَثْبُتْ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ويُغْنِي عنه هذا الحديثُ الصحيحُ.

يطوفُ بالبيتِ، وقد حَمَلَ أمَّهُ وراءَ ظهرِهِ، فرأى ابنَ عمرَ ﵁ فسألَهُ قائلاً: "أَتُرَانِي جَزَيْتُهَا؟" قال: "لاَ، ولا بزَفْرَةٍ واحدةٍ[1]".

5- التواصلُ معهما بالزيارةِ أو الرسالةِ أو الهاتفِ: فكما أنَّ الآباءَ يريدُون من ابنِهم برًّا ماديًّا، فإنَّهم يريدُون منه أيضًا برًّا معنويًّا؛ ذلك أنَّهم يَأْنَسُونَ كثيرًا، بل يَسْعَدُونَ سعادةً غامرةً عندما يكونُ ابنُهم بين أيدِيهم جالسًا معهم، أو على الأقلِّ يُطَمْئِنُهُمَ برسالتِهِ أو صوتِهِ. وبالعكس، فإنَّهُ يَشُقُّ عليهم غيابُهُ، أو انقطاعُ أخبارِهِ.

6- الكلامُ معهم بلطفٍ ولِينٍ: وهذا ما أَوْصَى به القرآنُ الكريمُ عندما قال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ[2] أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً[3] إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ[4] وَلاَ تَنْهَرْهُمَا[5] وَقُل

---

[1]- في جوابِ ابنِ عمرَ ﵁ إشارةٌ إلى ما تلاقيه المرأةُ من آلامِ الْمَخَاضِ والوضعِ.

[2]- قَضَى رَبُّكَ: أَمَرَ وأَلْزَمَ.

[3]- مِمَّا يُؤَكِّدُ عظمَ حقِّ الوالديْنِ: أنَّ النصوصَ الشرعيةَ كثيرًا ما تَقْرِنُ بين حقِّ اللهِ تعالى وحقِّهما. وآياتُ الإسراءِ هذه دليلٌ على ذلك، إضافةً إلى حديثِ ابنِ مسعودٍ ﵁ الذي أوردناه في الفضيلةِ الأولى من فضائلِ برِّ الوالديْنِ.

[4]- أُفٍّ: كلمةٌ فيها تضجُّرٌ وكراهيةٌ. والتعبيرُ بهذه الكلمةِ في هذا السياقِ مِنْ أبلغِ ما في القرآنِ الكريمِ؛ ذلك أنَّهُ لا توجدُ كلمةٌ تدلُّ على أدنى ما يُمْكِنُ أن يتأذَّى به الوالدانِ غيرُ هذه الكلمةِ.

[5]- لاَ تَنْهَرْهُمَا: لا تَزْجُرْهُمَا بالكلمةِ القاسيةِ.

لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً[1] وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ[2] وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[الإسراء:23-24].

7- الابتسامةُ في وجهِهما: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿كلُّ معروفٍ صدقةٌ، وإنَّ من المعروفِ أن تَلْقَى أخاك بوجهٍ طَلْقٍ، وأن تُفْرِغَ من دَلْوِكَ في إناءِ أخيك﴾[رواه أحمد والترمذي]. فإذا كان المسلمُ يُؤْجَرُ على الابتسامةِ في وجهِ أخيه المسلمِ الذي لا تَجْمَعُهُ به إلا رابطةُ الدينِ، فإنَّ أجرَهُ يَعْظُمُ إذا كانت هذه الابتسامةُ في وجهِ أقربِ الناسِ إليه وهما وَالِدَاهُ الكريمانِ[3].

8- القيامُ بتمريضِهما: وقد ضربَ بعضٌ من الأولادِ الطيِّبين في هذا الزمانِ المثلَ الأعلى في تمريضِ أحدِ أبويْهم أو كليْهما؛ حيث تجدُهُ يجاهِدُ فيهما يوميًّا، ولا يدخرُ أيَّ جهدٍ أو مالٍ في سبيل جلبِ الشفاءِ لَهُمَا: من طبيبٍ إلى آخرَ، ومن بلدٍ إلى آخرَ، ومن نفقةٍ إلى أخرى، ومن سنةٍ إلى أخرى. وربَّما ألجأَهُ ذلك إلى التوقفِ عن عملِهِ لأجلِ

---

[1]- قَوْلاً كَرِيماً: كلامًا جميلاً لَيّنًا.

[2]- اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ: أي أَلِنْ لهما جانبَك، وتواضعْ لهما.

[3]- قد تَمُرُّ بالمسلمِ ظروفٌ معينةٌ تجعلُهُ لا يكادُ يضحَكُ أو يبتسمُ من شدةِ هَوْلِهَا عليه، فهَاهُنَا عليه أن يتكلَّفَ الابتسامةَ في حضرةِ والديْهِ؛ لأنَّهُ إن قَابَلَهما على تلك الهيئةِ، فإنَّهما سيكتشِفان حالتَهُ المزريةَ، الأمرُ الذي يدخلُهما في دَاوَّمَةٍ نفسيةٍ وجسديةٍ لا يَعْرِفُهَا إلا مَنْ ذاقَ طعمَ الأبوةِ وأذيَّتها بمُصَابِ فِلْذَةِ أكبادِها.

أن يكونَ إلى جانبِهما في المستشفى، أو إلى الاستدانةِ من أجلِ توفيرِ ما يحتاجانِهِ في ذلك الظرفِ العصيبِ[1].

---

[1]- مِنْ أحسنِ ما وقفتُ عليه من قصصٍ معاصرةٍ مؤثرةٍ في هذا المضمارِ قصةُ الطبيبةِ الأجنبيةِ التي أذهلَهَا برُّ الوالديْنِ في الإسلامِ فأسلمتْ. تقولُ عن ذلك: "أولُ مرةٍ سمعتُ فيها كلمةَ الإسلامِ كانت أثناء متابعتي لبرنامجٍ تليفزيونيٍّ، فضحكتُ من المعلوماتِ التي سمعتُها. بعد عامٍ من سماعي كلمةَ "الإسلامِ" استمعتُ لها مرةً أخرى، ولكن أين؟ في المستشفى الذي أعملُ فيه، حيث أَتَى زوجانِ وبصحبتِهما امرأةٌ مريضةٌ. جلستِ الزوجةُ تنظرُ أمامَ المقعدِ الذي أجلسُ عليه لمتابعةِ عملي، وكنتُ أُلاَحِظُ عليها علاماتِ القلقِ، وكانت تمسحُ دموعَهَا. من بابِ الفضولِ سألتُهَا عن سببِ ضيقِهَا، فأخبرتْنِي أنها أتتْ من بلدٍ آخرَ مع زوجِهَا الذي أَتَى بأمِّهِ باحثًا لها عن علاجٍ لمرضِهَا الْعُضَالِ. كانت المرأةُ تتحدثُ معي وهي تبكِي، وتدعُو لوالدةِ زوجِهَا بالشفاءِ والعافيةِ، فتعجبتُ لأمرِهَا كثيرًا: تأتي من بلدٍ بعيدٍ مع زوجِهَا من أجلِ أن يعالجَ أمَّهُ؟ تذكرتُ أمِّي وقلتُ في نفسِي: أين أمِّي؟ قبلَ أربعةِ أشهرٍ أهديتُهَا زجاجةَ عطرٍ بمناسبةِ "يومِ الأمِّ"، ولمْ أفكرْ منذ ذلك اليومِ بزيارتِهَا! هذه هي أمِّي، فكيف لو كانت لي أمَّ زوجٍ؟ لقد أدهشَنِي أمرُ هذيْنِ الزوجيْنِ، ولا سِيَّمَا أن حالةَ الأمِّ صعبةٌ، وهي أقربُ إلى الموتِ منها إلى الحياةِ. أدهشَنِي أمرُ الزوجةِ: ما شأنُهَا وأمُّ زوجِهَا؟ أَتُتْعِبُ نفسَهَا -وهي الشابةُ الجميلةُ- من أجلِهَا؟ لماذا؟ لم يَعُدْ يشغلُ بَالِي سِوَى هذا الموضوعِ، تَخَيَّلْتُ نفسِي لو أنِّي بَدَلَ هذه الأمِّ، يا لَلسَّعَادَةِ التي سأشعرُ بها، يا لَحَظِّ هذه العجوزِ! إنِّي أَغْبطُهَا كثيرًا. كان الزوجانِ يجلسانِ طيلةَ الوقتِ معها، وكانت مكالماتٌ هاتفيةٌ تصلُ إليهما من الخارجِ، يسألُ فيها أصحابُهَا عن حالِ الأمِّ وصحتِهَا. دخلتُ يومًا غرفةَ الانتظارِ فإذا بها جالسةٌ، فقمتُ باستغلالِ=

9- الدعاءُ لهما، سواء كَانَا حَيَّيْنِ أو مَيِّتَيْنِ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿إذا ماتَ ابنُ آدَمَ انقطعَ عملُهُ إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يَدْعُو له﴾[رواه مسلم].

10- صلةُ وإكرامُ أقاربِهما وأصدقائِهما: وهذا ما قرَّرَهُ حديثُ أبي أُسَيْدٍ مالكِ بنِ ربيعةَ الساعديِّ رضي الله عنه عندما قال: بينا نحن جلوسٌ عند رسولِ اللهِ ﷺ، إذ جاء رجلٌ من بني سلمةَ فقال: "يا رسولَ اللهِ، هل بَقِيَ من بِرِّ أَبَوَيَّ شيءٌ أَبَرُّهُمَا به بعد موتِهما؟" قال: ﴿نعمْ؛ الصلاةُ عليهما[1]، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدِهما من بعدِهما، وصلةُ الرحمِ

=فرصةٍ لأسألَهَا عمَّا أريدُ. حدثتْنِي كثيرًا عن حقوقِ الولديْنِ في الإسلامِ، وأذهلَنِي ذلك القدرُ الكبيرُ الذي يرفعُهما الإسلامُ إليه، وكيفيةُ التعاملِ معهما. بعد أيامٍ توفيتِ العجوزُ، فبكَى ابنُهَا وزوجتُهُ بكاءً حارًّا وكأنَّهما طفلانِ صغيرانِ. بقيتُ أفكرُ في هذيْنِ الزوجيْنِ وبما علمتُهُ عن حقوقِ الوالديْنِ في الإسلامِ. وأرسلتُ إلى أحدِ المراكزِ الإسلاميةِ بطلبِ كتابٍ عن حقوقِ الوالديْنِ. ولمَّا قرأتُهُ عشتُ بعدَهُ في أحلامِ يقظةٍ أتخيلُ خلالَها أنِّي أمٌّ ولي أبناء يحبُّونني، ويسألون عنِّي، ويُحْسِنُونَ إليَّ حتى آخرِ لحظةٍ من عمري، ودون مقابلٍ. هذا الحلمُ الجميلُ أعلنَ إسلامي دون أن أعرفَ عن الإسلامِ سوى حقوقِ الوالديْنِ فيه. الحمدُ لله تزوجتُ من رجلٍ مسلمٍ، وأنجبتُ منه أبناء، ما بَرِحْتُ أدعُو لهم بالهدايةِ والصلاحِ، وأن يرزقَني اللهُ بِرَّهُمْ ونفعَهم".

[1]- الصلاةُ عليهما: أي الدعاءُ لهما.

التي لا تُوصَلُ إلاَّ بهما، وإكرامُ صديقِهما﴾[رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان في صحيحه[1]].

وفي خاتمةِ هذا الموضوعِ، أريدُ أن أُنَبِّهَ إلى أمريْنِ مُهِمَّيْنِ:

أولُهما: أنَّ الأمَّ أحقُّ بالبرِّ من الأبِ؛ نظرًا لضعفِهَا النفسيِّ والجسديِّ كأنثى، إضافةً إلى أنَّ عطاءاتِها للابنِ -في الأغلبِ- أكثرُ من عطاءاتِ الأبِ له.

ولذا وجدْنا القرآنَ الكريمَ يُؤَكِّدُ على حقِّها، يقول الله ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[لقمان:14]. ويقول أيضًا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾[الأحقاف:15].

كما أنَّ النبيَّ ﷺ جعلَ لها ثلاثةَ أرباعِ البرِّ، فعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رجلٌ: "يا رسولَ اللهِ، مَنْ أحقُّ بحُسْنِ صحابتي؟" قال: ﴿أُمُّكَ﴾. قال: "ثم مَنْ؟" قال: ﴿أُمُّكَ﴾. قال: "ثم مَنْ؟" قال: ﴿أُمُّكَ﴾. قال: "ثم مَنْ؟" قال: ﴿أَبُوكَ﴾.[متفق عليه].

ثانيهما: إذا تقرَّرَ أنَّ برَّ الوالديْنِ واجبٌ شرعيٌّ، وأنَّهُ من أعظمِ القرباتِ التي يتقرَّبُ بها المسلمُ من ربِّهِ، فإنَّهُ ينبغي أن يُعْرَفَ أيضًا أن عقوقَهما والتفريطَ في حقِّهما يُعَدُّ من أكبرِ الكبائرِ التي يُمْكِنُ أن يَقْتَرِفَهَا

---

[1]- في روايةِ ابنِ حِبَّانَ زيادةٌ في آخرِ الحديثِ: قال الرجلُ: "ما أكثرَ هذا يا رسولَ اللهِ وأَطْيَبَهُ". قال: ﴿فاعملْ به﴾.

المسلمُ؛ بدليلِ حديثِ أبي بَكْرَةَ ﷺ عندما قال: "كُنَّا عند رسولِ اللهِ ﷺ فقال: ﴿ألاَ أنبِّئكم بأكبرِ الكبائرِ؟ -ثلاثًا-﴾. قلْنا: "بلى يا رسولَ اللهِ". قال: ﴿الإشراكُ باللهِ، وعقوقُ الوالديْنِ﴾. وكان مُتَّكِئًا فجلسَ فقال: ﴿ألاَ وقولَ الزورِ، وشهادةَ الزورِ﴾. فما زالَ يكرِّرُهَا، حتى قلْنا: لَيْتَهُ سكتَ". [متفق عليه][1].

نسألُكَ اللهمَّ أن تجعلَنَا من البارِّينَ بآبائِهم وأمهاتِهم، وأن ترزقَنَا برَّ أبنائِنَا وبناتِنَا، اللهمَّ إنَّا نسألُكَ رِضَاكَ والجنةَ، ونعوذُ بك من سخطِكَ ومن النارِ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ صلاةً وتسليمًا دائميْنِ متلازميْنِ على خيرِ البريَّةِ محمدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، والحمدُ لله الذي بنعمتِهِ تَتِمُّ الصالحاتُ.

[1]- نلاحظُ أنَّ النصوصَ الشرعيةَ رَكَّزَتْ كثيرًا على توصيةِ الأبناءِ بالآباءِ خيرًا، ولم تُرَكِّزْ بالحجمِ نفسِهِ على توصيةِ الآباءِ بالأبناءِ؛ ذلك أنَّ محبةَ وخدمةَ الولدِ لوالدِهِ تكلفٌ، بينما محبةُ وخدمةُ الوالدِ لولدِهِ طبعٌ.

المحاضرة التاسعة عشرة

كيف ينال المسلم رحمة الله تعالى؟

إنَّ اللهَ تعالى من أسمائِهِ الرحمنُ والرحيمُ، ومن صفاتِهِ الرحمةُ، قال تعالى في مُسْتَهَلِّ كتابِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[الفاتحة:2-3]. وقال أيضًا: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ[1] لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام:12].

ومِنَ المعلومِ أنَّ المسلمَ في حاجةٍ ماسةٍ إلى أن تنالَهُ تلك الرحمةُ؛ ذلك أنَّهُ لا يَجِدُ رخاءً في الدنيا، ولا سعادةً في الآخرةِ إلا برحمتِهِ ﷻ. وهذا المعنى يَعِيهِ الصالحون جيدًا، فهم لا يَتَّكِلُونَ على أعمالِهم -رغم أنَّهم يقُومُون بها، ويُحْسِنُونَ فيها-، ولكن يَعْتَمِدُونَ على رحمتِهِ جَلَّ وعلاَ، يقولُ اللهُ تعالى على لسانِ سليمانَ عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[النمل:19].

وأَكَّدَ هذا المعنى النبيُّ ﷺ، فقد صَحَّ عن أُمِّنَا عائشةَ رضي الله عنها أنها كانت تقولُ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «سَدِّدُوا وقَارِبُوا وأَبْشِرُوا؛ فإنَّهُ لن

---

[1]- كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ: قضَى وأوجبَ الرحمةَ على نفسهِ تَفَضُّلاً على خلقِهِ.

يُدْخِلَ أحدًا الجنةَ عملُهُ﴾. قالوا: "ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟" قالَ: ﴿ولا أنَا، إلاَّ أنْ يَتَغَمَّدَنِيَ[1] اللهُ برحمتِهِ﴾[رواه الشيخان].

وعلى هذا؛ فإنَّ المسلمَ الحريصَ على أن تنالَهُ رحمةُ اللهِ تعالى، فيُحَصِّلَ بها ما يُحَصِّلُ مِنْ خَيْرَيِ الدنيا والآخرةِ، سيَبْحَثُ عن الوسائلِ التي تُمَكِّنُهُ منها. وهذه الوسائلُ نَذْكُرُ أهمَّهَا فيما يأتي؛ حتى يكونَ المسلمُ على بَيِّنَةٍ من أمرِهِ:

1- الصبرُ عندَ الابتلاءِ: يقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة:155-157].

2- التقوى[2]، وإيتاءُ الزكاةِ، والإيمانُ بالقرآنِ الكريمِ، واتباعُ ما جاءَ فيه من أحكامٍ: يقول جَلَّتْ قدرتُهُ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ[3] فِي التَّوْرَاةِ

---

[1]- تغمَّدَني: غَمَرَنِي وأحاطَنِي.

[2]- التقوى: هي أن يجعلَ المسلمُ لنفسِهِ وقايةً من عذابِ اللهِ تعالى، وذلك بفعلِ أوامرِهِ، واجتنابِ نواهِيهِ.

[3]- الضميرُ عائدٌ على أهلِ الكتابِ من يهودٍ ونصارى، لكن العبرةُ بعمومِ اللفظِ، لا بخصوصِ السببِ.

وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ[1] فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ[2] وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ[3] أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:156-157].

3- موالاةُ أهلِ الإيمانِ، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكرِ، وإقامُ الصلاةِ، وطاعةُ اللهِ ورسولِهِ: يقول جلَّ في عُلاَهُ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ[4] يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ[5] وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:71].

4- الإحسانُ: يقول جلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف:56]. وعرَّفَ النبيُّ ﷺ الإحسانَ بقولِهِ: ﴿أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ، فإن لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ﴾[رواه مسلم].

---

[1]- إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ: عهدَهم بالقيامِ بأعمالٍ ثقالٍ وتكاليفَ شاقةٍ، وذلك كقتلِ النفسِ بالنفسِ بِلاَ عفوٍ ولا دِيَةٍ، وقطعِ الموضعِ من الثوبِ الذي تُصِيبُهُ النجاسةُ بِلاَ غَسْلٍ.

[2]- عَزَّرُوهُ: وَقَّرُوهُ وعظَّمُوهُ.

[3]- النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ: هو القرآنُ الكريمُ.

[4]- بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ: أي يَتَوَلَّى بعضُهم بعضًا في النصرةِ والحمايةِ والمحبةِ والتأييدِ.

[5]- إيتاءُ الزكاةِ ذُكِرَ ضمنَ عناصرِ الوسيلةِ الثانيةِ، وتكرَّرَ هنا.

5- أنْ يكونَ العبدُ رحيمًا مع الناسِ: يقولُ النبيُّ ﷺ: ﴿إنما يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عبادِهِ الرحماءَ﴾[رواه أبو داود]. وثَبَتَ أنَّهُ ﷺ قَبَّلَ الحسنَ أو الحسينَ سِبْطَيْهِ وريحانتيْهِ، وعنده الأقرعُ بنُ حابسٍ التميميُّ ﷺ، فقال الأقرعُ: "إنَّ لي عشرةً من الولد ما قَبَّلْتُ منهم أحدًا قَطْ". فنَظَرَ إليه رسولُ اللهِ ﷺ، ثم قال: ﴿مَنْ لاَ يَرْحَمُ، لاَ يُرْحَمُ﴾[رواه الشيخان].

6- السماحةُ في التعاملِ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿رَحِمَ اللهُ رجلاً سَمْحًا إذا باعَ، وإذا اشترى، وإذا اقْتَضَى[1]﴾[رواه البخاري].

7- إيقاظُ الأهلِ لقيامِ الليلِ: يقولُ النبيُّ ﷺ: ﴿رَحِمَ اللهُ رجلاً قامَ من الليل فصلَّى، وأَيْقَظَ امرأتَهُ فصلَّتْ، فإنْ أَبَتْ رَشَّ في وجهِهَا الماءَ. ورَحِمَ اللهُ امرأةً قامتْ من الليل فصلَّتْ، وأَيْقظَتْ زوجَهَا فصلَّى، فإنْ أَبَى رَشَّتْ في وجهِهِ الماءَ﴾[رواه ابنُ ماجةَ والنسائيُّ].

8- صلاةُ أربعِ ركعاتٍ نافلةً قبلَ صلاةِ العصرِ: يقول صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ: ﴿رَحِمَ اللهُ امْرَءًا صَلَّى قبلَ العصرِ أربعًا[2]﴾[رواه الترمذي].

9- الْحَلْقُ في الحجِّ أو العمرةِ، وكذا التقصيرُ من الشعرِ فيهما: قالَ النبيُّ ﷺ: ﴿رَحِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ﴾. قالوا: "وَالْمُقَصِّرِينَ يا رسولَ اللهِ؟" قال: ﴿رَحِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ﴾. قالوا: "وَالْمُقَصِّرِينَ يا رسولَ اللهِ؟" قال:

---

[1]- اقتضَى: طلبَ قضاءَ حاجتِهِ.

[2]- أي: ما بين أذانِ العصرِ والإقامةِ لصلاتِهِ. وهذه الأربعُ ليستْ من الرواتبِ التي أَكَّدَ عليها النبيُّ ﷺ، وكان يواظبُ على فعلِها.

﴿رَحِـمَ اللهُ الْمُحَلِّقِـينَ﴾. قـالوا: "وَالْمُقَصِّـرِينَ يـا رسـولَ اللهِ؟" قـال: ﴿وَالْمُقَصِّرِينَ﴾[رواه ابن ماجة].

10- مخافةُ اللهِ تعالى[1]: روى الشيخانِ عن أبي سعيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ حَدَّثَهَمْ عن رجلٍ من الأممِ السابقةِ قالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوفاةُ: "أَيُّ أَبٍ كنتُ لكم؟" قالُوا: "خيرَ أَبٍ" قالَ: "فإنِّي لَمْ أعملْ خيرًا قط، فإذا مِتُّ فأَحْرِقُونِي، ثم اسْحَقُونِي، ثم ذُرُّونِي في ريحٍ عاصفٍ"، فَفَعَلُوا، فجَمَعَهُ اللهُ فقالَ: ما حَمَلَكَ؟ فقالَ: "مَخَافَتُكَ"، فتَلَقَّاهُ برحمتِهِ.

11- حضورُ مجالسِ العلمِ والذكرِ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿لا يَقْعُدُ قومٌ يَذْكُرُونَ اللهَ، إلا حَفَّتْهُمُ[2] الملائكةُ، وغَشِيَتْهُمُ[3] الرحمةُ، ونزلتْ عليهم السكينةُ[4]، وذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عنده[5]﴾[رواه مسلم].

12- التوبةُ من الذنوبِ والمعاصي، وطلبُ المغفرةِ منها: يقول اللهُ تعالى على لسانِ صالحٍ عليه السلام وهو يَعِظُ قومَهُ: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[النمل46].

---

[1]- مِنْ أعظمِ ما يُتَقَرَّبُ به إلى اللهِ تعالى مخافتُهُ، ولذا قال بعضُ السلفِ: "رأسُ الحكمةِ مخافةُ اللهِ".

[2]- حَفَّتْهُمُ: أحاطتْ بهم من كلِّ جانبٍ.

[3]- غَشِيَتْهُمُ: غطَّتْهم وعَمَّتْهم.

[4]- السكينةُ: ما يُطَمْئِنُ القلبَ.

[5]- ذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عنده: بَاهَى بهم ملائكةُ السماءِ.

13- التجاءُ العبدِ إلى اللهِ تعالى بالدعاء في الصلاة وخارجِهَا بأنْ يجعلَهُ مِنَ الْمَرْحُومِينَ: وهذا ما صَنَعَهُ فتيةُ الكهفِ الصالحين عندما آوَوْا إلى الكهفِ فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا[1] مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[الكهف:10]. وكان النبيُّ ﷺ يقولُ بين السجدتيْنِ في الصلاةِ: ﴿اللهمَّ اغْفِرْ لي، وارْحَمْنِي، واهْدِنِي، واجْبُرْنِي[2]، وعَافِنِي، وارزقْنِي، وارْفَعْنِي﴾[رواه الترمذي وابن ماجة][3].

وفي خاتمةِ هذا الموضوعِ، أسألُ اللهَ جلَّ في عُلاَهُ أن يجعلَنَا من الْمَرْحُومِينَ في الدنيا والآخرةِ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على المبعوثِ رحمةً

---

[1]- هَيِّئْ لَنَا: يَسِّرْ لنا.

[2]- اجْبُرْنِي: أصلحْ لي حَالِي، واكْفِنِي حاجَتِي.

[3]- مِنَ الأدلةِ أيضًا ما جاءَ في القرآنِ من دعاءٍ على لسانِ الصحابةِ رضي الله عنهم: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:286]. وما رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ أبي أَوْفَى رضي الله عنه قال: "جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنِّي لا أستطيعُ أنْ آخُذَ مِنَ القرآنِ شيئًا، فعلِّمْنِي ما يُجْزِئُنِي. قال: ﴿قُلْ: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلاَّ اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ باللهِ﴾. قالَ: يا رسولَ اللهِ، هذا للهِ، فما ذا لِي؟ قال: ﴿قُلْ: اللهمَّ ارْحَمْنِي، وعافِنِي، واهْدِنِي، وارْزُقْنِي﴾. فقال هكذا بيديْهِ وقَبَضَهُمَا. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿أَمَّا هذا فَقَدْ مَلأَ يديْهِ مِنَ الخيرِ﴾[رواه أبو داود].

للناسِ أجمعين، وعلى آلِهِ وصحبِهِ الطاهرين، وعلى مَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

المحاضرة العشرون

مِنْ أسبابِ نصرِ الإسلامِ والمسلمين والتمكينِ لهما

إنَّ المسلمين اليومَ كثرةٌ كاثرةٌ، يناهزُ عددُهم المليارَ ونصفَ المليارِ، وأراضِيهم شاسعةٌ، وفي باطنِها وعلى سطحِها من الثرواتِ ما فيها وما عليها، ولذا كان من المفترَضِ أن يكونُوا أصحابَ سيادةٍ وريادةٍ في العالَمِ، وتكونَ أمتُهم في طليعةِ الأممِ كما كانت في عهودِ سلفِهم، ويكونَ دينُهم القويمُ مُمَكَّنًا له في الأرضِ كما كان في سابقِ أعصارِهم[1].

ولكنَّ الواقعَ المريرَ يُظهِرُ غيرَ ذلك؛ فبعضُ أراضِيهم تحت سيطرةِ عدوِّهم، وبعضُ مقدساتِهم مغتصَبَةٌ، وكلمتُهم ليست مسموعةً في العالَمِ؛ إذ إنَّ القراراتِ تُقَرَّرُ ضدَّهم وهم يُشَاهِدُونَ ويَسْمَعُونَ ولا يُعْبَأُ بهم، بل إنَّهم أصبحُوا لا يَمْلِكُونَ زمامَ أمورِهم، بحيث يتدخلُ غيرُهم

---

[1]- مِمَّا يُرْوَى عن هارونَ الرشيدِ الخليفةِ العباسيِّ أنَّهُ كان في شرفةِ قصرِهِ بعاصمةِ المسلمين بغدادَ، فنظرَ إلى السماءِ وفيها ما فيها من السُّحُبِ التي تحملُ القطرَ، فقال لتلك السحبِ: "أمطري حيث شئتِ؛ فإنَّ خراجَكِ سوف يأتيني". وهو بذلك يُعَبِّرُ عن اتساعِ رقعةِ بلادِ المسلمين، وامتدادِ سلطانِهم، بحيث يكادُ يشملُ العالَمَ كلَّهُ.

من يهودٍ أو نصارى أو وَثَنِيّينَ أو مَنْ لا دينَ لهم في شؤونِهم الداخليةِ، فيُوَجِّهُونَ سياساتِ بعضِ دولِهم في مختلَفِ المجالاتِ.

وهنا سيَطْرَحُ المسلمُ الحريصُ على خيرِ أمتِهِ، والذي يريدُ لها مسقبلاً مُغَايِرًا للحالِ التي هي عليه الآنَ السؤالَ الآتيَ: ما سِرُّ هذا التردِّي والتقهقرِ والانحطاطِ الذي تعيشُهُ الأمةُ رغمَ ما تملكُهُ من إمكاناتٍ بشريةٍ وماديةٍ؟ والجوابُ المختصَرُ عن هذا السؤالِ: إنَّ السرَّ يَكْمُنُ في عدمِ أخذِهَا بأسبابِ النصرِ والتمكينِ.

ولذا أردتُّ أن أُذَكِّرَ نفسي وإخواني وأخواتي في اللهِ تعالى بها في هذا المقامِ الكريمِ؛ حتى نسعى لتحقيقِهَا، وثَمَّةَ يُغَيِّرُ اللهُ من أحوالِنَا، وتعودُ أمورُنَا إلى سابقِ عهدِهَا. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد:11]. وهذه الأسبابُ يُمْكِنُ عرضُ أهمِّهَا فيما يأتي:

1- العقيدةُ الصحيحةُ الراسخةُ في القلوبِ: ولذا كان لِزَامًا على المُصْلِحِينَ في هذه الأمةِ أن يُعْنَوْا بتصحيحِ عقائدِ المسلمين التي شَابَهَا ما شَابَهَا من خرافاتٍ وشركيَّاتٍ تتنافى مع نقاوةِ العقيدةِ الإسلاميةِ ونصاعتِهَا.

كما أنَّهم مُطَالَبُونَ بتثبيتِ أركانِ هذه العقيدةِ في القلوبِ، بحيث لا يَنْتَابُ المؤمنَ معها أدنى شكٍّ أو ريبٍ.

يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا[1] وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ[2] إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:139]. فهذه الآيةُ الكريمةُ فيها تعزيةٌ من اللهِ تعالى للمسلمين فيما أصابَهم يومَ أُحُدٍ من هزيمةٍ، فذكَّرَهم بأنَّهم سينتصرُون على عدوِّهم لا مَحَالَةَ -وهو ما حصلَ فعلاً في سائرِ الغزواتِ التي كانت بعد وقعةِ أحدٍ-، بشرطِ أن يكُونُوا من أصحابِ الإيمانِ الحقِّ الراسخِ في القلوبِ.

ويُؤَكِّدُ تعالى على هذا فيقولُ بلغةِ التقريرِ: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم:47].

2- التقوى والعملُ الصالِحُ: إن العقيدةَ الإسلاميةَ الصحيحةَ الراسخةَ في القلبِ لا بُدَّ أن تُثْمِرَ في المسلمِ مخافةً من اللهِ تعالى، وعملاً صالحًا يتقربُ به إليه[3].

وهاهنا يكونُ المؤمنُ أهلاً لِئَنْ يُنْصَرَ على عدوِّهِ، ويُمَكَّنَ لدينِهِ في الأرضِ. يقول جلَّ في عُلاَهُ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ[4] وَعَمِلُوا

---

[1]- لا تَهِنُوا: لا تَضْعُفُوا.

[2]- الأَعْلَوْنَ: الغالِبُونَ لأعدائِكم، المنتصِرُونَ عليهم.

[3]- يُعَرِّفُ علماءُ العقيدةِ الإيمانَ بأنَّهُ اعتقادٌ بالْجَنَانِ -القلب-، ونطقٌ باللسانِ، وعملٌ بالجوارحِ والأركانِ.

[4]- في مطلعِ هذا النصِّ القرآنيِّ تأكيدٌ على السببِ الأولِ وهو: العقيدةُ الصحيحةُ الراسخةُ في القلوبِ.

الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم[1] فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ[2] وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ[3] وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[النور:55-57].

3- الابتعادُ عن الذنوبِ، والتوبةُ منها: إن التقوى والعملَ الصالحَ يَقْتَضِيَانِ أنْ لا يَتَنَجَّسَ المسلمُ بدَنَسِ المعاصي والمنكراتِ.

والملاحِظُ في دنيا المسلمين اليومَ سيجِدُ أنَّ سائرَ الذنوبِ قد انتشرتْ فيهم -إلا مَنْ رحمَ ربِّي-، وهذا يتطلبُ توبةً فرديةً وجماعيةً من الأمةِ؛ حتى تُنْصَرَ على عدوِّهَا، ذلك أنَّهُ من شؤمِ الذنبِ أن يُسَلِّطَ اللهُ تعالى العدوَّ على المسلمِ، فستعليَ عليه، ويستبيحَ بَيْضَتَهُ.

ولذا كان سلفُنَا يقولُون: "ما نزلَ بلاءٌ[4] إلا بذنبٍ، ولا رُفِعَ إلا بتوبةٍ". وهذه القاعدةُ قَرَّرَهَا القرآنُ الكريمُ عندما قال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ

---

[1]- يَسْتَخْلِفَنَّهُمْ: أي يجعلُهم خلفاءَ حاكمِينَ في أهلِ الأرضِ، سائدِينَ سكانَهَا.

[2]- يُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ: أي يُظْهِرُ الإسلامَ على سائرِ الأديانِ، ويحفظُهُ من التبديلِ والزوالِ.

[3]- مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ: أي جَاعِلِينَ اللهَ تعالى عاجزًا على أن يُدْرِكَهُمْ بإنزالِ نقمتِهِ وعذابِهِ.

[4]- وأيُّ بلاءٍ أكبرُ من ذهابِ صيتِ الأمةِ وعزتِهَا واضمحلالِ كيانِهَا؟!

وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[1]﴾[الروم:41].

وما انهزامُ المسلمين في أُحُدٍ إلا بسببِ معصيةِ بعضٍ من الصحابةِ رضي الله عنهم للنبيِّ ﷺ، وهؤلاءِ هُمُ الرماةُ الذين أمرَهم بأن لا يَبْرَحُوا أماكنَهم من الجبلِ، سواء انتصرَ المسلمُون أو انهزمُوا. لكن لَمَّا فَتَحَ اللهُ تعالى على المسلمين في بدايةِ المعركةِ بالنصرِ، نزلَ أغلبُهم غيرَ عَابِئِينَ بأمرِ النبيِّ ﷺ، ولا أوامرِ قائدِهم عبدِ اللهِ بنِ جُبَيْرٍ رضي الله عنه، وحينَها أصبحَ ظهرُ المسلمين غيرَ مَحْمِيٍّ، الأمرُ الذي جعلَ خالدًا بنَ الوليدَ رضي الله عنه -وهو آنذَاك مع المشركين- يستديرُ بجَمْعٍ من جيشِهِ المنهزِمِ، فيأتي عليهم من خلفِهم، ويقتلُ القائدَ والتسعةَ الذين بَقَوْا معه، فتحوَّلَ نصرُ المسلمين إلى هزيمةٍ.

---

[1]- أي: ظهرَ الجدبُ والقحطُ والغلاءُ والأوبئةُ والأمراضُ والحروبُ والفتنُ، بسببِ الذنوبِ والمعاصي وإعراضِ الناسِ عن دينِ اللهِ تعالى وإهمالِ شرائعِهِ. وإنَّما أصابَهم اللهُ تعالى بذلك تعجيلاً بالعقوبةِ على بعضِ تلك الذنوبِ والمعاصي؛ حتى يَتُوبُوا منها، وثَمَّةَ تصلحُ أحوالُهم، ويستقيمُ أمرُهم. ولو أنَّ اللهَ تعالى عاقبَهم على كلِّ ذنوبِهم لأَنْهَى حياتَهم، وقَضَى على وجودِهم، وشاهدُ هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾[فاطر:45].

وقد خَلَّدَ القرآنُ الكريمُ هذا الموقفَ العصيبَ؛ حتى يبقى عبرةً للمسلمين في كلِّ مكانٍ وزمانٍ. قال سبحانَهُ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم[1] بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ[2] وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ[3] وَعَصَيْتُم[4] مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ[5] مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا[6] وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ[7] ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:152].

4- اتحادُ الأمةِ وتماسكُهَا: إنَّ المسلمين يُمْكِنُ أن يَختلفوا سياسيًّا، أو فكريًّا، أو عرقيًّا، أو لسانيًّا، أو جهويًّا، أو قطريًّا، أو مذهبيًّا، وهذِهِ هي سنةُ اللهِ في خلقِهِ، ولكن لا يَجوز أن يتعصبُوا لهذه الأمورِ، فيتشرذمُوا ويتفرقُوا، وثَمَّةَ يتجرَّأُ عليهم عدوُّهم، وينالُ منهم. وهذا ما نصحَنَا به ربُّنَا جلَّ في عُلاَهُ عندما قالَ: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ

---

[1]- تَحُسُّونَهُم: تقتلونهم.

[2]- فَشِلْتُمْ: ضَعُفْتُمْ وجَبُنْتُمْ عن القتالِ.

[3]- تَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ: أي تنازعَ الرماةُ مع قائدِهم.

[4]- عَصَيْتُم: خالفتُمْ أوامرَ النبيِّ ﷺ وقائدِكم عبدِ اللهِ بنِ جبيرٍ رضي الله عنه.

[5]- مَّا تُحِبُّونَ: أي النصرُ الذي كان في البدايةِ.

[6]- مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا: أي الرماةُ الذين نزلُوا من الجبلِ لأجلِ جمعِ الغنائمِ. وهذا لا يعني أنَّهم دائمًا يَرْكَنُونَ إلى الدنيا -حَاشَا صحابة رسولِ اللهِ ﷺ-، ولكنْ ضَعُفَ هؤلاءِ في هذه الحالِ فقط.

[7]- مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ: وهم ابنُ جبيرٍ ومَنْ بقيَ معه في مراكزِهم حتى اسْتُشْهِدُوا.

فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ[1] وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال:46].

والنبيُّ ﷺ كان يُشَنِّعُ على مَنْ يظهرُ منه تشتيتٌ للمسلمين، وتمزيقٌ لصفِّهم. ومِنَ الأدلةِ على ذلك ما كان منه في غزوةِ بَنِي الْمُصْطَلَقِ سنة 6هـ، لَمَّا كَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً مِنَ الأنصارِ، فقال المهاجريُّ: "يا معشرَ المهاجرين". وقال الأنصاريُّ: "يا معشرَ الأنصارِ". فسمع ذلك النبيُّ ﷺ فقال: ﴿مَا بَالُ دَعْوَى الجاهليةِ؟!﴾ فأخبرُوهُ بِمَا وَقَعَ، فقال: ﴿دَعُوهَا؛ فإنَّها مُنْتِنَةٌ﴾[رواه الترمذي][2].

5- الإعدادُ الماديُّ في جميعِ النواحي العلميةِ والاقتصاديةِ والاجتماعيةِ والسياسيةِ والعسكريةِ: إنَّ الناظرَ في حالِ المسلمين اليومَ يجدُهم مُقَصِّرِينَ جدًّا في هذا الجانبِ؛ إذْ يكادُ ينالُ منهم الضعفُ، وغيابُ الاستراتيجياتِ في جميع تلك المجالاتِ، في الوقتِ الذي يزدادُ فيه عدوُّهم قوةً إلى قوتِهِ من يومٍ إلى آخَرَ.

ولذا فإنَّهم مُطَالَبُونَ أكثر من أيِّ وقتٍ مَضَى بتقويةِ أنفسِهم في جميعِ هذه النواحي ائتمارًا بأمرِ ربِّهم سبحانَهُ وتعالى عندما كلَّفهم بذلك، وبَيَّنَ لهم علةَ التكليفِ، قال ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ

---

[1]- تَذْهَبَ رِيحُكُمْ: تتلاشَى قوتُكم ودولتُكم.

[2]- للتوسعُ أكثرَ في هذه الفكرةِ، يُرْجَعُ إلى ما وَرَدَ في المحاضرةِ الثانيةِ التي كان عنوانُها: "مِنْ بركاتِ الاتحادِ بين المسلمين".

لا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ[1]﴾[الأنفال:60].

6- الدعاءُ والتضرعُ إلى اللهِ تعالى بطلبِ النصرِ والتمكينِ: إنَّ المسلمين لَوِ الْتَجَؤُوا إلى ربِّهم بصدقٍ وإنابةٍ قبلَ وأثناءَ وبعدَ اتخاذِ الأسبابِ الماديةِ، وسألُوهُ أن يُمَكِّنَ لهم ولدينِهم في الأرضِ، لَحَقَّقَ لهم مرادَهم، ولَمَا خَيَّبَ آمالَهم فيه؛ إذ إنَّهُ هو القائلُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:60].

وهكذا كان شأنُ الصالحين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهكذا كان اللهُ تعالى معهم، قال ﷻ: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ[2] لِجَالُوتَ[3] وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً[4] وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا[5] وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ[6] جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ[7] وَعَلَّمَهُ مِمَّا

---

[1]- للوقوفِ على بعضٍ من معاني مُفْرَداتِ هذه الآيةِ الكريمةِ، يُرْجَعُ إلى المحاضرةِ الخامسةَ عشرةَ التي هي بعنوانِ: "دروسٌ وعِبَرٌ من غزوةِ بَدْرٍ الكُبرى".

[2]- بَرَزُواْ: ظهروا في ميدانِ المعركةِ.

[3]- جَالُوتَ: هو قائدُ جيشِ الكفرِ.

[4]- أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً: اصْبُبْهُ في قلوبِنا صبًّا؛ حتى تمتلئَ، فلا يبقَى للخوفِ والجزعِ موضعٌ.

[5]- ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا: أي في أرضِ المعركةِ؛ حتى لا ننهزمَ.

[6]- دَاوُودُ: هو نبيُّ اللهِ عليه السلام، إلاَّ أنَّهُ لم يكن حينئذٍ نبيًّا.

[7]- الْحِكْمَةَ: النبوةَ.

يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ[1] لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة:250-251].

وهذا هو أيضًا شأنُ النبيِّ ﷺ؛ فإنَّهُ دائمًا يُفَوِّضُ الأمرَ إلى اللهِ تعالى، ويسألُهُ النصرَ على الأعداءِ. ومِنْ نماذجِ ذلك ما كان منه يومَ الأحزابِ، حيث دَعَا على المشركين فقالَ: ﴿اللهمَّ مُنْزِلَ الكتابِ، سريعُ الحسابِ، اللهمَّ اهْزِمِ الأحزابَ، اللهمَّ اهْزِمْهُمْ وزَلْزِلْهُمْ﴾[رواه الشيخان].

7- التفاؤلُ والاستبشارُ بالنصرِ والتمكينِ: إنَّ المسلمَ إذا تفاءَلَ واستبشرَ بأنَّ النصرَ للإسلامِ والمسلمين، وأنَّ اللهَ تعالى سيُمَكِّنُ لهما لا محالةَ، سيدفعُهُ تفاؤُلُهُ واستبشارُهُ إلى السعيِ إلى تحقيقِ أسبابِ ذلك.

أمَّا إذا كان متشائِمًا يائسًا، ينظرُ إلى المستقبلِ بنظرةٍ سوداويَّةٍ، فإنَّهُ سيبعثُ إلى نفسِهِ رسالةً سَلْبِيَّةً مَفَادُهَا: لِمَ تُتْعِبِينَ وتُجْهِدِينَ نفسَكِ في اتخاذِ أسبابِ النصرِ والتمكينِ رغمَ أنَّهما بعيدَا المنالِ، مستحيلاَ التحقيقِ؟ وحِينَهَا ستَخُورُ عزيمتُهُ ويَفْشَلُ ويَتَثَبَّطُ -بل يُفَشِّلُ ويُثَبِّطُ-، فيزيدُ الأمرَ تعقيدًا، ويُكَرِّسُ الواقعَ المريرَ.

ولذا نجدُ أنَّ النصوصَ الشرعيةَ كثيرًا ما تبعثُ التفاؤلَ في نفسِ المسلمِ، وتُبْعِدُ التشاؤمَ عنه، ومِنْ تلك النصوصِ قولُهُ تعالى:

[1]- دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ: أي بالجهادِ والقتالِ، حيث يُدْفَعُ أهلُ الكفرِ بأهلِ الإيمانِ، وثَمَّةَ تَنْتَظِمُ الحياةُ.

﴿يُرِيدُونَ[1] أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ[2] وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ[3] عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة:32-33].

وعن خَبَّابِ بنِ الْأَرَتِّ ﷺ قال: شكوْنَا إلى النبيِّ ﷺ وهو متوسدٌ بردةً[4] في ظلِّ الكعبةِ -وقد لَقِينَا من المشركين شدةً- فقلْنَا: "ألا تدعو اللهَ". فقعدَ -وهو مُحْمَرٌّ وجهُهُ- وقال: ﴿كان الرجلُ فيمن كان قبلكم يُحْفَرُ له في الأرضِ، فيُجْعَلُ فيه، فيُجَاءُ بمنشارٍ، فيوضعُ فوق رأسِهِ، فيُشَقُّ باثنيْنِ، فما يصدُّهُ ذلك عن دينِهِ. واللهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمرَ[5]، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْتٍ[6]، لا يخافُ إلا اللهَ، أو الذئبَ على غنمِهِ، ولكنَّكم تستعجلُون[7]﴾[رواه البخاري].

---

[1]- يُرِيدُونَ: أي اليهود والنصارى.

[2]- بِأَفْوَاهِهِمْ: أي بالكذبِ عليه، والطعنِ فيه، وصَرْفِ الناسِ عنه.

[3]- لِيُظْهِرَهُ: لِيُعْلِيَهُ.

[4]- بردةً: كساءً مخططًا يُلْتَحَفُ به.

[5]- لَيُتِمَّنَّ هذا الأمرَ: أي لا بدَّ أن يتمَّ أمرُ الإسلامِ، وتعلُو دعوةُ الحقِّ، وينتشرَ هذا الدينُ في بقاعِ الأرضِ؛ حتى يكونَ الأمنُ والأمانُ.

[6]- صنعاءُ وحَضْرَمَوْتٍ: مدينتانِ يَمَنِيَّتَانِ عريقتانِ بينهما مسافةٌ مُعْتَبَرَةٌ.

[7]- تستعجلُون: تطلبُون العجلةَ في الأمورِ، ولكلِّ شيءٍ في علمِ اللهِ أَوَانٌ، فإذا حانَ الوقتُ جاءت نُصْرَةُ اللهِ.

8- الترفُّعُ عن الدنيا، والتعلُّقُ بالآخرةِ: ذلك أنَّ الدنيا دارُ مَمَرٍّ، والآخرةَ دارُ مَقَرٍّ. ولذا كان لزامًا على المسلمِ العاقلِ اللبيبِ أن يعملَ للباقيةِ، ولا يَعْبَأَ بالفانيةِ، وحينئذٍ سيصرِفُ جهدَهُ ووقتَهُ ومالَهُ وسائرَ إمكاناتِهِ في خدمةِ الإسلامِ والمسلمين؛ حتى يَظْفَرَ بالسعادةِ الأبديةِ، وهاهنا يُنْصَرَانِ، ويُمَكَّنُ لهما.

أمَّا إذا كان قلبُ المسلمِ متعلقًا بالدنيا، فإنَّ جَمَّ اهتمامِهِ سيَنْصَبُّ في كلِّ ما مِنْ شأنِهِ أن يجلبَ لذاتِهِ الرفاهيةَ الزائلةَ، فينسَى بذلك دينَهُ وأمتَهُ، ومِنْ ثَمَّةَ يَضِيعَانِ.

وهذا ما حَذَّرَ منه النبيُّ ﷺ كما في حديثِ ثَوْبَانَ رضي الله عنه الذي قال فيه: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿يُوشِكُ الأممُ أن تَدَاعَى عليكم[1]، كما تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا﴾. فقال قائلٌ: ومِنْ قلةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: ﴿بل أنتُم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنْ غثاءٌ كغثاءِ السَّيْلِ، ولَيَنْزِعَنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، ولَيَقْذِفَنَّ في قلوبِكم الْوَهَنَ﴾. قال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ وما الوهنُ؟ قال: ﴿حُبُّ الدنيا، وكراهيةُ الموتِ﴾[رواه أبو داود].

9- حملُ جميعِ أفرادِ الأمةِ هَمَّهَا، والعملُ لأجلِ نهضتِهَا: إنَّ نصرَ الإسلامِ والمسلمين مسؤوليةُ جميعِ المسلمين دونَ استثناءٍ؛ إذ إنَّ كلَّ واحدٍ منهم ذكرًا كان أم أنثى، صغيرًا أم كبيرًا، عالِمًا أم غيرَ عالِمٍ،

---

[1]- تَدَاعَى عليكم: تتكالبَ عليكم. وهذا هو الذي نَرَاهُ الآنَ ونعيشُهُ.

حاكمًا أم محكومًا، الجميعُ مُطَالَبٌ بأن يكونَ على ثغرٍ من ثغورِ الإسلامِ، يَحْرِصُ أَيَّمَا حرصٍ على أن لا يُؤْتَى الإسلامُ من جهتِهِ.

وهذا لا يكونُ إلا بزرعِ الْحُرْقَةِ عليه، تمامًا كما كانت عند النبيّ القدوةِ ﷺ الذي قال عنه القرآنُ الكريمُ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ[1] عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ[2] أَسَفاً[3]﴾[الكهف:06].

أمَّا إذا كان العاملُون لأجلِ مصلحةِ الإسلامِ والمسلمين قلةً، وأكثرُ الناسِ -كما في هذا الزمانِ- لا يبالِي بذلك، فإنَّ الوضعَ سيَتَرَدَّى، والمآلاتِ ستكونُ وخيمةً.

ولي في هذا المقامِ أن أُورِدَ أنموذجًا يتمثَّلُ في حدثِ الهجرةِ النبويةِ لِأُدَلِّلَ به على أنَّ انتصارَاتِ سلفِنَا الصالحين ما كانت تَحْصُلُ لهم إلاَّ عندما كان جميعُهم حاملاً لِهَمّ دينِهِ وعاملاً له.

فالهجرةُ رغم أنَّهَا تَمَّتْ في ظروفٍ صعبةٍ، إلا أنَّها نجحتْ؛ بسببِ خروجِ جميعِ الصحابةِ من المكيّين، وعلى رأسِهم رسولُ اللهِ ﷺ وصاحبُهُ أبو بكرٍ رضي الله عنه الذي أَخَذَ كلَّ ما يملكُهُ من مالٍ لتأمينِ طريقِ رسولِ اللهِ ﷺ، وقيامِ أسماءَ بنتِهِ رضي الله عنها بإعدادِ الزَّادِ لهما، والإتيانِ به في غارِ ثورٍ، وتَسَمُّعِ عبدِ اللهِ بنِ الصديقِ أيضًا رضي الله عنه ما يقولُهُ الناسُ في مكةَ نهارًا؛ لِيأتيَهما به في غارِ ثورٍ ليلاً، ومجيءِ عامرِ بنِ

---

[1]- بَاخِعٌ نَّفْسَكَ: قاتلُهَا ومُهْلِكُهَا.

[2]- الْحَدِيثِ: القرآنِ.

[3]- أَسَفاً: غضبًا وحُزْنًا شديدًا.

فُهَيْرَةَ ﵁ راعي غنمِ أبي بكرٍ إليَهما كلَّ مساءٍ؛ لِيُطعمَهما من ألبانِها، ولِيُزِيلَ آثارَ أقدامِ أسماءَ وعبدِ اللهِ، وبقاءِ عليّ ﵁ في مضجعِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ حتى يُمَوِّهَ على المشركين، وأولاً وأخيرًا بيعةِ الأنصارِ رضي الله عنهم للنبيّ ﷺ، ثمَّ تقديمِهم الغاليَ والنفيسَ في سبيلِ إيواءِ وحمايةِ إخوانِهم المهاجرين.

وفي خاتمةِ هذا الموضوعِ أريدُ أن أقولَ: إنَّ المسلمَ وهو يسعى في تحقيقِ أسبابِ النصرِ والتمكينِ، ينبغي عليه أن لا يستعجلَ قَطْفَ الثمرةِ، وإلاَّ فإنَّ القاعدةَ الشرعيةَ القائلةَ: "مَنِ استعجلَ الشيءَ قبل أوانِهِ، عُوقِبَ بحرمانِهِ" ستنطبِقُ عليه.

ولذا عليه أن يبذلَ جهدَهُ، ويستفرغَ وُسْعَهُ، ويعلمَ أنَّ أجرَهُ ثابتٌ عند اللهِ تعالى في الآخرةِ، وأنَّ النتيجةَ الدنيويةَ العاجلةَ مَرَدُّهَا إلى اللهِ تعالى العليمِ الحكيمِ.

وهذا ما تشيرُ إليه الآياتُ الآتيةُ، عندما قَدَّمَتْ حصادَ الآخرةِ عن حصادِ الدنيا. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الصف:10-13].

نسألُهُ جلَّ في عُلاَهُ أن يرفعَ عن المسلمين ضُرَّهُمْ، وأن يُجَنِّبَهم جميعًا الفتنَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ. كما نسألُهُ أن ينصرَ الإسلامَ ويُعِزَّ المسلمين، وأن يرفعَ بفضلِهِ وكرمِهِ رايةَ الحقِّ والدينِ؛ إنَّهُ وليُّ ذلك والقادرُ عليه، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

الخاتمة

بعد عرضِ هذه النماذجِ من المحاضراتِ التي بذلَ المحاضِرُ في إعدادها جهدَهُ، من حيث جمعُ مادتِها العلميةِ، ثم تنقيحُ وتهذيبُ تلك المادةِ؛ لِتُقَدَّمَ -إنْ شاءَ اللهُ تعالى- للمستمِعِ أو القارئِ الكريمِ في قالبٍ مُمَنهجٍ، وأفكارٍ متسلسلةٍ، وأسلوبٍ سَلِسٍ، ولغةٍ سليمةٍ، أريد أن أُلفتَ نَظَرَ إخواني المحاضِرين من الأئمةِ والأساتذةِ الذين يَوَدُّون أن يَصِلُوا إلى قلوبِ مُسْتَمِعِيهم، وأن يؤثِّروا فيهم، وأن تَصِلَ إليهم الرسالةُ التي يريدُون أن يبلِّغوها لهم، أريدُ أن أقولَ: إنَّ هذا الهدفَ النبيلَ المنشودَ لا يَتَأَتَّى لهم إلا باجتماعِ أمورٍ أهمُّها:

1- الإخلاصُ للهِ تعالى في الدعوةِ إلى اللهِ تعالى عن طريقِ المحاضرةِ؛ إذ إنَّ المحاضِرَ المخلِصَ يَشِعُّ منه نورٌ أثناءَ مخاطبتِهِ للناسِ، يجعلُ الطريقَ مُمَهَّدًا إلى قلوبِهم للتَّقَبُّلِ منه.

وقد أَكَّدَ النبيُّ ﷺ على ذلك لَمَّا أخبرَ بأنَّ العالِمَ المعلِّمَ غيرَ المخلِصِ هو من الثلاثةِ الذين يَدْخُلُونَ النارَ أولاً يومَ القيامةِ، قال صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ: ﴿إنَّ أولَ الناسِ يُقْضَى يومَ القيامةِ عليه رجلٌ استُشهد فأُتِيَ به فعرَّفَهُ نعمتَهُ فعرَفها. قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهدتُّ. قال: كذبتَ، ولكنَّك قاتلتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِئٌ، فقد قِيلَ، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهِهِ حتى أُلقيَ في النارِ.

ورجلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلَّمَهُ، وقرأَ القرآنَ، فأُتِيَ به فعرَّفَهُ نعمَهُ فعرَفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تَعَلَّمْتُ العلمَ وعَلَّمْتُهُ، وقرأتُ فيك القرآنَ، قال: كذبتَ، ولكنَّك تَعَلَّمْتَ ليُقَالَ عَالِمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقَالَ هو قارئٌ، فقد قِيلَ، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهِهِ حتى أُلْقِيَ في النارِ. ورجلٌ وسَّع اللهُ عليه وأعطاه من أصنافِ المالِ، فأُتِيَ به فعرَّفَهُ نعمَهُ فعرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تُحِبُّ أن يُنْفَقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لَكَ، قال: كذبتَ، ولكنَّكَ فعلتَ ليُقَالَ هو جوادٌ، فقد قِيلَ، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهِهِ ثم أُلْقِيَ في النار﴾[رواه مسلم].

2- جودةُ الإعدادِ للمحاضرةِ علميًّا ولغويًّا ومنهجيًّا[1]، وأحسِبُ أني قد أعطيتُ في هذه الْبَاقَةِ نموذجًا طيِّبًا في ذلك.

---

[1]- مِمَّا يعينُ الأخَ المحاضِرَ على التحضيرِ الجيدِ بعد استعانتِهِ بالله تعالى، وما فتحَ عليه من زادٍ علميّ حَصَّلَهُ من خلالِ طَلَبِهِ السابقِ:

- المصادرُ والمراجعُ الشرعيةُ، سواء في نسختِهَا الورقيةِ أو الاكترونيةِ؛ وذلك للتثبتِ من المعلوماتِ.

- القواميسُ والمعاجمُ اللغويةُ؛ لضبطِ الكلماتِ والمصطلحاتِ، وأنا شخصيًّا لا أُحَضِّرُ موضوعًا إلاَّ وهي بين يدي.

- جريدةٌ من الجرائدِ اليوميةِ الوطنيةِ؛ حتى يواكبَ الأحداثَ المحليةَ والوطنيةَ والدوليةَ، فكَمْ من موضوعٍ كان منطلقُهُ من مادةٍ من جريدةٍ، أو على الأقلِّ دُعِّمَ من خلالِ بعضِ أخبارِهَا وإحصاءاتِهَا.

ثم يأتي حُسْنُ الإلقاءِ، باستعمالِ النَّبرةِ أو الحركةِ المناسبتيْنِ للموضوع المعيَّنِ، أو الفكرةِ الْمُحَدَّدَةِ[1].

وهنا يُنْصَحُ المحاضِرُ بمراعاةِ وحدةِ الموضوعِ؛ فلا يُقْحِمُ أكثرَ من موضوعٍ في محاضرةٍ واحدةٍ، بل ينبغي أن يُفْرِدَ لكل موضوعٍ محاضرةً خاصةً به؛ حتى يُعْطِيَهُ حقَّهُ من المعالَجَةِ، ولا يُشَتِّتَ ذهنَ المستمِعِ.

كما أنه مطالَبٌ باختيارِ الموضوعِ المعيَّنِ في الوقتِ الذي يناسبُهُ؛ فلو أنه أثارَ موضوعًا مَهْمَا كانت أهمِّيَّتُهُ من غيرِ مناسَبَةٍ لَكَانَ هو في وادٍ، والمستمِعُونَ في وادٍ آخَرَ.

وعليه أن يحذرَ من استخدامِ الأحاديثِ الضعيفةِ أو الموضوعةِ؛ فإنَّ لنا -والحمدُ للهِ- غُنْيَةً في النصوصِ الصحيحةِ، وكذا إقحامِ القصصِ التي فيها غرابةٌ من حيث مضمونُهَا، الأمرُ الذي يُشَكِّكُ في صِحَّتِهَا، أو القصصِ والأحداثِ المعاصرةِ التي -على فَرَضِ صِحَّتِهَا-، فإنَّ ما وَرَدَ فيها يُعَدُّ أمرًا شاذًّا، لا يصدرُ إلا عن الشواذِّ.

3- أن يُعطِيَ المحاضِرُ من نفسِه لمستمِعِيهِ القدوةَ الحسنةَ، بحيث لا يَسْمَعُونَ منه شيئا نظريًّا، ثم يَرَوْن منه عكسَهُ أو التقصيرَ فيه عمليًّا؛ فإنَّ التأثيرَ فيهم عمليًّا أبلغُ من التأثيرِ فيهم قوليًّا.

---

[1]- يَذْكُرُ بعضٌ من المهتمين بالبرمجةِ اللغويةِ العصبيةِ أن نسبةَ تأثيرِ كلماتِ المخاطِبِ في المخاطَبِ: 7%، وأن نسبةَ تأثيرِ نبرتِهِ الصوتيةِ: 38%، بينما نسبةُ تأثيرِ حركةِ جسمِهِ وملامحِ وجهِهِ: 55%.

ومِمَّا يُذْكَرُ في هذا المضمارِ عن الْوُعَّاظِ من سلفِنَا الصالحين، أنَّ عبيدًا جاءوا لأحدِهم وطَلَبُوا منه أن يَحُثَّ الناسَ في مواعظِهِ على عتقِ الرقابِ؛ حتى يتحرَّرُوا من ذُلِّ العبوديةِ، فأعطاهم وعدًا بأنْ يفعلَ ذلك، فانتظرُوهُ في مناسباتٍ عديدةٍ، لكنَّهُ لم يفعلْ، حتى بلغَ منهم اليأسُ مَبْلَغَهُ، إلا أنَّهُ فَاجَأَهم بعد مدةٍ بموعظةٍ مؤثرةٍ، حتى إنَّ بعضَهم ظَفَرَ بالعتقِ، فلمَّا سألوهُ عن سببِ تأخيرِهِ لِطَرْقِ هذا الموضوعِ، ذَكَرَ لهم أنه حينَ مُوَاعَدَتِهِمْ لم يَكُنْ يَمْلِكُ عبدًا، وعلى هذا لم يَكُنْ من المناسِبِ أن ينصحَ غيرَهُ بالعتقِ وهو لا يَمْلِكُ عبيدًا يُعْتِقُهم، إلى أنْ مَنَّ اللهُ تعالى عليه بمالٍ، فاشترى عبدًا وأَعْتَقَهُ، وثَمَّةَ حُقَّ له أنْ يتكلَّمَ في الموضوعِ، وحُقَّ أنْ يُصْغَى له ويُسْتَجَابَ لموعظتِهِ.

4- العنايةُ بالهيئةِ العامةِ لِمنَصَّةِ المحاضرةِ؛ ذلك أنَّنَا في زمنٍ أصبحَ الناسُ يَهْتَمُّونَ فيه بالشكلياتِ كثيرًا، فهُمْ إذا رَأَوُا المحاضِرَ يجلسُ على كرسيٍّ مُحْتَرَمٍ، وبين يديْهِ طاولةٌ تليقُ بالمقامَ، وقد وُضِعَ عليها رداءٌ، وربَّمَا شيءٌ من الورودِ أيضًا، فإنهم سيَنْجَذِبُونَ إلى المحاضرَةِ، ويَقْرَؤُونَ من خلالِ ذلك أهميةَ ما سيُلْقَى.

أمَّا إذا خَلَتِ المحاضرةُ من هذا الجانبِ الشكليِّ، اسْتَخَفَّ بها الناسُ، فيَنْصَرِفُونَ عنها.

5- استعمالُ الوسائلِ الحديثةِ أثناءَ إلقاءِ المحاضرةِ، وأخصُّ بالذكرِ جهازَ الحاسوبِ المحمولِ أو الثابتِ مع جهازِ الإسقاطِ (ديتاشو)،

بحيث يَمْزُجُ المحاضِرُ بين ما يُسْمَعُ وما يُشَاهَدُ، ويُوَاكِبُ تطوراتِ عصرِهِ، فيكون ذلك أَدْعَى للتفاعلِ مع موضوعِهِ.

وأَذْكُرُ أنني شهدتُّ محاضرةً في أحدِ مساجدِ بلديةِ الوادي، وكان الشيخُ قد استعانَ بالجهازيْنِ السابقيْنِ، فإذا بالأعناقِ تَشْرَئِبُّ إليه، والقلوبُ تتعلَّقُ به، وتُحَقِّقُ المحاضرةُ في الأخيرِ جُزْءًا كبيرًا من أهدافِهَا، رغمَ أنَّ المعلوماتِ المقدَّمَةَ معهودةٌ، بل كان لي عليها بعضُ الملاحظاتِ، خاصةً وأنَّ المحاضِرَ لم يكن متخصِّصًا في العلومِ الشرعيةِ، ولم يُعْنَ بضبطِ الآياتِ والأحاديثِ وتخريجِهما، إلا أنَّ نجاحَهَا يرجعُ أساسًا إلى أنها كَسَرَتِ الرُّوتِينَ المعهودَ الذي لا يخرجُ عن مجرَّدِ محاضِرٍ يُلْقِي بلسانِهِ، ومستمِعٍ يتلقَّى بأذنيْهِ.

6- وجديرٌ بي أنْ أَذْكُرَ في هذا المقامِ تجربةً طيبةً قُمْتُ بها في مسجدِ "عمر"، تتمثَّلُ في تعليقِ المحاضرَةِ -وكذا خطبة الجمعة- على لوحةِ الإعلاناتِ، فيما يُشْبِهُ المجلةَ الحائطيَّةَ، فكان لذلك أثرٌ طيبٌ يتعلَّقُ بتثبيتِ المعلومةِ لِمَنْ شَهِدَ المحاضرَةَ، وتسجيلِ ما يريدُ أنْ يسجِّلَهُ مِمَّا فَاتَهُ وقتَ السماعِ، أو زيادةِ التوثُّقِ منه.

هذا إضافةً إلى تعميمِ الفائدةِ الواردةِ في تلك المحاضرةِ؛ بحيث يُمْكِنُ أنْ يقرأَهَا مَنْ يَمُرُّ بالمسجدِ من غيرِ أهلِهِ، أو مَنْ كان من أهلِهِ لكنْ لم تسمحْ له الظروفُ بحضورِهَا.

7- يُنْصَحُ المحاضِرُ بعدمِ التكلُّفِ في رَفْعِ صوتِهِ؛ حتى لا يَضُرَّ بأحبالِهِ الصوتيَّةِ، وعليه أن يَعْلَمَ بأنَّ مَهَمَّتَهُ لا تنتهي عند المحاضَرَةِ

المعيَّنَةِ التي هو بِصَدَدِ إلقائِهَا، بل إنَّ مَهَمَّتَهُ إنْ كَتَبَ اللهُ تعالى له الثباتَ على طريقِ الدعوةِ إلى دينِهِ، والبقاءَ على قَيْدِ الحياةِ، قد تَسْتَمِرُّ إلى أربعةِ أو خمسةِ عقودٍ من الزمنِ أو أكثر.

ولذا ينبغي أن يستعينَ بمكبِّرِ الصوتِ دائمًا، ولا يُجْهِدُ نفسَهُ في إسماعِ الحاضرين، وإنْ حَدَثَ وأنْ قَصَّرَ القائمون على المسجدِ في إعدادِ أجهزةِ الصوتِ، فلْنَخْسَرْ محاضرةً، ولا نَخْسَرُ طاقةً مُعْتَبَرَةً تحتاجُ إليها الأمةُ في مستقبَلِ أيامِهَا.

8- وبما أننا نتحدَّثُ عن المحاضراتِ المسجديَّةِ، فإنني أغتنمُ الفرصةَ لأقولَ لإخواني الأئمةِ كلمةً مِنْ عادتي أن أقولَهَا لإخواني المشايخِ الذين كنتُ أَدْعُوهُمْ إلى المحاضرةِ في مسجدِ "عمر بن الخطاب" الذي أتشرَّفُ بإمامتِهِ، وكذا مسجد "العزيز" لَمَّا كنتُ مسؤولاً عن جمعيتِهِ الدينيةِ، كنتُ أقولُ لهم: إننا نحتاجُ إلى تغييرِ وجوهِ المحاضِرين في مساجدِنَا؛ من بابِ تطبيقِ قاعدةِ: "إنَّ مُغَنِّيَةَ الحيِّ لا تُطْرِبُ"، أقولُ هذا لهم ردًّا عليهم عندما يقولون لي معتذِرين عن عدمِ تَلْبِيَتِهم لدعوتي إيَّاهم: كيف نحاضِرُ وأنتَ فيهم؟ وما الذي سنزيدُهُ نحن عمَّا يُمْكِنُ أن تقولَهُ أنت لهم؟ لَكِنِ الذي يحصلُ أنهم عندما يَأْتُونَ ويحاضِرُونَ هو أنْ يكونَ الحضورُ أكثرَ، والتفاعلُ أكبرَ؛ لأنَّ النفوسَ من طبعِهَا أن تَتَشَوَّفَ للجديدِ، كما أنَّ الموضوعَ الذي شَهِدُوهُ معي مرارًا سوف يسمعونَهُ مطروقًا بشكلٍ لم يَأْلَفُوهُ، ومُشْتَمِلاً على لَفَتَاتٍ وفوائدَ لم يسمعُوها مِنِّي.

وهنا أُشِيرُ إلى أهميةِ التعريفِ بالمحاضِرِ الْمُسْتَضَافِ، وبيانِ مكانتِهِ العلميةِ، ودورِهِ الدعويِّ، وذلك بين يديْ محاضرَتِهِ؛ حتى يَعْلَمَ الحاضرُونَ عَمَّنْ يَتَلَقَّوْنَ دينَهم.

9- وحتى لا يكونَ المحاضِرُ ثقيلاً على المستمعِين، ينبغي أن لا يتجاوزَ وقْتُ المحاضَرَةِ الساعةَ، وأُفَضِّلُ أن تكونَ هذه الساعةُ فيما بين المغربِ والعشاءِ[1]؛ لأنَّ أغلبَ الناسِ يَفْرُغُون فيه من أعمالِهِم ووظائفِهم وقضاءِ مصالحِهم.

وحَبَّذَا أن لا تكونَ المحاضرةُ في أيامِ الاثنينِ والخميسِ والجمعةِ؛ لأنَّ اليوميْنِ الْأَوَّلَيْنِ يَوْمَا صومِ نَفْلٍ، فنُمَكِّنُ بذلك الصائمَ من إفطارِهِ بارتياحٍ، ونُرَسِّخُ في الناسِ سُنِّيَّةَ صيامِ هذيْنِ اليوميْنِ الفاضليْنِ. أما يومُ الجمعةِ؛ فإنَّ الناسَ قد تَلَقَّوْا فيه خطبةَ الجمعةِ، وربما شَهِدُوا الدرسَ الذي يُلْقَى قَبْلَهَا، فيكونُ من الثقيلِ عليهم أن يَحْضُرُوا موعظةً ثالثةً بالليلِ، خاصة وأنهم في الأغلبِ عوامٌ، ولَيْسُوا طُلاَّبَ عِلْمٍ بالمعنى الحقيقيِّ.

---

[1]- هذا هو الأصلُ الذي أَرَاهُ، إلا أنَّ هناك استثناءاتٍ قد تكونُ في أحيانٍ وظروفٍ ومناسباتٍ خاصةٍ، بحيث يحتاجُ المحاضِرُ إلى أن تكونَ محاضرتُهُ في وقتٍ آخَرَ. وعلى سبيلِ المثالِ: فإنَّ المحاضَرَةَ في رمضانَ يُمْكِنُ أن تكونَ ناجحةً إذا كانت بعد صلاةِ العصرِ، أو بعد صلاةِ التراويحِ مباشرةً.

10- ومِنْ بابِ تتميمِ الفائدةِ المأخوذةِ من المحاضرةِ الْمُلْقَاةِ، ينبغي أن يفتحَ المحاضِرُ في نهايتِهَا مجالَ السؤالِ والتعقيبِ[1]، فإنَّ ذلك من شأنِهِ أن يزيلَ اللَّبْسَ الذي يُمْكِنُ أن يَطْرَأَ على بعضٍ من كلامِهِ عندما يُؤَوَّلُ تأويلاً غيرَ سائغٍ، فيغتنمُ الفرصةَ لِيُظْهِرَ قصدَهُ منه، إضافةً إلى أنه قد لا يَنْتَبِهُ إلى بعضِ الجزئياتِ المهمةِ المتعلِّقَةِ بالموضوعِ، أو أنه يَنْسَاهَا بعد أن كان مُسْتَحْضِرًا إيَّاها، فتأتي هذه الفرصةُ لِتَكْتَمِلَ الصورةُ عند المستمِعِ.

إلا أنني أنصحُ أنْ تكونَ الأسئلةُ والتعقيباتُ مكتوبةً، اللهمَّ إنْ كان ذلك من شيخٍ أُمِّيٍ لا يُجِيدُ الكتابةَ، فإنَّ ذلك يُتَغَاضَى عنه.

أقولُ هذا؛ حتى يَتَحَكَّمَ المحاضِرُ في الوقتِ المخصَّصِ للأسئلةِ والتعقيبِ، ويَفْسَحَ المجالَ لأكبرِ عددٍ من المتدخِّلين.

كما أنَّ هذا يَسُدُّ بابَ الفتنِ التي يُمْكِنُ أنْ يُثِيرَهَا بعضٌ من الناسِ من أصحابِ الأغراضِ المختلفةِ في مثلِ هذا المجلسِ العامِّ.

11- إذا كانتِ المحاضرةُ أسبوعيةً، فيجبُ على المحاضِرِ أن ينضبطَ في الحضورِ إليها وتقديمِها، إذ لا نتصوَّرُ تَغَيُّبَهُ عنها إلا لعذرٍ قاهرٍ.

---

[1]- على المحاضِرِ أن يَحْذَرَ من الاستطرادِ في الإجابةِ عن الأسئلةِ وإيرادِ التعقيباتِ، خاصةً وأنَّنَا نتصوَّرُ أنْ يكونَ هذا في ما بين أذانِ العشاءِ والإقامةِ لصلاتِها، فينبغي أن لا يتجاوَزَ بذلك على أقصى تقديرِ ربعَ ساعةٍ؛ حتى لا يُثِيرَ حفيظةَ وغضبَ البعضِ.

وهذا الانضباطُ يتعبَّدُ به المحاضِرُ إلى ربِّهِ ابتداءً؛ لأنه مِنْ بابِ الوفاءِ بالعهودِ التي قال عنها تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[الإسراء:34].

هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فإنه سيعطي للمستمِع من نفسِهِ القدوةَ الحسنةَ؛ ذلك أنَّ المستمِعَ إذا رأى من المحاضِرِ انضباطًا وتفانِيًا وتضحيةً، قَرَأَ في ذلك صدقَهُ وإخلاصَهُ وأهميةَ ما يُلْقِيهِ عليه، وثَمَّةَ ينضبِطُ ويتفانَى ويضحِّي من أجلِ الحضورِ[1].

وقبل أن أُنْهِيَ خاتمتي أريدُ أن أُنَبِّهَ إخواني وأخواتي في اللهِ تعالى من المستمِعِين وطلابِ العلمِ الشرعيِّ ومُحِبِّي المواعظِ إلى الأمورِ الآتِيَةِ:

1- إنَّ شهودَ المحاضراتِ في الفضائياتِ الطيبةِ المختلفةِ، أو على الشبكةِ العنكبوتيةِ، أو سماعَهَا عن طريقِ جهازِ الحاسوبِ أو قارئِ الأقراصِ أو أشرطةِ كاسيت لا يُغْنِي أبدًا عن حضورِ المحاضراتِ في المساجدِ؛ وهذا لعدةِ اعتباراتٍ:

---

[1]- أَعْرِفُ بعضًا من الإخوةِ من أصحابِ العلمِ الشرعيِّ والكفاءةِ الخطابيَّةِ أنهم فَشِلُوا في محاضرَاتِهم، لا لِشَيْءٍ إلا لأنهم يَتَغَيَّبُونَ عنها لأسبابٍ بسيطةٍ، كان بإمكانِهم أن يتجاوزوها بطريقةٍ ما، فأعَانُوا بذلك الشيطانَ على مستمعِيهم ومحبِّيهم، فهَجَرُوا محاضرَاتِهم.

أ- أنَّ المستمِعَ للموعظةِ إذا لم يَكُنْ في المسجدِ فإنه يكونُ عرضةً لتشويشِ الأهلِ والأولادِ، وزياراتِ الناسِ واتصالاتِهم الهاتفيةِ، كما أنه قد يَسْتَرْخِي ويَسْتَلْقِي، فتضْعُفُ قَابِلِيَّتُهُ للتَّلَقِّي والتحصيلِ.

ب- أنَّ المستمِعَ للموعظةِ يكونُ استعدَادُهُ النفسيُّ أكبرَ للتَّلَقِّي والاستفادةِ إذا بَذَلَ جهدًا في التنقلِ إلى المسجدِ، وكان يَسْمَعُهَا مِنْ فِي المحاضِرِ مباشرةً.

ج- الظَّفَرُ التامُّ بفضلِ حضورِ مجالسِ الذكرِ والعلمِ الذي لا يكونُ إلا إذا كان ذلك في بيوتِ اللهِ ﷻ. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ سَلَكَ طريقًا يلتمسُ فيه علمًا، سَهَّلَ اللهُ له به طريقًا إلى الجنةِ. وما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ، ويَتَدَارَسُونَهُ بينهم، إلا نَزَلَتْ عليهم السكينةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرحمةُ، وحَفَّتْهُمُ الملائكةُ، وذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عنده﴾[رواه مسلم].

د- اغتنامُ فرصةِ التواجدِ المباشِرِ مع المشايخِ والمحاضِرِين لأجلِ سؤالِهم وطرحِ الإشكالاتِ عليهم، وسماعِ الإجابة والحلولِ منهم.

هـ- التَّقَوّي على السماعِ والاستفادةِ بشكلٍ دائمٍ مستمرٍّ؛ ذلك أنَّ المسلمَ ضعيفٌ بمفردِهِ، قويٌّ بإخوانِهِ، ولذا قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿عليك بالجماعةِ؛ فإنما يأكلُ الذئبُ القاصيةَ﴾[رواه أحمد وأبو داود والنسائي].

2- ضرورةُ إحضارِ القلمِ والورقِ أثناءَ سماعِ المحاضَرَةِ؛ حتى تُدَوَّنَ عناصرُهَا الأساسيةُ، ويُقَيِّدَ المستمِعُ فوائدَهَا ونفائسَهَا، بحيث يستطيعُ بعد ذلك أن يرجعَ إلى محتوياتِهَا كلَّما احتاجَ إليها.

أُذَكِّرُ بهذا؛ لأنَّ أكثرَ مَنْ رأيتُ مِنَ المستمِعين -ولَسْتُ مبالغًا- لا يُعْنَوْنَ بالكتابةِ، ولذا أَتَوَقَّعُ تَبَخُّرَ كثيرٍ مِمَّا سمعُوهُ واستفادُوهُ بعد فترةٍ وجيزةٍ، خاصةً ونحن في زمنٍ ضَعُفَتْ فيه ذاكراتُنَا، وكَثُرَتْ فيه مشاغِلُنَا الدنيويةُ، وأصبحتْ تَطْغَى على تفكيرِنَا وعقولِنَا.

هذا إضافة إلى أنَّ عنايةَ المستمِعِ بالكتابةِ مِنْ شأنِهِ أن يجعلَهُ يَقِظًا متفاعِلاً أكثرَ مع المحاضَرَةِ؛ ذلك أنَّ مَنْ لا يُعْنَى بالكتابةِ يكونُ عُرْضَةً لِشُرُودِ الذهنِ، بل قد يَأْخُذُ منه النعاسُ والنومُ مَأْخَذَهُمَا[1].

3- وجوبُ تَحَمُّلِ مسؤوليةِ التبليغِ، فإنَّ مِنْ أمانةِ العلمِ -لا سَيَّمَا الشرعيّ منه- أنَّ المسلمَ إذا تَعَلَّمَ منه شيئًا أنْ يُعْنَى بتبليغِهِ للآخَرِينَ مِنْ إخوانِهِ مِمَّنْ لم يتشرَّفْ بِتَعَلُّمِهِ، ابتداءً بزوْجِهِ وأولادِهِ، مرورًا بأصحابِهِ وجلسائِهِ وزملائِهِ في عملِهِ، وانتهاءً بِمَنْ تسمحُ الفرصةُ

---

[1]- حَبَّذَا أنْ يُخَصِّصَ الأخُ المستمِعُ دفترًا للمحاضراتِ المسجديةِ، ولا يكتفي بمجردِ الكتابةِ على أوراقٍ متفرقةٍ قد يَضِيعُ بعضُهَا منه، وحتى على فَرَضِ عدمِ ضياعِهَا، فإنَّهُ قد يَشُقُّ عليه أَمْرُ الرجوعِ إلى المعلوماتِ المدوَّنَةِ فيها؛ بِحُكْمِ بَعْثَرَتِهَا.

بدعوتِهم ومناصحَتِهم في شَتَّى المناسباتِ. قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿بَلِّغُوا عَنِّي ولَوْ آية[1]﴾[رواه البخاري].

وينبغي أن يَعْرِفَ الأخُ الكريمُ أنه مِنَ التقصيرِ أن يَقْصُرَ المسلمُ الخيرَ الذي ظَفَرَ به من شهودِهِ للمحاضراتِ على نفسِهِ، ولا يَتَعَدَّى به إلى غيرِهِ من الْمُحِيطِينَ به. ويدخلُ في هذا الإطارِ ما تَعَلَّقَ بدعوةِ مَنْ لا يَكْتَرِثُ بالمحاضراتِ إلى الحضورِ إليها؛ فإنَّ الدالَّ على الخيرِ كفاعلِهِ كما جاء عن النبيِّ ﷺ في سُنَنِ الترمذيِّ.

4- وهنا أخصُّ شريحةَ النساءِ بالكلامِ قائلاً: كَمَا أنَّ الرجالَ مَعْنِيُّونَ بالمحاضراتِ المسجديةِ، فإنَّهُنَّ مَعْنِيَّاتٌ أيضًا بها.

والذي أَعْتَقِدُهُ أنَّ هذه الشريحةَ حضورُهَا مُهِمٌّ جدًّا؛ لأنَّ المرأةَ سريعةُ التأثُّرِ، سهلةُ الانقيادِ، وإذا ما صَلَحَتْ أَثَّرَتْ إيجابًا في زوجِهَا وأولادِهَا وأخواتِهَا وصُوَيْحِبَاتِهَا، وصَدَقَ مَنْ قالَ: "وراءَ كلِّ رجلٍ عظيمٍ امرأةٌ".

---

[1]- هذا الحديثُ على وَجَازَتِهِ فيه تكليفٌ وتشريفٌ وتخفيفٌ. فأمَّا التكليفُ فَفِي قولِهِ ﷺ: ﴿بَلِّغُوا﴾؛ فإنَّ المسلمَ مُطَالَبٌ بالتبليغ والدعوةِ إلى اللهِ تعالى. وأمَّا التشريفُ فَفِي قولِهِ ﷺ: ﴿عَنِّي﴾، أي عنِ النبيِّ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ، فإنَّهُ مِمَّا يُشَرِّفُ المسلمَ في الدنيا والآخرةِ أن يُبَلِّغَ الدينَ الحقَّ الذي جاء به محمدٌ ﷺ. وأما التخفيفُ فَفِي قولِهِ ﷺ: ﴿ولَوْ آية﴾، فإنَّ المسلمَ لا يُطْلَبُ منه أن يكونَ خطيبًا منبريًّا مُفَوَّهًا، أو محاضِرًا بليغًا مؤثِّرًا، أو داعيةً كبيرًا يُشَارُ إليه بالْبَنَانِ، بل يَكْفِيهِ أن يُبَلِّغَ بحسبِ مُسْتَوَاهُ العلميِّ وإمكاناتِهِ والفرصِ المتاحَةِ له.

ولكنْ أيُّ امرأةٍ هي التي تصنعُ العظماءَ؟ إنها المرأةُ الدَّيِّنَةُ الواعيةُ، ومِنَ السُّبُلِ الأساسيةِ التي يُمْكِنُ أنْ تَتَعَلَّمَ من خلالِهَا أحكامَ دينِهَا، وتَكْتَسِبَ بها وَعْيَهَا، شهودُ الخطبِ الْجُمَعِيَّةِ والمحاضراتِ المسجديةِ[1].

وفي الختام أسأل اللهَ ﷻ أن يكونَ عملي هذا خالصًا لوجهِهِ الكريمِ، وأن يُوَفِّقَنِي وسائرَ إخواني المدرِّسين والمحاضرين في المساجدِ في أداء مَهَمَّتِنَا الشريفةِ العظيمةِ على أتمِّ وجهٍ، وأنْ يُبَارِكَ في روادِ بيوتِ اللهِ وعُمَّارِهَا؛ إنه على ذلك قديرٌ، وبالإجابةِ جديرٌ، إنه نِعْمَ المولَى ونِعْمَ النصيرُ، وصلِّ اللهمَّ وسلِّمْ على نبيِّنَا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وَآخِرُ دعوانا أنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

---

[1]- يُطَالَبُ الإخوةُ القائمون على المساجدِ بأنْ يُخَصِّصُوا مكانًا مناسبًا للنساءِ؛ حتى يَتَمَكَّنَّ من شهودِ الخيرِ فيها. وأنا أستغربُ مِنْ أناسٍ يَتَحَرَّجُونَ من خروجِ المرأةِ من بيتِهَا مُحَجَّبَةً مُحْتَشِمَةً، وذهابِهَا إلى بيوتِ اللهِ ﷻ، مع أَنَّنَا في زمنٍ تَحَرَّرَتْ فيه المرأةُ، وأصبحت تَخْرُجُ إلى المدارسِ والجامعاتِ، والمصانعِ والإداراتِ، والأسواقِ والحماماتِ، والحلاَّقَاتِ والْمُزَيِّنَاتِ، والأعراسِ وسائرِ المناسباتِ.

فهرس الموضوعات

المؤلِّفُ في سطورٍ

– هو عبد القادر بن خليفة مهاوات، جزائريٌّ من مواليد سبعينياتِ القرن العشرين للميلاد.

– حائز على شهادة الليسانس من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، وحَظِيَ بتكريم رئيس الجمهورية: "عبد العزيز بوتفليقة"؛ لحصوله على المرتبة الأولى في دفعته على مستوى الجامعة.

– نال شهادة الماجستير في الفقه الإسلامي وأصوله من الجامعة نفسها بتقدير "جيد"، وكان موضوع البحث بعنوان: "تجديد أصول الفقه عند حسن الترابي".

– مسجل في مرحلة الدكتوراه بجامعة الأمير، وموضوع بحثه: "أحكام الرياضات البدنية في الفقه الإسلامي: دراسة مقارنة بالقوانين المنظِّمة للألعاب الرياضية"، بإشراف الدكتور "نذير حمادو".

– أهم الوظائف التي شغلها:

1- خطيب ومدرس بمسجد عمر بن الخطاب، بحي أولاد أحمد بمدينة الوادي.

2- أستاذ بمعهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي بالوادي.

3- أستاذ لعلوم الشريعة بالتعليم الثانوي بعدد من ثانويات ولاية الوادي.

4- مدرس ومستشار بعدد من المدارس القرآنية العصرية بولاية الوادي.

– مِنْ إنتاجه وإسهاماته العلمية والدعوية:

1- كتابٌ منشورٌ عنوانه: "نماذج من الخطب المنبرية"، طُبِعَ سنة 1430هـ/2009م بمطبعة الوليد بالوادي.

2- بحثٌ علميٌّ أنجزه رفقة زميله الأستاذ "إبراهيم ربح الله"، بعنوان: "التنظير الأصولي بين المنهج التراثي وفكر التجديد"، وأصْلُهُ مذكرة ليسانس تطوعيَّة، أُجيزت بتقدير "مشرف جدًّا".

3- ضيفٌ أساسٌ على برنامج "الدين والحياة" الذي يُبث مباشرةً عبر أثير "إذاعة سوف" المحلية أسبوعيًّا، يناقِشُ فيه مع مُعِدِّ البرنامج الأستاذ "العيد بلالي" قضايا المجتمع من منظور شرعي.

4- محاضراتٌ ألقاها في مساجد وندواتٍ وملتقياتٍ محليَّة عُقدت بولاية الوادي في مناسباتٍ مختلفةٍ، إضافة إلى الإشراف على عدة دورات في "علم المواريث".

نماذج من: المحاضرات المسجدية

إنَّ هذا العملَ يُمكنُ اعتبارُهُ تأصيلا وتنظيرًا للمحاضرةِ المسجديَّةِ، لا سيَّمَا في مقدمتِهِ وخاتمتِهِ، وتطبيقًا لِمَا جاء فيهما -المقدمة والخاتمة- من خلال المحاضراتِ العشرين المقدمةِ في هذا الإنجاز.

الشيخ الأمين مناني

ردمك : 3-2819-0-9947-978

الإيداع القانوني : 5753- 2009

مكتبة اقرأ

منشورات مكتبة اقرأ - قسنطينة

دار بهاء الدين للنشر والتوزيع - قسنطينة